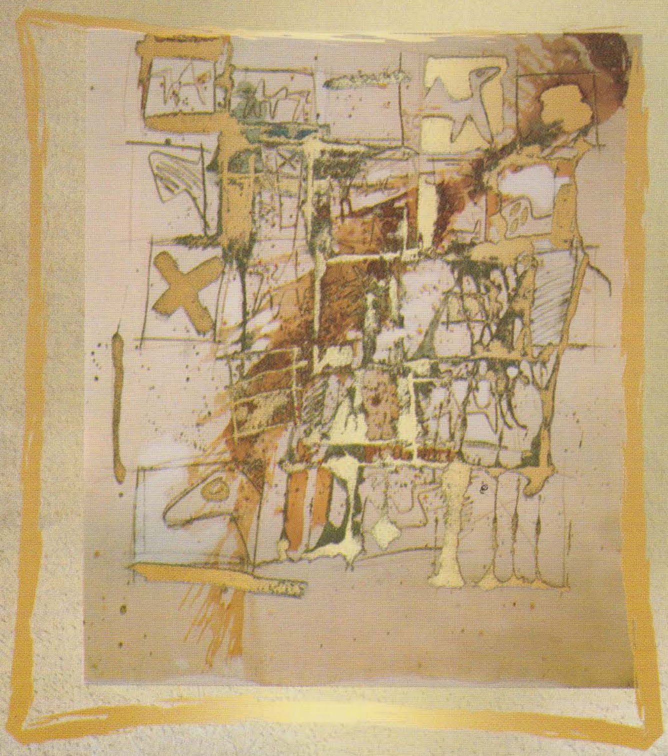
الإختلاف والنقد
ثم الإصلاح

رؤية نقدية لإصلاح الشعائر الحسينية

مختار الأسدي



دار الكتب العراقية

الاختلاف والنقد

الطبعة الثانية المنقحة

٢٠١١ م - ١٤٣٢ هـ





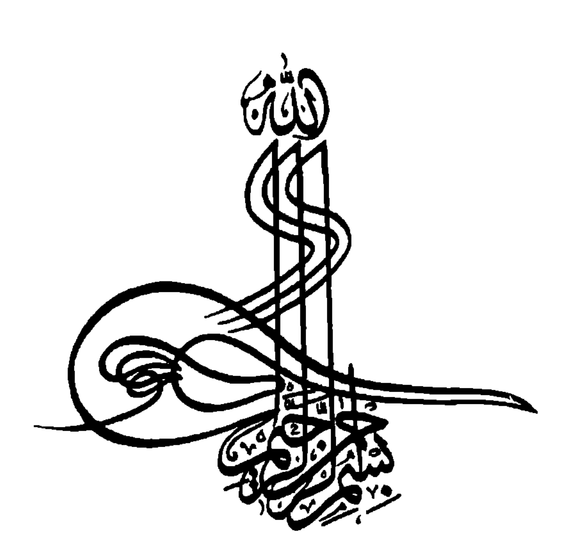
مكتب ١٠٢ - سنتر زعرور - طريق المطار
ت: ٠١/٤٥٦٥٦٧ - ٠٣/٢١٠١٥٦ - ص.ب ٢٥/٤٠
E-mail:iraqibooks@hotmail.com
بيروت - لبنان

الاختلاف والنقد
ثم الإصلاح

رؤية نقدية لإصلاح الشعائر الحسينية

مختار الأسدي

دار الكتب العراقية
للطباعة والنشر والتوزيع



الإهداء

* إلى ذوي الألباب الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه....

* إلى الذين يفهمون أن الاختلاف ضرورة من ضرورات التكامل، وأن النقد هو البوابة الأولى من بوابات النُضج والخصوبة والرُشد.

* إلى الذين استوعبوا عظمة النفس (اللوّامة) وأدركوا سرّ اقترانها بيوم القيامة ﴿لا أُقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوّامة﴾.

* إلى الذين قدّروا دور «الزمان والمكان» وأدركوا معنى «التزاحم» و «الأحكام الثانوية»، وسعوا ويسعون لتوضيح هذه العناوين والعمل بها وظيفةً لا «توظيفاً»، وإصلاحاً لا «تصليحاً»، واعتقاداً لا «احترافاً»...

* إلى كل هؤلاء، وقبلهم أبي الأحرار وسيد الشهداء.

أهدي ثواب هذه الكلمات....

كلمة الناشر

الاختلاف والنقد والإصلاح هي العناوين الأكثر إثارة للجدل في ثقافتنا الإسلامية المعاصرة، وخاصة الشيعية منها... وهي المفاهيم الأكثر إلحاحاً لإلزام روّاد المشروع الإسلامي النهضوي المعاصر على تحديد ملامحها ومصاديقها في حركة الواقع...

وفيما يُعتبر الحوار الخطوة الأولى لفهم الاختلاف واستيعاب النقد، ومواجهة كل ألوان الاستبداد السياسي والإرهاب الفكري، يُعتبر تحديد المصاديق هذه أو كشفها أهم عوامل النجاح أو الفشل في توجيه هذا المشروع وقيادته نحو الخطاب المتطرف أو الخطاب الهادئ المعتدل.

وتأتي أكبر مصاديق الاختلاف في الدائرة الشيعية المعاصرة، عند المرور على ذكرى سيد الشهداء وذكرى سيّدة النساء ـ عليهما السلام ـ وخاصة حين يثار سؤالان هما: هل الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ عَبرة فقط، أم عِبرة وعَبرة؟ وهل الزهراء ـ سلام الله عليها ـ شعار فقط وعنوان مظلومية صارخة في التأريخ، أم إنها قدوة ومنهج وسلوك؟!

ويشتد الاختلاف حين يشتبك الشعر مع الشعار، وهذان مع الشعائر! وحين تتداخل الوظيفة مع التوظيف، والعِبرة مع العَبرة، وكذلك حين تُفتقد الموازنة في أيّهما أهم: التوجيه الفكري؟ أم الخطاب التعبوي؟ وأيهما أجدر بالترويج ثقافة الثورة أم ثورة الثقافة؟! وأي المراجع أقدر على تشخيص المصلحة وتحديد الأولويات هذا أم ذاك؟ وهكذا.

يأتي هذا الكتاب محاولة جادّة لتفكيك هذه المتشابكات بين الرأي والرأي الآخر... ويأتي خطوة مسؤولة لتعميق الوعي داخل البيت الواحد، والأسرة الواحدة والدائرة الواحدة...

كما يأتي تأصيلاً جاداً لردم الهوّة المفتعلة بين «المفكر» و «الفقيه»، وتقليص المسافة بين «المثقف» و «الخطيب» وصولاً لأفضل وأنضج طرق التعاطي مع هذه المتشابكات ومواجهة الغزو الثقافي المعاصر، والوقوف أمام التحدّيات الكبرى التي تريد الإجهاز على المشروع الإسلامي الواعي والتلاعب بمبادئ الصحوة الإسلامية الراشدة...

كتاب غلبتْ عليه الجدّية وطبعته المتانة، وإنْ لم يخلُ من طرفةٍ هادفةٍ هنا، ومتعةٍ محسوبةٍ هناك، تنقّل خلالها الكاتب بين أكثر المواضيع حساسية في أوساط العلماء والعوام، والمثقفين والدهماء، وتناولَ بالنقد والتحليل أرفع الخيوط التي تجمع العِبرة مع العَبرة، وتُزاوج بين اللافتة والقدوة، وتكشف المسافة بين الشعار والشعور، والتطرّف والاعتدال، وتدعو لمراجعة المسيرة ووعي الذات، وعدم تقديسهما أو تنزيههما أو تأليههما.

إنه كتاب جدير بالقراءة، وجدير بالتأمل والإثراء.

الناشر

مقدمة المؤلّف

إفتُتح المشهد الأول من مشاهد بدء الخليقة، وبنصّ القرآن الكريم بالحوار. وعند الحوار جاء الاختلاف، وبعد الاختلاف جاء الخلاف والجدل والسجال...

نعم، جاء الحوار كلمة البدء الأولى مع أول لحظة في أول محطة بعد خلق الإنسان مباشرة، وكان الحوار والاختلاف هما أول علامتين أو دالّتين في رحلة التكامل والكدح التي أرادها الخالق سبحانه وتعالى للمخلوق، إنساناً كان أم ملاكاً، بشراً طينياً أم إبليساً نارياً...

﴿وإذ قُلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس. قال أأسجد لمن خلقتَ طيناً﴾[1]

﴿وإذْ قال ربّك للملائكة، إني خالقٌ بشراً من طين. فإذا سوّيتُه ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلّهم أجمعون. إلاّ إبليس استكبرَ وكان من الكافرين. قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيدي؟ استكبرتَ أم كنتَ من العالين؟ قال أنا خيرٌ منه، خلقتني من نار وخلقته من طين، قال فاخرج منها فإنّك رجيم. وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين، قال ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المُنظَرين. إلى يوم الوقتِ المعلوم...﴾ (سورة ص: ٧١-٨١).

وهكذا ابتدأ الكفاح وانطلقت مسيرة التكامل والكدح نحو الله:

﴿يا أيها الإنسان، إنك كادحٌ إلى ربّك كدحاً فملاقيه﴾ (الانشقاق: ٦)

جاء المشهد الأول، في المحطة الأولى، إذن، على هيئة حوار، ثم اختلاف، ثم تدافُع ومداخلات، ثم تضاربُ رؤى، وتشابُك آراء، وتقاطُع اجتهادات.

---

[1] - الإسراء: ٦١.

﴿وإذْ قال ربّك للملائكة، إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون... قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا... قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم، إني أعلم غيب السماوات والأرض، وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون...﴾ (البقرة: ٣٠-٣٥)

وهكذا إلى نهاية هذا الحوار العاصف الذي سنأتي على بعض تفاصيله وبعض دلالاته لاحقاً...

ومن محطتَيْ الحوار أو الإختلاف هاتين، تتجلى المسافات الشاسعة في الذات المخلوقة بين «الأنا والآخر»، وكذلك بين المعانِد وطالب الحقيقة، وبين المتواضع العارف قدْرَه وحدّه، والمغرور «النرجسي» المتغطرس الذي عشق نفسه وقدّس ذاته، حتى عارض ربّه وقال ﴿أنا خيرٌ منه﴾، فكانت هذه «الأنا» بداية الشرّ وبداية التعالي، وبداية السقوط، وكانت الضريبة باهضة مكلّفة، طرداً وإبعاداً إلى يوم يُبعثون، ولعنة أبدية إلى قيام يوم الدين. فصار (طاووس الملائكة) الذي عبد ربّه ألف سنة أو آلاف، ملعوناً رجيماً بعيداً عن رحمة الله بل منبوذاً في ساحة سخطه إلى يوم الوقت المعلوم، لأنه استكبر وكان من العالين، أو لأنه قال ﴿أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقتَه من طين﴾.

وعلى امتداد هذه الرحلة الطويلة يبقى الحوار هو المنهج السائد بين الإنسان وربّه تارةً: ﴿ربّ أرني كيف تحي الموتى﴾[1] و ﴿ربّ أرني أنظر إليك﴾[2].

وبين الإنسان وأخيه الإنسان تارةً أخرى:

---

[1]- البقرة: ٢٦٠ على لسان النبي إبراهيم (عليه السلام).

[2]- الأعراف: ١٤٣ على لسان النبي موسى (عليه السلام).

﴿أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً﴾[١] ﴿أكفرتَ بالذي خلقكَ من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سوّاك رجلاً﴾[٢]. وبين النبيّ وقومِه تارةً ثالثة:

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنّك من الكاذبين، قال يا قوم ليس بي سفاهةٌ ولكني رسول من ربّ العالمين...﴾[٣].

ويأتي الحوار أيضاً بين الطواغيت وشعوبهم، وبين الأب وإبنه، والإبن وأبيه، وبين الكافرين والمؤمنين، وبين أهل الكتاب والمسلمين، وبين أهل الجنّة وأهل النار، وفي عشرات السور والآيات القرآنية الكريمة التي جاءت فيها كلمات (قال، وقالوا، وقلنا، وقل، وقالت، وقالا) وجميع مشتقات أو اشتقاقات هذا الفعل واستخداماته وصياغاته في لغة الحوار العربية العذبة الجملية...

وكما جاء الحوار حرّاً صريحاً، بلا فوقية أو استعلاء، جاء الاختلاف مسألة طبيعية، كضرورة من ضرورات التكامل أحياناً. وشكّاً موصلاً إلى يقين أحياناً أخرى، أو رحلة مثمرة، من الجهل إلى المعرفة، ومن النقص إلى الكمال تارة ثالثة.

وجاء طرح الرأي والرأي الآخر، هو الآخر وسيلة معبّرة لبلورة الآراء، وتنضيج الرؤى وترشيد الواقع، إضافة إلى تخصيبه وإثرائه، وإملاء فراغاته، ولكن في إطار العدل والإنصاف، ومنح فرص متكافئةٍ للمتحاورين، ومن منطلق: «إذا تعادلت القوتان ظهر الحق، أو ظهر العدل». ومن عُمق الآيتين القرآنيتين العظيمتين:

﴿وإنا أو إياكم لعلى هُدىً أو في ضلالٍ مبين﴾[٤]

---

[1]- الكهف: ٣٤.

[2]- الكهف: ٣٧.

[3]- الأعراف: ٦٦-٦٧ على لسان النبي هود (عليه السلام).

[4]- سبأ: ٢٤.

أو ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم﴾[١]

وجاءت أثناء ذلك كلّه، المراجعة، ونقد الذات، واسترجاع الوعي ورقابة الضمير، وتفعيل دور النفس اللوامة:

﴿ربّ إني ظلمت نفسي، فاغفر لي﴾[٢]

﴿قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾[٣].

﴿لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾[٤]

﴿وإلاّ تغفر لي وترحمني أكنْ من الخاسرين﴾[٥]

وهذا كلّه على لسان الأنبياء عليهم السلام لا غيرهم، الذين هم أعظم الناس وأبعدهم عن الظلم والخطأ، فكيف بالبشر الناقصين الخطائين الذين هم أعجز عن التكامل، وأقل قدرةً على التسامي والارتقاء والصعود، وإنْ كان الجميع في سعيٍ حثيث لبلوغ الرشد ومعرفة الحقيقة، واستلهام الحق. وذلك بعد أن أدركوا عظمة النفس اللّوامة التي قرنها ـ عزّ وجل ـ بأعظم يوم في نهاية الدنيا، وهو يوم القيامة فقال ـ عزَّ من قائل ـ ﴿لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوّامة﴾[٦].

ولم يكن الاختلاف، ومن ثم النقد، وبعدهما المراجعة، أو التوبة أو الإنابة، إلاّ سبلاً نزيهة للوصول إلى أفضل درجات التكامل، وبعيداً عن تنزيه الذات أو تقديسها

---

[1]- آل عمران: ٦٤.

[2]- القصص: ١٦ على لسان النبي موسى (عليه السلام).

[3]- الأعراف: ٢٣ وعلى لساني آدم وحواء معاً.

[4]- الأنبياء: ٨٧ على لسان النبي يونس (عليه السلام).

[5]- هود: ٤٧ على لسان النبي نوح (عليه السلام).

[6]- القيامة: ١-٢.

أو تأليهها ـ والعياذ بالله ـ وإنطلاقاً من قولة النبي (ص): «ألدّ أعداء المرء نفسه التي بين جنبيه» واكتشاف آليّة الإنتصار على هذه النفس عِبر التدبّر في قول القائل:

«تجاوزْ الذات بحاجة إلى جناحي نسر لا إلى جناحَيْ فراشة» أو قول الشاعر:

ولـــم أرَ في عيوب الناس نقصاً كنقص القـادرين عــــلى التمـــام

وكما يأتي النقد من الخصوم والأعداء إيقاظاً لمتثائب أو تنبيهاً لغافل، أو تلويحاً لساهٍ، فينتفع من يُريد أن ينتفع، ويستفيد من يُريد أن يستفيد، فإنه يأتي من داخل الدائرة الواحدة والبيت الواحد، والصف المؤمن الواحد، ويكون صيحة مطلوبة، بل مرغوبة أحياناً لتصحيح خطأ، أو تأشير زلل، أو معاكسة إنجرار، أو مواجهة ترهّل، أو وضع حدّ لحالات إنحدار أو استرسال غير مرغوب فيها.

وذلك قبل أن يستفحل الخطأ، ويتجذّر الزلل ويصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، ولا سيما في دوائر الترهّل أو الإنجرار أو الإنحدار أو الاستدراج هذه، التي قد تسود فيها لغة التملق والتزلّف، والتي يستمرئ أصحابها الضبابية والظلامية والمداراة أحياناً بل يروحون يفضّلونها على لغة الصراحة والوضوح والمكاشفة أحياناً أخرى.

صحيح أنّ الحقيقة مُرّة، وفي النُصح لسع العقارب ـ كما يقولون ـ ولكن المكاشفة المؤلمة أفضل من الخداع الناعم، والنصيحة الصادقة أفضل من التغافل الأبله. والنقد البنّاء أصلح من التمرير والمداجاة والتزلف.

وإذا كانت المودّة حق، فإن الحق فوق المودّة.. وإذا كانت المداراة واجبة فقول الحق أكثر وجوباً والساكت عن الحق شيطان أخرس.

وبكلمة واحدة: «ليكن آثرهم عندك أقْولهم بمرّ الحقّ لك» على حد تعبير الإمام علي (عليه السلام) في وصيته المعروفة لواليه على مصر مالك الأشتر (رضي الله عنه) أي (ليكن أقربهم إليك أجرأهم في قول الحق عندك).

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن الاختلاف لا يعني الخلاف، وإن النقد لا يعني الشطب أو الحذف أو الإلغاء، وإن التصحيح لا يعني التسقيط والتشهير، وإن النصيحة لا تعني التجريح والتعريض، ولا تعني الغمز واللمز، أو توجيه الطعنات ورصد العثرات...

نعم، إن الاختلاف والنقد والنصيحة والتصحيح، كلها ضرورات حياتية مهمة، لبناء الفرد والمجتمع، وإنها أسس متينة من ركائز التكامل والنضج ناهيك عن كونها أسباباً لابدّ منها للتسامي والارتقاء، لا يستغني عنها أي بيت أو أسرة، أو جماعة، بل تحتاجها كلّ ثورة وكل حزب وكل أمة، ويسعى لترويض الناس عليها، كلّ قائد وكل ثائر وكل مصلح وكل مجدّد، بل كلّ رسولٍ وكلّ نبي، وكلّ وصي، وكل زعيم...

فإذا غاب الاختلاف، مات التكامل، وركَد نهر الحياة وتوقّف فيض شلاّلها المتدفّق. وإذا غاب النقد، كثرت الطحالب، ونما العلّيق ونبتت الأشواك، وانتشرت الأُرضة وأسنت المياه العذبة، وإذا أُسكتت صيحات التصحيح وانكفأ المصحّحون، فاز المتملقون ـ كما يقول ابن خلدون ـ وسادت لغة المداجاة، واستشرت أمراض المصانعة والمكاشرة، والمعاشرة المزيفة التي لا يترشّح عن عدم معالجتها أو التصدّي لها إلاّ السيّئ أو الرديء فالأردأ...

وإذا انكمش الواعون والمصلحون والناقدون والمغيّرون، أكلت نخرة المتزلفين كيان الأمة، وتآكلت حضارات الشعوب من داخلها وسادت الدكتاتورية والاستبداد وعلا صوت الإرهاب والقمع، وصار الحق مع الأكثر صخباً وتصفيقاً، وليس مع الأكثر وعياً أو الأعمق فكراً أو الأوسع تأملاً ورُشداً...

وإذا تسطّح وعي الأمة، أو غُلّف أو زُيّف، انتفخت دوائر الهوس واندفعتْ المشاعر الفائرة، وتضخّمتْ العواطف المنفعلة والأحاسيس الفارغة، وكل ذلك على حساب العُمق والعقل والفكر، أو على حساب النضج والخصوبة والرشد.

فمن الاختلاف، يبدأ النقد، ومن النقد يبدأ التصحيح، ومن التصحيح يأتي الإصلاح، وتبقى (نيران) المسافات بين كل هذه المحطات تدخّن ولكنها لا تشتعل، أو يُفترض هكذا، (**لأن نار الأهل تُدخّن ولكنها لا تشتعل**) ـ كما يقولون ـ ولأن الاختلاف داخل البيت يعني التصحيح وليس الاقتتال أو الاحتراب. كما أن النقد داخل الصف المؤمن يعني الحرص على ترسيخ الأفضل وتكريس الأحسن، وليس التسقيط والتشهير وتسقّط الزلاّت وتعقّب الهنات. ورصد الشطحات، والهفوات والكبوات...

وأخيراً وليس آخراً، فإن التصحيح والإصلاح بين المؤمنين يعني احترام الفاضل والصالح، ولكن مع الترويج للأفضل والدعوة للأصلح، وخاصةً بعد توقّف الفاضل أو تعَبه أو نصَبْ الصالح أو سأمه أو السأم منه!!

وعلى هذا الأساس، أو هذه الأسس، جاء هذا الكتاب ليستوعب الاختلاف ويوجهّه، ويحتوي النقد ويسير معه، ويقرّ الدعاوى والدعوات في الشعارات والشعائر الحسينية وغيرها، ما دامت داخل الصف المؤمن أو البيت المؤمن أو الأسرة المؤمنة، أي ما دامت بين مؤمنين على دين واحد ومذهب واحد، وانتماء عقائدي واحد، بعيداً عن الحكم على النوايا وتفسيرات أصحابها، أصابوا أم أخطأوا، أفلحوا أم أخفقوا. (**فكل الناس خطاؤون، وخير الخطائين التوّابون**) كما يقول النبي الأكرم (ﷺ).

وعلى هذا الأساس أيضاً، جاءت بعض صيحات هذا الكتاب، فاعلةً أحياناً ومنفعلة أحياناً أخرى، فالانفعال يأتي مع الفعل، نعم الفعل الساخن الصادق عادةً، والخطأ يأتي مع العمل، ومن لا يعمل لا يُخطئ ـ كما يقولون ـ ومن لا يفعل لا ينفعل بطبيعة الحال، وردّ الفعل لا يأتي إلا بعد الفعل، وهذا طبيعي وطبيعي جداً باعتبار أنّ الإنسان دمٌ ولحم ومشاعر وأعصاب وأحاسيس.

وكما أن ليس كلّ نائحةٍ ثكلى، وليس كل بكّاءٍ حزيناً، فإنه ليس كلّ مجتهد مصيباً، وليس كلّ فاعلٍ صائباً. ولكننا نعذر بعضنا بعضاً، في ما نحن فيه مختلفون، ونلتمس العذر لإخواننا في كل ما فعلوه أو فعّلوه أو انفعلوا به، كما نلتمسهم العذر لنا في كل ما فعلناه أو فعّلناه أو تفاعلنا معه أو انفعلنا فيه، وليكون شعارنا قول الشاعر:

وأحــلمُ عــن خلّي وأعــلمُ أنه ... متى أجزه حلماً على الجهل يندم

أو قول القائل: «**نعمل موحّدين جهودنا في ما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً في ما اختلفنا فيه**»، وندعو لبعضنا بالهداية والتوفيق في ما افترقنا أو انشطرنا في تحديد صحته أو صلاحيته أو فساده أو سقمه...

وليبق نشيدنا قول الشاعر:

إذا ما أتت من صاحبٍ لك زلةٌ ... فكُن أنتَ محتالاً لزلّته عذرا

وليبق رائدنا قول الحق ـ عزّ وجلّ ـ:

﴿ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين﴾[1]

﴿ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلّا للذين آمنوا، ربّنا إنك رؤوف رحيم﴾[2].

مختار الأسدي

٢٠١٠ م - ١٤٣١هـ

---

[1]- الأعراف: ٨٩.

[2]- الحشر: ١٠.

الفصل الأول

ثقافة الاختلاف ... ضرورتها واقعيتها

واقعية الاختلاف... الاختلاف واقع لابدّ منه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولو شاء ربّك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلاّ من رحم ربّك ولذلك خلقهم﴾[1].

﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾[2].

من خلال هذين النصّين القرآنيين الكريمين أو استنطاقهما نكتشف أن الاختلاف مسألة طبيعية بين بني البشر، وأنه قانون طبيعي في دنيا الناس، أراد الله تعالى من خلاله دفع الناس بعضهم ببعض سعياً حثيثاً نحو التكامل والنضج، وكدحاً مشكوراً نحو السموّ والرفعة، ومدخلاً ضرورياً للتسامي والتطور والنموّ...

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[3].

ونعني بالاختلاف هنا، الاختلاف الإيجابي طبعاً في الدائرة الواحدة الذي وصفه الحديث المروي عن الرسول الأكرم (ﷺ) بالرحمة «اختلاف أمتي رحمة»، واعتبره الإمام علي (عليه السلام) مطلباً ضرورياً لبلورة المواقف وميلاد الصواب، حيث قال (عليه السلام):

«اضربوا بعض الرأي ببعض يتولد منه الصواب».

1- هود: ١١٨-١١٩.
2- المائدة: ٤٨.
3- البقرة: ٢٥١.

أو «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ».

وهو الاختلاف نفسه الذي أشادت به حكمة الشاعر:

والضدُّ يكشف زيفه الضدّ وبضدّها تتميّز الأشياء

ولولاه لما عُرف الحق من الباطل، والأصحّ من الصحيح والأفضل من الفاضل والناقص من الكامل، والأصلح من الصالح، وهكذا...

فلولا القبح ما عُرف الجمال ولولا النقص ما عُرف الكمال

وبكلمة أخرى، وخلاصة كلّ هذه الأقوال والنصوص والآيات الكريمة، أن الاختلاف حالة صحيّة وضرورة مهمة في مسيرة الدرب الطويل لا بصفته أمراً لازماً وقدراً محتوماً، ولكنه واقع بشري لابدّ منه أو أمرٌ حاصل لابدّ من إقراره أو الاعتراف به باعتبار الإنسان أو الفرد الإنساني (نوعٌ لا يتكرر)، ـ كما يقول الفلاسفة ـ وباعتبار اختلاف الطبائع والأمزجة والأذواق بين بني البشر... شأنٌ من شؤون الخالق ـ جلّ وعلا ـ في خلقه، ولله في خلقه شؤون...

ولكي لا يتحول الاختلاف إلى خلاف ولكي لا ينتقل من حالته الصحية إلى حالات تَناحر واحتراب بين الناس، يُصار أول ما يُصار إلى توحيد مصادر الثقافة أو مرجعيتها إذا كان ممكناً طبعاً، وإذا عزّ ذلك ـ وهو عزيز بالتأكيد ـ يُصار إلى ترويج (ثقافة الاختلاف) والتأكيد على أن **(وحدة المختلفين في كثير من الأحيان أفضل وأجدى وأجمل وأغنى من وحدة المتماثلين)**[1]. ومن ثم ترويض الناس على الارتفاع إلى مستوى فهم الاتفاق مع الاختلاف وتثقيفهم على أنّ الرؤى لا تنضج إلاّ في أجواء الاختلاف والتدافع والمنازلات الشريفة، وأن المسيرة ـ أية مسيرة لا ترشد إلاّ

---

[1] - موقع الإسلام في صراع الحضارات ـ محمد السماك طبعة ١٩٩٥ ص ١٨١.

بالحوار والمناظرات وضرب الرأي بالرأي، شريطة أن تبقى في إطارها الأخلاقي النظيف بعيدة عن الهتك والمراء والمهاترات والتسقيط والتشهير ورصد العثرات...

وتشتد الحاجة إلى ثقافة الاختلاف في زمن التراشق الفكري والتدافع السياسي، وأثناء الأزمات وحيث يكثر الحديث عن الحلم وسعة الصدر والسماحة والاستيعاب.

وحين يؤكد القرآن الكريم في العشرات من آياته، على مسألة الاختلاف ويعتبرها طبيعية بين بني البشر وضرورة من ضرورات التكامل، فإنما ليؤكّد حقيقة ثابتة في قانون الحياة، إذ لولاها لتحجّرت أفكار الناس وتكلّست عقولهم وتوقّف تنافسهم نحو العمل الصالح، ومات ولعهم في تسيير عجلة الحياة، وأكثر من ذلك لفقدت الحياة معناها وأصبحت مملّة وقاتلة ورتيبة، أو لاتّسمت بالرتابة والكآبة أو بالتخشب والسأم والموت البطيء، وهذا حديث طويل وموضوع فلسفي شائك لا نريد الخوض فيه الآن.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربّك لقُضي بينهم في ما فيه يختلفون﴾ (يونس: ١٩).

﴿ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلّهم جميعاً، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (يونس: ٩٩).

﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ (النحل: ٩).

﴿ليبيّن لهم الذي يختلفون فيه﴾ (النحل: ٣٩).

﴿ولو شئنا لآتينا كل نفسٍ هداها﴾ (السجدة: ١٣).

﴿أنت تحكم بين عبادك في ما كانون فيه يختلفون﴾ (الزمر: ٤٦).

﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (البقرة: ٢٧٢).

وأمثال ذلك من الآيات الكريمة التي تؤكد حقيقة الاختلاف وتُقرّه قانوناً حكيماً أراد الله تعالى من خلاله ما أراد، ولولاه لصار غير الذي هو صائر ولكان غير الذي هو كائن!!.

ولعل أجمل ما قيل في مسألة استيعاب الاختلاف، والاعتراف بحق الآخر في التفكير والتعبير هو نص الآيتين القرآنيتين الكريمتين:

﴿**قل لا تُسئلون عما أجرمنا ولا نُسئل عما تعملون**﴾ (سبأ: ٢٥)

﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين**﴾ (سبأ: ٢٤)

والتي مثّلها قولٌ جميل آخر هو: «رأيي صحيح يحتمل الخطأ، أو رأيك خطأ يحتمل الصواب» أو بالعكس.

وأفضل منهما: رأيي ورأيك كلاهما يحتملان الخطأ والصواب، فربّما تجد أنت شيئاً أنا أفتقده وقد أجد شيئاً أنت تفتقده فكلانا يا حبيبي فاقدان واجدان، وكلانا ناقصان محتاجان... وكان الله يحب المحسنين.

تأسيساً على كل ذلك، تأتي الحاجة لترويض الناس على قبول الاختلاف وقبول ضرورته، وتثقيفهم بأن الحجة تردّ بالحجة، والرأي يُفنّد بالرأي، وبلا قطع أو جزمٍ أو مطلقات، وكذلك بلا استشعار عصمةٍ أو مصادرة للآخر أو إلغاء له أو شطبٍ أو استبداد أو إرهاب أو فوقية أو أستاذية أو استعلاء...

وكلما اقترب الناس من فهم الاختلاف، أو الاعتراف بواقعيته أو حقيقته أو ضرورته، كانوا أبعد من مداخلات الأمزجة، وتدافع الأهواء، ونفثات الشياطين. وكلما كانوا أقرب إلى الدليل والبرهان ولغة الحوار ومنطق الاستدلال، كانوا أبعد عن العواطف الفائرة والمهاترات والفكر السجالي والمعارك الوهمية والمراء.

وبالتالي، كلما كانوا أقدر على استخدام الحجة والبيان واللسان، كانوا أبعد عن لغة الهراوات والركل والرفس، ومنطق المخلب والناب وشريعة الغاب[1]... أو «منطق الرفس واللبط والضرب وشدّ الشّعر!» كما يقول الأستاذ محمد الماغوط[2].

وإذا قال قائل: إن طبيعة الاختلاف تقود إلى هذه المعارك، بل إن هذه المعارك يأتي نتيجة طبيعة للاختلاف، فإننا نقول أن هذه «المعارك» نفسها، إنما هي محطات عمل وميادين تربية يتصاعد من خلالها الناس إلى التأمل في أدب الحوار أولاً، والاقتراب من الموضوعية وعدم احتكار (الحقيقة) ثانياً، فإذا كانت هناك حرمة للأفراد مثلاً، فليست هناك حرمة للأفكار، وإذا كانت هناك قداسة للنص، فلا قداسة لفهم النص أو تفسيره، وإذا كان هناك من يقدس هذا المفكر أو ذاك، فليست هناك قيمومة على الأمة ولا وصاية على الآراء...

الثابت في هذا السياق، إذن هو: أنه لا مقدّسات في الحوار... وهذا يعني أنك حين تختلف مع آخر حتى حول إثبات وجود الله المطلق سبحانه وتعالى مثلاً فإنه في لحظات الحوار، حتى الله «جلّ وعلا» وصفاته وقدرته يصبحان في إطار المتغيّر، أي المتغيّر في الوعي وليس في الواقع ـ نؤكّد في الوعي وليس في الواقع ـ وهذا ما عبّرت عنه الآيتان الكريمتان المارتا الذكر:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ...﴾ ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين﴾.

ولعل من أجمل آيات القرآن الكريم في طرح الرأي والرأي الآخر هو قوله سبحانه: **﴿وضربَ لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يُحيي العظام وهي رميم، قل**

---

[1] - وهو ما يفعله الحكام المستبدون، وأزلام الحكومات المستبدّة بخصومهم.

[2] - سأخون وطني ـ محمد الماغوط ص ٦٢.

يُحييها الذي أنشأها أول مرّة وهو بكل خلقٍ عليم﴾ [1]. أو تلك الأخرى التي تقول: **﴿ويقول الإنسان أإذا ما متُّ لسوف أخرج حياً. أولا يذّكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يكن شيئاً﴾** [2].

وحين يؤكد القرآن الكريم في العشرات من آياته البيّنات على الحوار وأدب الحوار، فإنه بذلك أقرّ ضمناً مسألة الاختلاف... ولعل الحوار الأول في أول مشهد لبدء الخليقة بين الخالق سبحانه وتعالى، وملائكته حول آدم، وطريقة الحوار وأسلوب الحوار، إنما هو كلمة البدء في قبول الحوار والاستجابة له والتفاعل معه وتوجيهه والردّ عليه...، كما لّمحنا في مقدّمة الكتاب.

﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعلّم آدم الأسماء كلّها ثم عرَضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلمُ غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس.... وقلنا يا آدم...﴾ [3].

﴿قال ما منعك ألاّ تسجد إذْ أمرتك قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنّك من الصاغرين. قال أنظرني إلى يوم يُبعثون قال إنّك من المنظرين﴾ [4]، وهذا مع الشيطان ومع

---

[1] – يس: ٧٨.

[2] – مريم: ٦٥-٦٧.

[3] – البقرة: ٣٠-٣٥.

[4] – الأعراف: ١٢-١٥.

الإنسان ومع الملائكة، نعم، حتى مع الشيطان الذي توهّم أن النار أفضل من الطين، وما درى أنه لولا الطين لما صار الحطب ولما صارت النار.

وهكذا في عشرات الآيات الأخرى التي يحاور فيها أنبياء الله (ع) ربّهم، بلا خوف أو تهيّب أو عُقد... موضوعيّة أو ذاتية.

﴿قال رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أوَ لم تؤمن قال بَلى ولكن ليطمئن قلبي﴾[١].

﴿قال رب اجعل لي آية...﴾[٢].

﴿فقال رب إنّ ابني من أهلي وإن وعدك الحقّ...، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنّه عملٌ غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علمٌ إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين. قال ربّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علمٌ وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين. قيل يا نوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممّن معك﴾[٣].

﴿قال رب أرني أنظر إليك، قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل. فإن استقرّ مكانه فسوف تراني﴾[٤].

وآيات حوار عديدة أخرى بين نبي وقومه، وبين الابن وأبيه، والإنسان وصاحبه، والأخ وأخيه وكلها لتأكيد حق الرأي وحقيقة الاختلاف وأدب الحوار، بل أدب الاختلاف. أقرأ ما يلي:

---

[1]- البقرة : ٢٦٠.

[2]- آل عمران: ٤١.

[3]- هود: ٤٥-٤٦.

[4]- الأعراف: ١٤٣.

﴿يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يُبصر... يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك... يا أبت لا تعبد الشيطان.. إنّ الشيطان كان للرحمن عصيّا. يا أبت إني أخاف أنْ يمسّك عذاب من الرحمن... قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم.. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً ﴾[١].

﴿ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً. وما أظن الساعة قائمةً ولئن رُددت إلى ربّي لأجدنّ خيراً منها منقلباً. قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم من نطفةٍ ثم سواك رجلاً. لكنّا هو الله ربّي ولا أُشرك بربي أحداً﴾[٢] راجع تتمة هذا الحوار الجميل في هذه السورة المباركة.

﴿وكان له ثمرٌ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً﴾ [٣].

وفي نصٍ حواري آخر يقول عزّ من قائل:

﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون. قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهةٍ وإنا لنظنك من الكاذبين﴾.﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين. أبلّغكم رسالات ربي وأنا لكم من الناصحين﴾[٤].

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم مِنْ إله غيره... قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استُضعفوا... إنّ صالحاً مرسلٌ من ربّه... قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون... قال الذين استكبروا إنا بالذين آمنتم به كافرون... ولوطاً

---

[1]- مريم: ٤٢-٤٧.

[2]- الكهف: ٣٤-٣٨.

[3]- الكهف : ٣٤.

[4]- الأعراف: ٦٤-٦٨.

إذْ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم إليها من أحد من العالمين... بل أنتم قوم مسرفون... وما كان جواب قومه إلاّ أنْ قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون...﴾[1].

وهكذا حوار شعيب مع قومه، وحوار موسى مع فرعون، وحوار عاد وثمود، وحوار قوم تبّع، وقوم صالح، وطالوت وجالوت، وإدريس، وذا النون، وغيره كثير مما زخرت به آيات الله البيّنات، التي تؤكد جميعها على حقيقتَيْ الاختلاف والحوار. نعم الحوار بنوعيه السلبي والإيجابي، فتؤكّد الصحيح وتُسقط الخطأ فتحقّ الحقّ وتُزهق الباطل، مُقرِرةً النصوص كما هي، صواباً كانت أم خطأ... منطقية أم غير منطقيّة، حقّاً أو باطلاً ومن كلا الطرفين المتحاورين وبلا إجحاف أو التواء أو مصادرة أو شطبٍ أو إلغاء...

استيعاب الاختلاف أو توجيهه

أما كيف يأتي الرهان على احتواء فورة الاختلاف واستيعاب أزماته؟ لاسيما إذا كان في الأمة رجال متشنجون وفصائل متطرفة منفعلة؟ إن هذا الاستيعاب هو واجب الروّاد من طلائع الأمة الرساليين ومتصدّيها ومثقفيها وخطبائها وعلمائها، وإذا عجز هؤلاء عن احتواء الاختلاف وعجزوا عن استيعاب العواطف الساخنة، فإنما هي بداية الخراب أو بداية الاستبدال بأمة أكثر نضجاً ورجال أرشد عقلاً وأعمق وعياً وإلا فحريق ودمار، وربّ شرارةٍ أحرقت سهلاً ـ كما يقولون ـ

---

[1]- الأعراف: ٧٤-٨٢.

ولا نقصد بالاختلاف هنا، نقيض الوحدة والتآلف والتعاون الذي أوصى به الله سبحانه وتعالى، وأكّد على ضرورة انتهاجه ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ ولكننا نقصد به طبعاً الاختلاف الذي لابد منه، والذي يأتي بسبب تباين الأمزجة والأذواق، وتغاير الطبائع والسجايا بين بني البشر، وكذلك اختلاف السلائق وتقاطعها في النفس الإنسانية العجيبة الغريبة...

وتأتي أكبر كوارث هذا الاختلاف حين تُوظف النصوص الدينية في معارك جانبية يتحشد حولها المتطرفون في استقطابات واستقطابات مضادة لتحشيد الغوغاء وانتزاع موقف أو تسجيل قرار لمصالح شخصية أو حزبية أو طائفية أو قومية لا علاقة لها بمصير الأمة ولا وشيجة لها بدين أو مذهب. وأقسى من ذلك حين تأتي متناقضة مع هدف أبناء الأمّة المشترك في مواجهة حاكم ظالم مثلاً أو الاصطفاف صفاً واحداً لمقارعة باغٍ أو طاغوت.

قال لي صاحبي يوماً وأنا أحاوره حول هذا الموضوع: ولماذا يتحرش البعض بصاعق قابل للانفجار، ولماذا يفجّر المتطفلون الدمامل هنا وهناك؟: ولماذا يُنكأ الجرح ولا يُصار إلى تضميده أو تطبيبه؟!.

فقلت: ولماذا لا يُصار إلى تأمين الصاعق أو سحب الفتيل تحاشياً من عبث الصبيان وتربُّص المتحرشين وتصيُّد المتصيدين في الماء العكر وهم كثيرون وموجودون في كل زمان ومكان ولا يمكن استئصالهم أو اجتثاث شأفتهم على كل حال؟ ولماذا يكثر العويل والصراخ على جرح بسيط مسّه عابث هنا، أو بطّال هناك؟ ولماذا يكثر التوعّد والوعيد والرعْد والرعيد على مسألة تافهة فجرها (صعلوك) هنا أو أثارها مشاغب هناك؟!!

العقلاء من الناس لا ينظرون إلى الأمور كما يضخمها البسطاء أو يرونها، وكذلك لا يتفاعل الراشدون مع الأشياء كما يصوّرها الصبيان أو يتصورونها.

مسألة خلافية هنا، أو موضوع أثار جدلاً هناك، أو قضية فجّرت لغطاً في هذا الوسط أو ذاك ، كلها لا تستوجب التكفير والتفسيق والرمي في دوائر المخابرات الدولية والإقليمية!! والقذف بالعمالة والمشبوهية والمروق عن الدين، ومن ثم الانجرار إلى الاحتراب ورفع الأسنّة والرماح، واستخدام لغة التشهير والطعن والتسقيط وكل ما من شأنه تفريغ الضغائن وإسقاط الأحقاد، ومناغاة العواطف المتطرفة والعقول الفارغة...

صحيح، أن بعض الأمور تستوجب التوقف والحدّية واللغة الصارمة، ولكن لا أن يُصار إلى اتّهام كل من لا اتّفق معه أنه (عميل ومشبوه وفاسق ومارق وزنديق وفاجر وكافر وخادم للمخابرات وذيل لفلان ومطيّة لعلاّن) وكأن البشر كلهم مطايا وذيول وعملاء، وصاحبنا وحده (الإسلامي المحمدي الأصيل) الذي يحتكر الحقيقة هو وحده ولا أحد سواه، والذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وهو وحده المعصوم أو وريث المعصوم أو وصي المعصوم وخليفته وترجمانه وحامل سرّه ومبلّغ رسالاته...

وصحيح أن بعض الآراء المطروحة تحتاج إلى تصدٍّ حازم وموقف صلب، ولكن لا أن يتوهم أحد رفاق الدرب، أنه وحده التقيّ النقيّ الصافي الزكيّ، وجميع الناس أميّون ومتخلّفون وأغبياء ولا يعملون أو يتصرفون إلا بتلقّي الضوء الأخضر من هذا، أو الأصفر أو الأحمر من ذاك!! وصحيح كذلك أن توجيه اللوم أو العتاب أو التقريع مسألة صعبة التلقّي، وأنّ مسألة استيعابها أكثر صعوبة، ولكن الصحيح أيضاً أن ليس كل من يُقال له إنك مخطئ يعني أنك (جاهل) أو (غبي) أو (أغبر) أو (مغفل) وما إلى ذلك... نعم إنك مخطئ... يعني مُخطئ، أي مُخطئ، نعم مخطئ، لأنك غير معصوم وأنا

غير معصوم وهو غير معصوم وهم ونحن وأنتم وهما، جميعاً غير معصومين والعصمة لله وأنبيائه ورسله وأئمته فقط وفقط وكان الله يحب المحسنين...

نعم ليس صحيحاً، أن يفهم من تقول له إنك مخطئ، أنه (غبيّ) فالمسالة شاسعة بين الجهل والغباء، وليس صحيحاً أن يَفهم من تقول له إنك مخطئ، يعني أنه (كافر وزنديق وفاسق ومارق) ويستحق عذاب جهنم أو سقر أو السعير فكل الناس خطاؤون... نعم كل الناس خطاؤون ـ كما يقول الحديث الشريف ـ وخير الخطائين التوابون... وكفى الله المؤمنين قتال الألسن ومعارك الاتهامات ومنطق التكفير والتفسيق ولهيب الحارقة وحر لظى وعذاب الدرك الأسفل من النار!!

الأفضل من لغة الاتهامات، والأكرم من (حوار) المهاترات، أن يُصار إلى تلقّي الفكرة المقابلة بروح عالية من المسؤولية، واستحضار الآية القرآنية العظيمة المارة الذكر (وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين)، ولا بأس باستحضار مقولة (فولتير) الجميلة كذلك:

«أرجوك دعني أقول رأيي وأنا على استعداد أن أدفع رقبتي ثمناً لأنْ تقول رأيك » وكل هذا بعيداً عن الفوقية والأستاذية والاستعلاء ـ كما قلنا ـ وبعيداً عن الشعور بالأعلمية والسلطوية وانتفاخ الذات وتورّم الأنا وتضخّم النرجسية والأنانيّة، والعياذ بالله...

وعلى هذا الأساس ينبغي على رجال المسيرة وقادتها أن يحذروا من الانزلاق إلى الوادي غير المقدس للمراء والمهاترات، ويحذّروا رفاق دربهم من الانجرار إلى اللغة المتطرفة العنيفة غير المسؤولة، وبالتالي السقوط في مستنقع الغمز واللمز، ووحل القطيعة والانشطار.

أما حين يُفهم الاختلاف رحمة (اختلاف أمتي رحمة) ويُفهم حوار الأُخوة تنافس في العمل الصالح والوصول إلى الأفضل والأنضج والأكمل، وكذلك حين يُفهم

الاختلاف أنه تدافع وتزاحم وخصوبة ونُضج وتواصل وتكامل في رحلة الكدح نحو الله... ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه﴾ فإن كل النتائج الأخرى تأتي تتويجاً لهذا الفهم واستكمالاً لهذا الكدح، فلا تناحر ولا تقاطع، ولا مشادّات ولا جدل ولا سجال ولا تعصّب بغيض ضدّ هذا أو تحيّز مريض لصالح ذاك...

نعم، قد تأتي الاختلافات ابتلاءً وتمحيصاً، وتأتي من تباين منابع الثقافة وخلفيات المثقفين وعاداتهم الفكرية كما يقول البعض ـ وتأتي من تباين بيئة الناس ومحيطهم الاجتماعي وظروفهم الزمانية والمكانية وتفاعلهم وانفعالهم مع هذه المسألة أو تلك، ولكنّ هذه الاختلافات ما دامت في دائرة الرؤى ووجهات النظر وليس في دوائر المبادئ والقيم وأركان الدين عند المتدينين، فإنه من السهل تصويرها على أنها منطلقات استيعاب لكلّ الأذواق والأمزجة والسلائق، وهي أشبه بمحطات الانتقال التي يتوقف عندها الجماعة، فبعضٌ يرى أن الطريق الجوي هو أفضل وسيلة للوصول إلى الهدف لأنه أسرع، فيما يرى الآخر أن الطريق البري هو الأفضل لأنه أجمل، ويرى الثالث أن الأنسب هو طريق البحر لأنه أرخص، وهكذا كلٌّ حسب تشخيصه واهتمامه وهوايته ورغبته...

ولعل أكثر ما ينبغي الحرص عليه أثناء تدافع الآراء وتراشق الأفكار والرؤى هو فهْم ثقافة الاختلاف أو أدب الاختلاف، وأوّل معالم هذه الثقافة أو هذا الأدب هو عدم الانجرار لاستخدام عبارة حادّة هنا أو كلمة نابية أو لفظة جارحة هناك لأنّ الحكمة تقول:

جراحات السنـــان لهـا التئـــام ... ولا يلتام مـــا جرح اللسان

أو الأخرى:

قد ينبتُ المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هي

وما قد يجرّه هذا التقاطع عند النفوس اللئيمة التي تتصيد الكلمة لتبني عليها (جمجمة) وتترصد العثرة ـ عثرة اللسان ـ لتحولها إلى ميادين دامية لحروب وأنهار دم لا أول لها ولا آخر، وحيث يروح معها الشاعر المسكين مذعوراً يقول أو يردّد قول من قال:

يُصاب الفتى من عثرةٍ بلسانه ... وليس يُصاب المرء من عثرة الرِّجْلِ
فعثرته في القول تُذهبُ رأسه ... وعثرته في الرِّجْلِ تبرأ على مهلِ

المشكلة القائمة فعلاً، أن بعضنا أتقن فن الاختلاف ولكنه افتقد آدابه وأخلاقياته، وأتقن إثارة الإشكالات ولكنه افتقد استيعابها أو طريقة حلّها، فأصبحنا فريسة التناحر والتنازع والتآكل الداخلي وما يلحق ذلك من تمزّق وتشرذم وضياع، وهذا ما حذّر منه سبحانه ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ (الأنفال: ٤٦). وهو ما نهى عنه سبحانه أيضاً في قوله عزّ من قائل: ﴿ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل حزب لما لديهم فرحون﴾(الروم: ٣١-٣٢).

أو قوله الآخر جلّ وعلا:

﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم في شيء﴾ (الأنعام: ١٥٩).

أدب الحوار

وخلاصة القول: وما دام الاختلاف مسألة طبيعية في دين الناس ودنياهم، وأنه شيء لابد منه بات لزاماً إتقان أدب الاختلاف، وثقافة الاختلاف كما قلنا، ومدخله الأول طبعاً، أدب الحوار...

ولعل من أبجديات هذا الأدب وأولوياته ما يلي:

أولاً: عدم (الاحمرار أو الاصفرار) أثناء الحوار، أي عدم الانفعال والصراخ وتحاشي إثارة الصخب والضجيج. (فإذا ازدحم الجواب خفي الصواب) كما يقول الإمام (عليه السلام).

ثانياً: إتقان فن التلقي والإصغاء، بقدر الحرص على إتقان فن الإلقاء والحديث. فكثير من الناس، مع الأسف، من هو متحدّث جيد ولكنّه مستمع غير جيد.

ثالثاً: استيعاب المقابل بالقول اللين والاحتفاظ بحق الردّ لحين انتهاء حق الحديث أو وقت الحديث، وهذا يعني تقسيم وقت الحديث بالتناصف والمساواة، لأنّ الحقّ لا يظهر إلاّ إذا تعادلت القوّتان ـ كما يقولون ـ وهذا يعني أيضاً أنه لا يصحّ أن تتحدّث أكثر من الوقت المحددّ لك. إضافة إلى سعة الصدر والتحلّم إذا عزّ الحلم، واستحضار مقولة (نصف العقل التغافل) والتذكير أو استذكار حكمة الشاعر:

ليس الغبي بسيّدٍ في قومه ... لكنّ سيّد قومه المتغابي

رابعاً: تحاشي الجدل الصاخب وعدم الانجرار إلى لُعبة الغَلبة أو التغالب، أي عدم جرّ الحديث إلى مشادّات ومماحكات أو تحويله إلى مهاترات ومزايدات على حساب الموضوعية والتحليل العلمي الهادئ الرصين.

خامساً: إتقان فنّ عدّ النقاط أثناء الحوار وتحاشي الضربة القاضية التي قد تحيل الخصم إلى رماد ونار أحياناً، أي عدم التسرّع في الإجهاز على الآخر وقتله قبل أن يلتقط أنفاسه. فليس المهم أن تُرفع راية الاستسلام من قبل المهزوم أو تضطره إلى رفعها، وإنما المهمّ أن تتغيّر قناعاته. وهنا تأتي جميلة إشارة (غاندي) التي تقول:

«لا تحاول أن تُقنع أحداً بتغيير عاداته وأفكاره. أقصى ما تستطيع فعله هو أن تُقنعه بأن يبدأ في مراجعة تلك العادات والأفكار. وإذا فعل ذلك فإنه هو الذي سيتغير وليس أنت»[1].

سادساً: والأهم من كل ذلك هو ترك بعض نقاط الاختلاف إلى الله سبحانه وتعالى، إذا عزّ اللقاء، وفي ذلك إشارات عظيمة في القرآن الكريم، أجّل سبحانه وتعالى الحسم فيها إلى يوم المعاد فقال، وهو ربّ القائلين وأعظمهم:

﴿ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ (آل عمران: ٥٥)

﴿إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ (المائدة: ٤٨)

﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ (الأنعام: ١٦٤)

﴿وليبيّن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ (الأنعام: ١٦٤)

﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾(الحج: ٦٩)

﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (البقرة: ١١٣)

﴿ثم تُردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ (الجمعة: ٨)

﴿إنّ ربّك يقضي بينهم يوم القيامة في ما كانوا فيه يختلفون﴾ (يونس: ٩٣)

وعشرات الآيات الأخرى التي دلّت دلالات واضحة، إن يوم الحسم أو الجزم في كل شيء وفي كل قضية ليس مكانه الأرض، وإنما في يوم لابدّ منه، ليلاقي كلّ امرئ ربّه، وتتجلى مصداقية الآية القرآنية الكريمة:

﴿وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا. إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ (الإسراء: ١٢-١٣).

وهو عين ما أشارت أو لّمحت إليه آيات عظيمة أخرى تقول:

---

[1]- زيارة جديدة للتأريخ ـ محمد حسنين هيكل ص ٢٩١.

﴿فذكّر إنما أنت مذكِّر. لست عليهم بمسيطر. إلاّ من تولّى وكفر. سيعذّبه الله العذاب الأكبر﴾ (الغاشية: ٢٢).

﴿وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ﴾ (آل عمران: ٢٠)

﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ (فاطر: ٨).

نعم، ومرّة أخرى:

﴿لو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (يونس: ٩٩).

سابعاً: وقبل الختام وباختصار شديد وعودٌ على بدء: الاختلاف غير الخلاف، والاختلاف هو غير التنازع وذهاب الريح... الحسم فيه ليس قاطعاً، ووجوده ضرورة للتكامل، وإقراره مهم جداً للخصوبة والنضج، ولا ينبغي عند الاختلاف في أي حال من الأحوال أن يتحول الظنّي إلى قطعي، والمتشابَه إلى مُحكم، والمحدود إلى مطلق، والمتغيّر إلى مؤوّل، والصريح إلى منسوخ والقطعي إلى ظني وهكذا حتى لا يصبح «كذاب ربيعة أفضل من صادق مضرّ». أو لكي لا نصبح كصاحب غزية القائل:

وما أنا إلاّ من غُزيّة إنْ غَوت ... غويتُ وإنْ ترشُد غزّيةُ أرشُدِ

ثامناً: وإذا كان لابدّ من الاختلاف، واستحال الوفاق، واقترب الشقاق، وعزّ الالتقاء، فمن الأفضل أن تُؤجل بعض الأمور إلى يوم آخر أو أيام أُخر، ولنعمل لتعميق أو تفعيل ما اتفقنا عليه، و(يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه) ـ كما قال أحد المصلحين ـ وإذا طالت الأيام وانبرت مقولة (قلّة الوفاق شقاق) قبال (كثرة الوفاق نفاق) فليؤجّل الحوار والحديث إلى يوم موعود، سينبئنا الله تعالى فيه في ما نحن فيه مختلفون، وسيوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب وتكون العاقبة ﴿لمن كان له قلب أو ألقى السمع هو شهيد﴾ (ق: ٣٧).

أو لمن ﴿خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلبٍ منيب﴾ (ق: ٣٣).

وهذا لا يعني إطلاقاً إرجاء الأمور جميعها وتأجيلها إلى يوم القيامة كما قالت فرقة (المرجئة) في التأريخ الإسلامي، وإنما إلى التأني في طرح الحلول وترك حالات التطرف وعدم الانزلاق إلى الانشقاقات.

وبغير ذلك فسوف نتمزق ونتشظى ونتشقق، وتستمر اجتهاداتنا تتناسل وتلد مسوخاً مشوّهة من محاورين متحاربين متناحرين، وحينها سينطبق علينا قول الشاعر:

أشقّاءٌ ولكنْ في شقاقٍ   لقاءاتٌ ولكن لا تلاقي

أو قول الآخر:

* عندنا عشرة أحزاب ونصف الحزب في كلّ زقاقٍ

كلّها تسعى إلى نبذ الشقاقٍ

كلّها تنشقّ في الساعة شقين

وينشقّ عن الشقّين شقّان

وينشقّان عن شقّيهما

من أجل تحقيق الوفاقٍ

* لم يَعُد عندي رفيق

رغم أنّ البلدة اكتظّت بآلاف الرفاقٍ

* ولذا شكّلت من نفسي حزباً

ثمّ إنّي مثل كلّ الناس

أعلنتُ على الحزب انشقاقي [1]

---

[1] - الشاعر العراقي المعروف (أحمد مطر).

الفصل الثاني

النقد والنقد الذاتي

على هامش النقد... مدخل وتوطئة

دخلت كلمة «النقد» القاموس السياسي في فترة متأخرة، شأنها شأن الكثير من المفردات والمصطلحات التي يفرزها التطور أو تلدها عملية التغيير في حركة الواقع...

وما دامت هذه الكلمة حديثة المولد ـ والناس أعداء ما جهلوا ـ كما يقولون، فإنها من الطبيعي أن تكون موضع استفزاز وإثارة لمن لم يهضموا آثارها في ترشيد الواقع أو فوائدها وضرورتها لتنضيجه أو إثرائه، فيضعونها حال سماعها في دائرة «التسقيط والتشهير» أو دائرة «الطعن والتعريض...».

ومن هنا فلابد من استيعاب حملة الهجوم هذه، قبل الخوض في التفاصيل والجزئيات...

ولعل أول محطة لاحتواء هذا الهجوم هو تعريف الكلمة والاتفاق على معناها وتحديد المغزى من إثارتها، والابتعاد قدر الإمكان عما يثير الانفعال والغضب وحساسيات المتأثرين بالظرفين الزماني والمكاني...

يمكن القول إن أقرب مفردة لكلمة «النقد» في القاموسين اللغوي والفكري هي كلمة التقويم أو التقييم كما يصطلح عليه آخرون... وأقرب مفردة لعبارة النقد الذاتي هي كلمة «المراجعة» أي مراجعة الذات ومحاسبتها بعيداً عن الرقابة المنظورة للأمة، أو الرقابة غير المنظورة لله سبحانه وتعالى...

ومن هذين المخرجين تأتي مفردات النصح والنصيحة وتأتي كلمات التواصي بالحق والتواصي بالصبر مدعومة بآيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ووصايا المصلحين والصالحين...

وأول ما ينبري في «عملية النقد الذاتي» إذا اتفقنا أنها مراجعة الذات أو محاسبتها هي الآية الكريمة التي مرّ ذكرها **﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوّامة﴾** وأول ما ينبري لعملية النقد، إذا اتفقنا أنه (النصح) أو (النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) هو موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالتحديد البُعد الوسط من أبعاده الثلاثة، (من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه) أي تأشير المنكر باللسان ومنه تأتي المقالة والخطبة والكلمة والدراسة والبحث وغير ذلك...

وإذا تأملنا في آية **﴿النفس اللوامة﴾** وعرفنا عظمة هذه النفس وكيف أن الباري تعالى أقسم بها بعد أن أقسم بأعظم يوم عرفته أو تعرفه البشرية كلها وهو (يوم القيامة)... **﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوّامة﴾** أدركنا خطورة المسألة أو دورها الخطير في بناء الذات وترشيد المسيرة وبناء الشعوب والأمم...

وإذا أدركنا أن المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس في كل عملية التغيير للواقع الخارجي لأن الله تعالى **﴿لا يغيّر ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم﴾** عرفنا السرّ في هذا القَسم وعرفنا الهدف من جعْل هذه النفس اللوامة الناقدة هي الأساس في تغيير الإنسان وقيادته وتطلّعاته نحو عالم الكمال أو التكامل والذي لم يُخلق الإنسان إلا لأجله فصار هدفه الأسمى الذي يسعى حثيثاً في دنياه للوصول إليه: **﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾**

فالنفس اللوامة ـ إذن ـ هي النفس التي تستمرئ المراجعة وتعترف بالخطأ وتقرّ حقيقة النقص البشري، وعكسها النفس الشيطانية الإبليسية المكابرة التي ترفض التراجع والاعتراف بالخطأ، فتعاند وتكابر وترفض الانصياع للحقّ أو الحقيقة...

النفس اللوامة، هي التي جعلت من أعظم الناس وهم الأنبياء (ع) يقولون أو يعترفون بكل شجاعة وجرأة ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾ ﴿قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾[1].

﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾[2].

وهي نفسها الذات المقدسة التي جعلت من آدم وحواء يتكلمان جملة واحدة وفي نفس الوقت إقراراً بالذنب واعترافاً بالخطيئة:

﴿قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإنْ لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف: ٢٣).

وهكذا تتوالى الاعترافات والمراجعات لدى الإنسان الإنسان الذي يقف أمام ذاته وربّه (لواماً) مُقرّاً مذعناً معترفاً نادماً...

﴿قالوا يا ويلنا إنا كنّا طاغين﴾ (القلم: ٣١).

﴿... إني إذن لمن الظالمين﴾[3].

﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنّا ظالمين﴾ (القلم: ٢٩).

﴿وما أبرّئُ نفسي إنّ النفس لأمّارةٌ بالسوء، إلاّ ما رحمَ ربّي إنّ ربّي غفور رحيم﴾ (يوسف: ٥٣).

أما إبليس أو الحالة الإبليسية فترفض التراجع وتُصرّ على الخطأ وتكابر وتُعاند، وتتوهم بأنها الأفضل ﴿أنا خيرٌ منه﴾ حتى يصل الأمر بها إلى حالة رهيبة من العناد والمكابرة رغم معرفتها الحقيقية بعظمة الله وقدرته وعدله ﴿فبعزّتك

---

[1]- القصص: ١٦ على لسان موسى عليه السلام.

[2]- الأنبياء: ٨٧ على لسان يونس عليه السلام.

[3]- هود: ٣١ على لسان هود عليه السلام.

لأغوينهم أجمعين﴾ أي أنه يعرف عزّة الله سبحانه وجلاله، ومع ذلك يرفض الانصياع والرضوخ والإقرار والتوقّف...

هذه الحالة الإبليسية هي التي تصل بالإنسان أن يُفضّل النار على العار في بعض الأحيان ويختار عذاب الله على الاعتراف بجرمه وجريرته، فيكون شعاره ﴿النار لا العار﴾[1] فيما تضع النفس اللوّامة صاحبها في أسمى درجات التكامل الآدمي، وتصل به إلى أعلى مراتب العشق الإلهي، وولع اللقاء بالله سبحانه في مقعد صدق عند مليك مقتدر...

«وهبني يا إلهي صبرتُ على عذابك فكيفَ أصبر على فراقك وهبني صبرتُ على حر نارك فكيف أصبر على النظر إلى كرامتك»[2].

وفي لحظة اختيار أكثر مرارة من هذه، وفي لحظة تفعيل ساخنة للنفس العالية التي لا تتعالى عن عار الدنيا مقابل كرامة الآخرة، يقول سيد الشهداء (عليه السلام):

«**الموت أولى من ركوب العار... والعار أولى من دخول النار**» فيتقحّم رحلة العار في الدنيا ـ إذا كان في ثورته ثمّة عار كما يزعم بعض الناقصين[1] ـ ويردُ على الله سيداً للشهداء وسيّداً لشباب أهل الجنّة في عليّين مع الصديقين والشهداء والصالحين...

---

[1]- وفي هذه حكاية تُنقل عن أحد الناس أنّه عوتب ساعة احتضاره وطُلب منه أن يقول الحقّ قبل فوات الأوان، ولكنّه طغى وتكبّر وآثر النار على ما اعتقده عاراً، أي عار التراجع والاعتراف بالخطأ، فقال تلك القولة التي راحت مثلاً واشتقّ منها الشاعر قوله برغم المفارقة الواهمة:

لا تعطني كـــأس الحيـاة بــذلّة	بل فاعطني بالعزّ كــــأس الحنظل
مـــــــاء الحيـــاة بـــذلّـــة	وجهنم بالــــــــــــــــعزّ أعظم

[2]- من دعاء للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) كما رواه عنه كميل بن زياد المعروف عند أهل البيت (عليهم السلام).

هذه النفس السامية العالية العظيمة تصل بالإنسان إلى أعلى مراتب الكمال وترتقي به إلى تجاوز كل محطات المكابرة الإبليسية والإنحطاط البشري، فهي بعد إعترافها بحقيقة النقص البشري، تجعل من الإنسان دائماً مستعداً لمراجعة ذاته، لا من جهة التنازل عن هذه الذات، وإنما من أجل تقويمها وترشيدها والإرتقاء بها في سلّم الكمال الإنساني، وهي من ناحية أخرى تجعله، مع أخيه الإنسان يعيش روح التواضع والأخوّة وإقرار النقص بعيداً عن الأستاذية والسلطوية والأعلمية والفوقية وحالات التعالي والكِبْر وما يترشّح عنها من تدافع وتقاطع ينتهي بالهجران والتباعد بين الأحبّة، والتباغض والتجافي والتنائي بين الأهل والخلاّن في كثير من الأحيان.

وهي من ناحية ثالثة تقرّ الاختلاف بين البشر كما أقرت النقص **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾**[٢].

وبالتالي فإنها لا تُصوّر الاختلاف نزاعاً، ولا الحوار معركة وإنما هو كشفٌ وبلورةٌ وخصوبة وتكامل ونضج، فلا تسمح لاشتباك الأيدي في غياب الحجة، ولا لجعجعة الأوتار الصوتية عند عجز المنطق، ولا لهراوة القمع والاستبداد عند سقوط العذر وانهيار التبرير أو نقضه...

وإذا ما نزعتْ إلى الجدل يوماً بنزغ من الشيطان طبعاً فإنها تستوعب الحالة على ضوء الحقيقة القرآنية الخالدة وإقرارها لنزعة الجدل عند الإنسان **﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾**[٣].

---

[1]- أي عار السبي أو سوق الأطفال والنساء سبايا وشماتة الأعداء وما تلحقه الهزائم العسكرية أحياناً بالمغلوبين أو المنكسرين.

[2]- هود : ١١٨-١١٩.

[3]- الكهف: ٥٤.

وإذا ما أدركتْ أنها ليست فوق الخطأ وإن كل الناس خطاؤون وخير الخطائين التوابون، أو توهمت أنها فوق الخطأ تفتتت لديها العصمة وجاءتها مقولة «المعصوم» علي بن أبي طالب (عليه السلام)، صارخةً مدوّية فاعلة: **«فلا تكلّموني بما تُكلّمُ به الجبابرة... ولا تخالطوني بالمصانعة... ولا تكفّوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدلٍ... فإني في نفسي لستُ بفوق أن أخطئ ولا آمن ذلك من فعلي إلاّ أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني... »**[1].

وإذا كان هذا الرجل العظيم يرى نفسه أنه ليس فوق أن يُخطئ أو هكذا أراد أن يربي الأمة ـ لا فرق ـ فما بال غيره، إذا تعرض لنقدٍ أو أشير إليه بخطأ ترتعد فرائصه وتنتفخ أوداجه وتتلبّسه حالة الشيطان «أنا خير منه» وتتملكه حالة ذاك الذي اختلق ظاهرة كونية ورآها أهون عليه من الاعتراف بالخطأ، فقال حينما عاتبه أصحابه عن سرّ تأخّره عن صلاة الصبح ذلك اليوم، أنه لم يتأخر ولكن الشمس أسرعت في الشروق!!!

وإذا اعترف الإنسان بنقصه وأقرّ بتلك الحقيقة بدخيلته، فإنّه بالتأكيد سيحترم رأي غيره، ويحترم آدمية ووجود الآخرين، وبالتالي فإنه سينتفض على ذاته وأنانيته ويعترف بما يُسمى حرية الضمير أو الرأي أو الرأي الآخر أو (التعددية أو الديمقراطية أو رأي الشعب) وما إلى ذلك في مصطلحات الحداثة والمحدثين. وهذه بحدّ ذاتها طفرة جديدة بل قفزة جديدة للانعتاق من عالم التحجر والجمود «العقائدي» الذي سعى ويسعى إلى التحرر منه كل العقلاء وأصحاب الرأي في عالم اليوم...

وكما يرى أحد المفكرين أن حرية الرأي والتعددية يُعتبران مصدراً للإبداع والثراء الفكري والتجديد فإنه يضيف: **«.. ربما تكون هذه التعددية مصدراً للثراء**

---

[1] - نهج البلاغة ج٢ ص ٢٠١ وفي التفاتة تربوية غاية في الدقة والروعة والعظمة.

الفكري ودافعاً على تحريك العقل نحو الاجتهاد والإبداع، ومنبّهاً على الأخطاء والإنحرافات، ومرايا يرى فيها الجميع العيوب والأمراض فيُسرعون إلى علاجها والخلاص من مضاعفاتها»[1].

وعند إقرار التعدّدية والاعتراف بحق الآخرين في الطرح والتعبير، يصبح الرأي الآخر، حقاً طبيعياً تفرضه سنّة الحياة، ويصبح احترام آراء الآخرين، حقيقة موضوعية لا ينبغي تجاهلها أو التغاضي عنها، وبعدها يمكن الانسلاخ تدريجياً من عبادة الرأي الواحد وتقديس الرمز الواحد، وصنمية الحزب الواحد، وعندها لا يبقى، الترشيد حكراً على المرشد، ولا الرُشد حكراً عليه أيضاً، وتصبح موضوعة النقد: توجيهاً وتنضيجاً ، أو بلورة وتقويماً، وليس جريمة يُحاسَب عليها فاعلها، ولا جناية أو إثماً يتحمل حاملها وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة!!!

نعم، لا اجتهاد مقابل نص ـ كما يقول علم الأصول ـ ولا تغيير في دائرة الثوابت، ولا فتنة في صف، ولا اصطياد في الماء العكر، وإنما رأي في دائرة المسموح، ونظرٌ في دائرة المتغيرات، وحركة فاعلة في منطقة الفراغ التي أقرتها الشريعة ولم يعارض على الاجتهاد فيها الأنبياء والصالحون وكل العلماء والأوصياء والفقهاء وانطلاقاً من فهم الزمان والمكان تارةً أو فهم الأحكام الأوّلية أو الثانويّة تارةً أخرى.

«أيها الناس، إنّ أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه، فإن شغب شاغب أستُعتب فإن أبى قوتل».

«ولا تكفّوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل».

---

[1] ـ من مظاهر الخلل في الحركات الإسلامية/ د. محمد عمارة ـ عن كتاب ـ الحركة الإسلامية/ رؤية مستقبلية ص ٣٣٠.

«حقٌ على العاقل أن يُضيف إلى رأيه رأي العقلاء ويضمّ إلى علمه علوم الحكماء».

«من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها في عقولها»

و «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»

وأخيراً وليس آخراً «إعجاب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله»[1].

النقد بين المفهوم والمصداق

بعد هذه التوطئة والمدخل، وتحت شعار القولين المأثورين:

«أحبّ الناس إليّ من أهدى إليّ عيوبي» و «المؤمن مرآة أخيه المؤمن».

تصبح ظاهرة النقد وقبلها النقد الذاتي... مدخلين شرعيين ضروريين لكلّ مسيرة تُريد التكامل أو يراد لها التكامل... وتصبح معركة مواجهة الذات أو مراجعة الذات أو وعي الذات أكثر قداسة من معركة تنزيه الذات أو تقديسها، إذا كان ثمة قداسة لهذه الأخيرة، فكيف بها وهي ليست كذلك بالتأكيد؟!

وحين يقول قائل إن أرقى أنواع الوعي هو وعي الذات وإن أقدس معركة هي تلك التي يبدأها الإنسان بتغيير نفسه قبل تغيير غيره، فإنما هو لتأكيد حقيقة وفاعليّة هذا التغيير وأثره أو دوره في التأثير على العالم الخارجي...

وكلما ارتقى الإنسان في عالم النضج وارتقى في ملاكات الكمال، كان أقدر على المراجعة والتوقف لأنه يُدرك جيداً أن **«مراجعة الحقّ خير من التمادي في الباطل»**... **«وأن حقيقة مُرة خير من خداعٍ ناعم»**... وكلما انعتق من أسر القفص الصدري وتحرر

1- جميع هذه الجُمل والعبارات والحِكَم هي للإمام علي عليه السلام ـ نهج البلاغة.

من سجن الذات والأنا وأدرك أن «**ألدّ أعداء المرء نفسه التي بين جنبيه**» ـ كما يقول الحديث الشريف ـ كان أقدر على احتواء الآخرين واستيعابهم واحترام آدميتهم وإقرار نقصهم البشري، وكان أقدر كذلك على استنطاق قول الشاعر العربي:

إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلّهم أعدائي!

بل أقوى مع استنطاق الآية القرآنية الكريمة التي مرّ ذكرها.

﴿وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين﴾.

ولعل أروع شعارات هذا الفهم وأجمل توصياته لبناء الإنسان العاقل، هو ما أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة الأخرى:

﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه... أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾[1].

فجعلت الذين يستمعون القول، وما يعنيه من نقد ونصيحة ومشورة هم المهديين وهم أصحاب العقل والحكمة والهداية، أو المؤهّلين للهداية في أقلّ التقادير...

ومن هنا ومن هذه المفاهيم العالية تبدأ خيوط «النقد» في النظرية الإسلامية وتبدأ تجلّيات وجودها في أعمق إشارة من إشارات القرآن الكريم وحيث يضع الباري تعالى نفسه أو نبيّه قبال عبيده سبحانه فيقول جلّ وعلا: **﴿وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين﴾** لتعقبها بعد ذلك أقوال وأقوال تؤكد في خلاصتها أن الإنسان يُخطئ وأنه معرّض للزلل وأنّه بدون مراجعةٍ للذات وتقويمٍ من الإخوان لا يصل ولن يصل إلى ما يُراد له الوصول إليه في عالم الفضيلة والنُبل والكمال...

«أيها الناس، قد وليتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فقوّموني»[1].

---

[1]- الزمر: ١٣.

وفي إشارة أخرى، يقف الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، خطيباً هو الآخر في جمع من المسلمين وينادي «أيها الناس سمعاً وطاعة»!!

فيقوم إليه فردٌ من عامة المسلمين ويقول «لا سمعاً ولا طاعة لك علينا» وحين يكثر اللغط ويتساءل المسلمون عن سرّ هذا الرفض أو هذا النقد أو هذا التحدّي، يتبين أن عمر بن الخطاب كان يرتدي ثوباً يمانياً يغطي كلّ جسمه فيما كانت حصته من هذا البُرد لا تكفي إلاّ لغطاء نصف بدنه ـ باعتباره طويل القامة كما يصفه المؤرخون، فمن أين جاء بالنصف الآخر؟!

ولم يستطع عمر الردّ على الرادّ عليه حتى أقنعه وأقنع المسلمين أن نصف البُرد الآخر كانت حصة ابنه (عبد الله) استعارها منه ليتمّم بها ثوبه، وحينذاك قال الناس «الآن سمعاً وطاعة» فيقول عمر مستأنفاً:

«إنْ رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوموه».

فينبري إليه مسلم آخر ويقول:

«والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بحدّ السيف»!![2]

أما تربية الإمام علي (عليه السلام) لجماعته وقومه، وترويضه الأمة على قول الحق ونقد الباطل، فقد كانت مثالاً للقائد الفذّ الذي جرّأ الأمة على مواجهة الحاكم ومحاججته مهما أكبروا[1] فيه من عظمة القيادة وعدْل الحكم وإنصاف الناس...

وقد أراد (ع) بذلك بناء المدرسة الإسلامية التي لا تُجاهل ولا تُداهن ولا تنافق، ولا تنور وإنما تقف وتتصدى وتطالب بحقها ولا تتكلم مع السلاطين كما كان

---

[1]- من خطبة شهيرة لأبي بكر الصديق أثناء توليه الخلافة.

[2]- راجع كتاب تنبيه الأمة وتنزيه الملّة / الإمام النائيني ص٦٦ في مجلة الغدير عدد كانون أول ١٩٩٠، حيث تُنقل عموم هذه الحادثة ودورها التربوي ودور مدرسة النبي (ص) في تأصيلها أو تجذيرها في نفس عمر وغيره.

غيرهم يتكلمون مع جبابرتهم بالمجاملة والمصانعة والتزلّف، وكانت هذه المدرسة أو هذه التربية هي التي أحرجت معاوية بن أبي سفيان بعده، فخاطب أهل العراق يوماً ممتعضاً:

«هيهات يا أهل العراق، لقد لّظكم علي بن أبي طالب الجرأة على السلطان وبطيئاً ما تُفطمون».. [١].

وهي السياسة التي فجّرت مرجل النقد ضد المستبدين والطواغيت، فكانت ثورة الجماهير ضد الخليفة الثالث الذي استأثر بالسلطة والمال.[٢]

وكانت ثورة الإمام الحسين التي تفجرت ضد الظلم والفسق والانحراف، وكانت ثورة التوابين التي اعتملت في «النفس اللوامة» لرجالها الخالدين فكانت صوت الرفض ونداء الضمير وصرخة الوجدان... وكانت ثورات وثورات وعلى امتداد التأريخ الإسلامي وكلها امتداد لتلك التربية النبوية، التي لم تكتف برفع شعار المعارضة والنقد ضد الخلل والانحراف وإنما وصلت لحد التحريض والثورة ورفض أنصاف الحلول: «والله لو أعطوني الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه».

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول:

«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة» [٣]

1- راجع كتاب (أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان) ـ تأليف العبّاس بن بكّار الضبّي المتوفّى سنة ٢٢٢ هـ تحقيق سكينة الشهابي ـ طبع مؤسّسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٣ هـ ص ٧٠.

2- وإن كانت هذه الثورة ـ كما وصفها علي (عليه السلام) قد شطت قليلاً عن حدودها وتجاوزت بعض ما أريد لها، فجاءت كلمته (عليه السلام) «استأثر فأساء الأثرة وجزعتم فأسأتم الجزع ولله حكم قائم في الجازع والمستأثِر».

3- صحيح مسلم / ١٥٢٤/٣.

حتى قال:

«كلا... والله لتأمُرن بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر ، ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنّه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً»[1]

ومن هذا الفهم، وهذه المدرسة استمدّ الفقهاء المسلمون حركة النقد أو حركة المعارضة، ومن خيوطها انتزعوا أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاعتُبر الساكت عن الحق شيطانٌ أخرس والمتفرج على المنكر مؤمناً لا دين له، على حدّ قول رسول الله (ﷺ):

«إن الله عز وجلّ ليبغض المؤمن الضعيف الذين لا دين له. قيل وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له يا رسول الله؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر»[2] وكذلك قوله (ﷺ): **«أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر أو سلطان جائر»** وفي هذا السياق قال إمام الحرمين:

«إن الإمام إذا جارَ وظهر ظلمُه وغشّه، ولم يرعو لزاجرٍ عن سوء صنيعه، فلأهل الحلّ والعقد التواطؤ على ردعه ولو بشهرِ السلاح ونصْب الحروب»[3].

بين النقد والشتيمة

نعم، تبقى مسألة مهمة لابدّ من توضيحها في حركة النقد والمواجهة، هذه...

وكما قلنا في كلمة البدء أن النقد حالة جديدة أو مصطلح جديد لدى البعض، لم يُروّضوا بعد على هضمه، واستيعاب ضغوطه، فراحوا في أول سلاح رفعوه لذبحه

---

[1]- عن سنن أبي داود.

[2]- وسائل الشيعة ١/ ٤٣٨.

[3]- مجلة الفكر الجديد / العدد الرابع كانون أول ١٩٩٢ ص ١٠٨.

يزعمون أنه عملية (تسقيط وتشهير)، تُدخل صاحبها جهنم، وأنه شتائم وقذف وتعريض يُربأ بالمسلم تقحّم منعرجاته ومنعطفاته، وأنه شغب وفتنة وتحريض، قد يخرّب الكيان ويمزّق الشمل ويفتّت وحدة الصف، وأنه رصد للعثرات وتسقّط للعيوب!! ومَنْ فضح عيوب أخيه، أو لاحق عثراته فضحه الله يوم القيامة، وما إلى ذلك.

وهم بهذا الخلط بين النقد البنّاء وما اصطُلح عليه النقد الهدام، وبين النُصح والشتائم، انقسموا صنفين:

صنف جاهل لابدّ من الصبر عليه وتربيته لأن في بعض «النصح لسع العقارب» ـ كما يقولون ـ وفي النقد مكاشفة ومواجهة وإحراج، وبالتالي، فلابدّ من التأنّي في معالجة مرض الجهل هذا، والاسترسال مع المصابين به ونقلهم من المفاهيم إلى المصاديق رويداً رويداً، كمن يَتروّى في الخروج من الجو الدافئ إلى الجو القارس في ليالي الشتاء الباردة ليتحاشى الإصابة بالزكام ومضاعفاته...

وصنف معاند مكابر يتوارى خلف المفاهيم ويُثير الغبار والضجيج ولا يدع الصواب يظهر في زحام الجواب ـ كما يقال ـ لأنه يُدرك جيداً أنه سيُفضح في جو المرافعات الأمينة والمحاكمات الصادقة، فيحرص أن يُحرّك أوتاره الصوتية بدل عقله، ويروح يطرح المفاهيم العائمة بدل المصاديق الصارخة ويكون كذلك الأحمق الذي يُراد منه أن ينظر إلى القمر فيُصرّ على النظر إلى الإصبع... وأخيراً يروح يتشبث بالقشّة لإنقاذ نفسه من الغرق فيجادل ويناور ويماري وينتهي به الجدال والمناورة واللف والدوران، كما انتهى بمعاوية بن أبي سفيان الذي انتُقد على قيام جماعته بقتل الصحابي الجليل عمار بن ياسر في معركة صفين وصدْق نبوءة رسول الله (ص) الذي قال: «**تقتلك الفئة الباغية**» وردّ معاوية الماكر: (**قتله الذي أخرجه**)!!..

هذا المِراء.. أو هذا (الجدل) الذي نظنّه اشتُق من «الدجل» هو الذي يجعل أصحابه يتطيّرون من ملاحظات النقد أو تيار النقد الذي لا يُساوم ولا يجامل ولا يُصانع، فيهزّ الشجرة العملاقة فتتساقط أوراقها الهشّة، ويعصف بالزيف ويكشف الذهب الخالص عن المزوّر، ويضطر المقنّعين والمبرقعين بهالات القدسية الكاذبة على الوقوف عراة بين مطرقة الحق وسندان الشجاعة وحركة الأمة الواعية...

هذا من جانب، ومن جانب آخر أيضاً ـ يحاول المزيّفون والمقنّعون استغفال الناس وتسطيح وعي الجماهير... وبمقدار ما تكون الأمة مسطّحة الوعي، ضحلة التفكير، بمقدار ما يفلحون في الاصطياد بمائها، واستهبالها وتمرير ألاعيبهم وشعاراتهم عليها. وبمقدار ما كانت الأمة عميقة الوعي قادرة على محاكمة المفاهيم والشعارات، حادة النظر دقيقة التركيز، كانت أعجز على التدجين وأعصى على التطويع والاستهبال والاستغفال...

وتأسيساً على ذلك اشتق أحد المفكرين الإسلاميين نظريته في تعميق وعي الأمة، وقال إن الإيمان وحده لا يكفي بدون وعي، فالوعي هو الذي يُعطي للإيمان قيمته وحيويته، منتزعاً ذلك من الأقوال المأثورة: **«لا خير في عبادة بلا تفكّر... ونوم العالم خير من عبادة الجاهل، وتفكير ساعة خير من عبادة سنة»**.

وأضاف: «أن رموز التسطيح في القرآن الكريم ثلاثة، (فرعون، وقارون، وبلعم بن باعورا... فالأول يأخذ برأسك إذا انتقدته أو عارضته، والثاني يملأ جيبك ذهباً وفضة» إذا رآك (عصيّ الدمع شيمتك الرفضُ) أو رآك عصياً على الاستمالة والخضوع لسياسة الإرهاب والابتزاز.

أما الثالث وهو أبشعهم في مدرسة التسطيح هذه، فإنه يخدّرك، ويمتصّ غضبك المقدس هامساً في أذنيك دجلاً وإفكاً: «إصبر لا ترفع صوتك، يؤجرك الله غداً...»[1].

وأفضل طريقة لاجتثاث الحالة النقدية في الأمة، وإيقاف إعصارها الجارف هو قيام المستبدين باتخاذ بِطانة ممّن على شاكلتهم يُعينونهم على «التشهير» بالنقد و «تسقيط» رجاله، وعبر إضفاء هالة القدسية على السلطان الحاكم واستثمار جهل الأمة، وتدجينها على عدم التمييز بين «جليل الشأن» و «جلّ شأنه» وبين «المنعم» «وولي النعم» وبين الفاعل المسؤول والفعّال المطلق الذي **﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾**. وبذلك «يحوّلون الأمة إلى قطيع، يحكمهم المستبدّ بهواه، لا بشريعتهم وبإرادته لا بإرادتهم ويُصيّرهم كالغنم دَرّاً وطاعةً، وكالكلاب تذلّلاً وتملّقاً، ويستغل في تجذير هذه الساسة مجموعة من اللئام يستخدمهم في تأييد أمره ومجاراة هواه، مقابل أن يضحك عليهم بشيء من التعظيم ويسدّ أفواههم بلقيمات من مائدة الاستبداد ثم يحوّلهم بمرور الأيام إلى ثلة من العبيد أو (في أحسن أحوالهم إلى قطيع مدجّن) أو «كبقر الجنّة لا ينطحون ولا يمرحون»[2].

ولا تنتهي هذه السياسة إلاّ بفرز صنفين من الناس، صنف ثائر غيور يرى في الثورة واجباً وشهامة ويرى في مسايرة اللئام، ذلّ وخضوع واستكانة، فيتمرد ويثور على الواقع الفاسد... وصنف يحترف التملّق والتزلّف، ويحوّل هدفه في الحياة كلّها إلى «إشباع لذّتين إثنتين: البطن والفرج، فيصير بعضهم جهازاً تناسلياً قذراً ويتحوّل

1- الإنسان والإسلام ـ الدكتور علي شريعتي ص ٤٠.

2- طبائع الاستبداد ـ عبد الرحمن الكواكبي ص ٤٠، ٥٨.

آخرون إلى أنابيب قذرة بين «المطبخ والكنيف وكأنهم معامل أُعدت لتجهيز الأخبثين»...[1] لا أكثر ولا أقلّ.

الأفق النقدي في الحركة الإسلامية

أمثلة رائدة في المؤسّسة العلمائيّة

لعل من أجمل معالم النضج في الحركة الإسلامية المعاصرة هو تجلّي الحركة النقدية وبروز تيّارها في وسط الجماعة الإسلامية نفسها، وقيام بعض رموز هذه الحركة بتخطّي مرحلة الصمت والتهيّب والمجاراة، فراحوا يكتبون الدراسات والبحوث ويفصلون في ضرورة تقحّم هذا النفق المظلم الكئيب بعد تهشيم بوّابته الرئيسية التي حالت سنين طويلة دون ظهور الناقد الحرّ الذي يتمرّد ويتحدّى ويُكاشف، واستوقفته عقود من السنين هراوات الإرهاب الفكري والاحتكار السياسي و(فتاوى) المسطّحين ممن لا يُجيدون غير الاتّهام والتشكيك في النوايا وإدخال الناقدين في جهنم والسعير...

رؤية السيّد الشهيد الصدر (قدس سره)

وللثائر الشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) الذي يُعتبر من أبرز رجال الفكر الإسلامي في العصر الحديث دور مخلّد في مجال التصحيح والنقد والدعوة إلى

1- نفس المصدر السابق (بتصرّف) ص ١٠٧.

التجديد. فنراه يشير وبلغة صريحة وجريئة وأمام العشرات من تلاميذه من طلاب الحوزة العلمية إلى هذه الدعوة ويقول ما نصه:

«لماذا تعيش الحوزة العلمية في هذا البلد مئات من السنين، ثم بعد هذا يظهر إفلاسها في نفس البلد الذي تعيش فيه... وإذا بأبناء هذا البلد أو بعض أبناء هذا البلد يظهرون بمظهر الأعداء والحاقدين والمتربّصين بهذه الحوزة!!» ويضيف:

«ألا تُفكّرون في أنّ هذه هي جريمتنا قبل أنْ تكون جريمتهم، وأنّ هذه مسؤوليتنا قبل أنْ تكون مسؤوليتهم...»

ويروح السيد الصدر يعدّد أسباب إفلاس الحوزة في البلد الذي تعيش فيه، موجهاً نقده للمؤسسة الدينية ذاتها قبل أنْ يوجّه نقده للأمة التي اعتاد غيره لومها لتبرئة الذات وتنزيه النفس والتخلّص من عذاب الضمير...

فيقول السيد الشهيد وفي معرض عرضه لأسباب هذا الإفلاس:

«إننا لم نتعامل مع الناس، بل تعاملنا مع أجدادهم ولم نتعامل معهم، هذه الأجيال تشعر أننا نتعامل مع الموتى، ولا نتعامل مع الأحياء... ولهذا يحقدون علينا ويتربّصون بنا لأنّنا لم نقدّم لهم شيئاً ولم نتفاعل معهم».

ثم يروح (رضوان الله عليه) يفصّل، هذه العزلة عن الناس، ويستنكر طريقة التعامل معهم فيقول:

«أنا منذ سنة، أو أكثر من سنة، أتحدّث مع الإخوان ومع الأعزاء، في أنّ كل واحدٍ من أهل العلم، وكل واحد له قدرة (من الفُضلاء) لو كوّن مجلساً تبليغياً في النجف الأشرف يضمّ خمسة فقط لا أكثر... يضمّ هذا البقّال... وهذا العطّار... وذاك الجار... وهذا الصديق... لو كان كلّ واحد من أهل العلم عنده مجلس تبليغي في يوم الجمعة بدلاً من أن يذهب إلى الكوفة ويسبح من الصبح إلى العصر، وبدل أن يبذر الوقت بالمطاردة في الشعر ويتلفه بألف هو وهو... لو استثمر جزء من هذا الوقت في

مجلس تبليغي لأبناء النجف... لو أن ألف شخص من الطلبة. كلّ واحد منهم يكون مجلساً تبليغياً لخمسة، لكان لدينا قاعدة شعبية مكوّنة من خمسة آلاف، ولأحسّ الناس من أبناء هذا البلد بأننا نتعامل معهم، أننا نفكر فيهم، أننا نعطيهم، أن وجودنا مرتبط بوجودهم، أن حياتنا مصدر خير لهم، مصدر عطاء لهم...».

ثم ينتهي (قدّس سرّه) بعد هذه الزفرة إلى ضرورة تغيير أساليب العمل... ويدخل مباشرة في تحديد معالم هذا التغيير، وبعقل معرّفي ناقد، استوعب الواقع وشخّص الخلل وبدأ بنقد الذات قبل نقد الأمة، وكأنه توفّر بالكامل على دراسة هذا الواقع بعد أن استكمل شروط الوعي المعرفي الذي يؤهله للنقد، ووضعْ النقاط على الحروف فيقول (رحمه الله):

«إن أمة اليوم غير أمة الأمس في مستواها الفكري والأخلاقي وعلاقتها الإجتماعية وأوضاعها الاقتصادية.. وحيث إن أمة اليوم غير أمة الأمس، فلا يجوز لك أنْ تتعامل مع أمة اليوم كما تعاملت مع أمة الأمس...» ويضيف:

«لابد لنا، مثلاً، أن نتحرّر من نزعة الاستصحاب... من نزعة التمسك بما كان حرفياً... هذه النزعة الاستصحابية جعلتنا نعيش دائماً مع أمة مضى وقتها... مع أمة ماتت وانتهت بظروفها وملابساتها. إننا نعيش في أمة ذات أفكار أخرى واتجاهات أخرى... وحين نتعامل مع أمة ماتت فمن الطبيعي أن لا نُوفّق...

وحين نتعامل مع أمة ماتت ولا نتعامل مع الأمة الحيّة، ومهما يكن لنا من تأثير فسوف يكون هذا التأثير سلبياً، لأن موضوع العمل غير موجود في الخارج، موضوع العمل ميّت.»

ثم يستنكر أساليب العمل في الحوزة ويستشهد بأدلة صارخة ومُرّة فيقول:

«هل القواعد التي جاء بها الشهيد الأول (رض) قبل قرون وقرون هي هي؟!... وأنْ تبقى بحدودها التي كانت أيام المماليك... هل تَصْدُق الحدود التي كانت أيام

المماليك في سوريا على ما هو موجود في العالم اليوم مع تغيّر العالم؟!... هل نفكر في النظريات الفقهية والأصولية كما نفكر في (الترتّب)... وفي اجتماع الأمر والنهي كما نفكر في العصير العنبي»[1]!!

هذا على صعيد التفكير وأساليب العمل، ونقد التحجر والجمود في المؤسسة الدينية وإنْ لم يذكر ذلك بالنص،... أما على صعيد النقد الذاتي فقد جاء إعصار النقد بكلمات السيد الصدر أكثر استفزازاً وإثارةً وثورة... يقول السيد الشهيد في معرض تعليقه على المصلحة الخاصة والمصلحة العامة والعلاقة التفصيلية بالله تعالى:

«...إنّ مطالب الفقه والأصول تملأ عقل الإنسان ولكنها لا تملأ ضميره ولا تملأ وجدانه، ولئن امتلأ عقله علماً فإن ضميره ووجدانه قد يبقى فارغاً، كما كان فارغاً حينما كان ابن القرية أو أبن المدرسة أو ابن المعمل الذي جاء منه إلى هذه الحوزة... وهذا الفراغ في الضمير والوجدان الذي يعيشه سوف يميّع بالتدريج شعوره بالارتباط بالله سبحانه حتى وإنْ أصبح ثرياً من الناحية العقلية... وأنتم تعرفون أن من ينسى الله ينساه الله، (صانع وجهاً واحداً يكفيك الوجوه كلها)... نحن اليوم نرى أن الوجوه كلها ساخطة علينا متبرّمة منّا، لأنّنا لم نصانع وجهاً واحداً...»

وعن روح التضحية والإيثار وخلوّ الحوزة منها أو انكماشاً فيها، يوجّه السيد الشهيد نقده اللاذع لهذه الظاهرة فيقول:

«نحن بحاجة إلى أخلاقية التضحية بدلاً من أخلاقية المصلحة الشخصية، لابد لنا من أخلاقية التضحية بالمصالح الخاصة في سبيل المصالح العامة...

أما ما كان موجوداً فهو على الغالب، إيثار للمصلحة الخاصة على المصلحة العامة...»

---

[1]- المحنة ـ للسيد الشهيد (محمد باقر الصدر) ص ٨٠ – ٩٠.

ثم يضيف متبرماً:

«إلى متى نحن نعيش المعركة داخل إطار يحكم عليه بالفناء يوماً بعد يوم، أو يواجه خطر الفناء يوماً بعد يوم!!؟ ولا نفكّر في نفس الإطار... أنْ نتناسى مصالحنا الصغيرة في سبيل المصلحة الكبيرة...

أخلاقية الإنسان العامل أول شروطها هو أنْ يكون عند الإنسان شعور واستعداد بالتضحية بالمصلحة الصغيرة في سبيل المصلحة الكبيرة، وهذا ما لابد لنا من ترويض أنفسنا عليه...»[١].

صيحات أخرى لعلماء آخرين

هذه الأصوات الجريئة كانت انطلقت قبل السيّد الشهيد ولكن الإعلام المضاد لها حال دون ظهورها كظاهرة جسورة، تتمرّد على المألوف وتندّد بالتحجّر والركود.

وكانت أعلى هذه الصيحات دويّاً في المؤسّسة العلمائيّة الشيعيّة (الحوزة العلميّة) ـ وإن كانت مخنوقة كما قلنا ـ هي صيحة الشهيد المجاهد (نواب صفوي)، التي أطلقها قبل أكثر من نصف قرن وبالتحديد في شهر محرّم الحرام سنة ١٣٧٠ هـ وجاءت ضمن بيان وثيقة وزعته منظمة (فدائيان إسلام) التي يتزعّمها الشهيد المذكور. نكتفي في هذا العرض نقل بعض نصوص هذه الوثيقة التأريخيّة، كما جاءت في كتاب خاص أصدرته هذه المنظّمة آنذاك... يقول النصّ:

«يجب على مراجع التقليد أن ينهضوا بتطهير (الحوزة) من الأشخاص الذين يلبسون زيّ العلماء وينتحلون صفة المرجعية من دون أن يكونوا مؤهّلين لذلك.

---

[1]- نفس المصدر السابق ص ٥٨ – ٧٤.

فأمثال هؤلاء لا يتحلّون بالنزاهة وهم في حقيقتهم أصدقاء لأعداء الإسلام، أودّاء للأجانب وخونة (لاحظ). لذلك ينبغي للمراجع أن يفضحوا هؤلاء ويكشفوهم أمام المجتمع في أي مكان كانوا، ويطردوهم من الصفّ العلمائي المقدّس لكي يبقى الإسلام والمسلمون مصونين من جرائمهم الخفيّة. ويظلّ الكيان العلمائي المقدّس بمأمن من مفاسدهم مبرّءاً منهم، وبالتالي لا يتحوّل ودّ أمثال هؤلاء إلى ذريعة لإهمال الكيان العلمائي وعدم العناية به، ويكون محطّاً لسهام الافتراء والتُهم العامّة ومغمزاً يتذرّع به ذوو الأغراض في مواجهة هذا الكيان. كما أن تطهير المرجعيّة للكيان العلمائي (الحوزة) من هؤلاء سيقود إلى حفظ ورعاية الاحترام اللائق الذي يتحلّى به العلماء في المجتمع، ويسهّل أداء الوظائف الدينيّة والعلمائيّة من دون عقبات وموانع»[1].

كان هذا قبل أكثر من نصف قرن، وبعد نصف قرن وامتداداً لهذه الصيحات الناقدة الأصيلة، جاءت صيحات مماثلة أكثر خصوبة وأعمق تأثيراً، لتؤكّد بلا تهيب أو تحفّظ، ضرورة النقد، وبالتحديد (نقد الفكر الديني) رغم حساسيّة هذه العبارة الاستفزازية بطبيعة الحال... نعم (نقد الفكر الديني) ولكن من أين، ليس من خارج إطار هذا الفكر، وإنما من داخله، وهذا هو الفرق الجوهري طبعاً بين مَنْ ينتقد المؤسسة مِنْ الخارج وبين مَنْ ينتقدها مِنْ داخلها.

يقول الشيخ (محمد مجتهد الشبستري) أحد الأساتذة والمحقّقين في المؤسّسة العلمائيّة الشيعيّة في مقال مفصل له تحت عنوان (لماذا يجب نقد الفكر الديني؟)[2]:

---

[1]- النصّ الأصلي بالفارسيّة، وقد قامت مجلّة (قضايا إسلاميّة) بترجمته في عددها الرابع ١٩٩٧ م ص ٤٠٤.

[2]- آية الله الشيخ محمد مجتهد شبستري، هو أحد أبرز علماء الحوزة المعروفين من مواليد ١٩٣٦ وأستاذ متمرّس في كلّية الإلهيات بجامعة طهران. تولى إدارة المركز الإسلامي في هامبورغ بألمانيا لمدة عشر سنوات

«إن هذا النقد يمكن أن يكون أحياناً من الخارج، وأحياناً أخرى من الداخل، وهناك فارق بين النقدين، فالنقد الخارجي هو نقد غير إيماني، أو يمكن القول على الأقلّ: أنّ الناقد لا ينطلق من منطلق إيماني حينما يمارس مثل هذا النقد، وعليه فإنّ الانتقادات التي وجّهها (فيورباخ) و (كارل ماركس) و(سيجموند فرويد) و(جان بول سارتر) إلى الفكر الديني، كانت جميعاً انتقادات خارجيّة ومفرغة من الإيمان، بل إنها كانت تنطلق من مواقع معادية للإيمان...

أمّا القسم الثاني ونقد الفكر الديني ـ والكلام للشيخ الشبستري ـ فهو الذي ينطلق من داخل الفكر الديني ومن موقع الإيمان، وهذا النقد يستهدف خير الفكر الديني، لا تدميره واجتثاث جذوره، كما يفعل الناقدون الخارجيّون[1]، ولا يمكن لناقد الفكر الديني من موقع الإيمان أن ينتقده، كعالم اجتماع أو فيلسوف أو باحث نفساني بل هو ينتقده، من موقع الإيجاب وحسب مثلما فعل المصلحون الدينيّون على مرّ التأريخ، لذلك فلا ينبغي الخلط بين النقدين الإيماني وغير الإيماني، إذ إنّ النقد الإيماني ينطلق من موقع الحرص على الحقيقة النهائيّة... (بينما ينطلق النقد غير الإيماني من موقع أو مواقع معادية للدين)... ويضيف:

قبل انتصار الثورة. وبعد عودة المرحوم آية الله البهشتي إلى إيران أنصب نشاطه التدريسي في الحوزة والجامعة على مواد علم الكلام الإسلامي وتأريخ الفرق الإسلامية، وتأريخ الفلسفة الإسلامية ودرّس المنطق والفقه والأصول، وشملت مطالعاته ـ كما قال ـ الفلسفة والتفسير وأدبيات اللغة العربية. راجع مجلة (قضايا إسلامية) العدد الرابع سنة ١٩٩٧م ضمن حوار مع سماحته جاء تحت عنوان (في قراءة النص الديني وفلسفة الفقه وعلم الكلام الجديد).

[1] ـ أمثال صادق جلال العظم وأضرابه في حديثهم أو أحاديثه عن (نقد الفكر الديني أو نقد الخطاب الديني).

«إن نقد الدين والإيمان والمؤسسات الدينيّة والمتديّنين وعلماء الدين هو من الضرورات الملحّة في الحياة الإيمانيّة... وعلى المؤمنين أن يكونوا من مؤيّدي وجود نقد الدين في المجتمع، وأن يسمحوا للآخرين بأن ينتقدوا معرفتهم وعملهم لكي يصقل المؤمنون ـ على ضوء هذا النقد ـ معرفتهم ومشاعرهم وأعمالهم ويجعلوها أكثر منطقيّة ونقاءً وصلاحاً»[١].

رؤية السيّد الخميني

أما السيد الخميني فله كلام شديد يُعتبر في مجال النقد والنقد الذاتي أرضية خصبة وقاعدة متينة لمدرسة النقد المعاصرة التي رعاها روّاد الثورة والصحوة الإسلاميتين في العصر الحديث..

فضمن كلام ورسالة مفصلة لهذا العالم الديني الكبير وجهها لطلبة الحوزة العلمية قبيل وفاته بشهور[٢] وبعد أنْ أثنى على العلماء الربّانيين الذين سقوا شجرة الإسلام بدمائهم وكانوا ملاذاً للمحرومين والمستضعفين على طول التأريخ والذين ارتقى العديد منهم أعواد المشانق دفاعاً عن الإسلام وعشقاً للشهادة في سبيل الله... خاطب هذا الرجل الباقين منهم. وبمرارة وألم واضحين، جلّى خلالهما كل خيوط النقد الذاتي التي تحرك كوامن المحتوى الداخلي للإنسان وتناشد ضميره ووجدانه في معركة الخيارات الصعبة، وبعبارات شديدة لو قالها غيره لاتُّهم بالكفر والفسوق والعصيان،

---

[1] - مجلّة قضايا إسلاميّة، العدد الرابع ١٩٩٧ ص ٢٨١-٢٨٥.

[2] - بيان الإمام الخميني المعروف في ١٥ رجب ١٤٠٩ هـ.

فضلاً عن اتهامه بالتسقيط والتشهير والتعريض[1]، ولكنها كلمات عالم مرجع مُجرّب ناقد يقول الحق ولا يخشى أحداً ولا تأخذه في الله لومة لائم، ومما قاله في هذا الصدد وفي هذه الرسالة التأريخية ما تُرجم نصاً:

«إن في الحوزات العلمية أشخاصاً يعملون ضد الثورة والإسلام المحمدي الأصيل، ويوجّه اليوم عدد من المزيفين السهام إلى الدين والثورة والنظام حتى وكأن لا وظيفة لهم غير هذا» ويضيف:

«وليس قليلاً، إذن، خطر المتحجرين والمزيفين الحمقى في الحوزات العلمية. وعلى الطلبة الأعزاء أنْ لا يتقاعسوا لحظة واحدة في معرفة أمر هؤلاء الثعابين الذين يبدوا ظاهرهم ليّناً ولكنهم يروّجون للإسلام الأمريكي[2] وأنهم أعداء رسول الله...»

ويعبّر الإمام الراحل عن ضيقه وتبرّمه بهؤلاء «الثعابين» فيقول متبرماً جريحاً:

«... فلو أردتَ في بداية التحركات الإسلامية أن تقول إنّ الشاه خائن، لكنتَ تسمع الجواب فوراً بأن الشاه شيعي، وقد كان عدد من المزيفين يَعتبرون كل شيء حراماً، فلم يكن هناك من يستطيع أن يُعلن عن وجوده في مقابلهم... وقد كانت الطعنة التي تلقّاها أبوكم العجوز من هؤلاء المتحجرين لم يتلقّ مثلها من ضغط وقساوة الآخرين...»

وفي عبارة أكثر مرارة يوجه الخميني نقده اللاذع إلى أولئك المزيفين والمتحجرين، الذين وقفوا في وجه الثورة وتذرّعوا بألوان الذرائع فيقول:

---

[1]- إذ لو لم يكن حاكماً سياسياً آنذاك لما استطاع أن يتحدث بهذه القوة. وإنْ كان له كلاماً شديداً في نفس السياق قاله أيام وجوده في النجف الأشرف وجاء في كراس خاص سماه (الجهاد الاكبر).

[2]- كان ذلك طبعاً أيام الحرب الصدامية ـ الإيرانية ويوم كانت أمريكا مصطفةً تماماً مع صدام تمدّه بالسلاح وتدعمه بالدعاية والإعلام وتقف إلى جانبه تماماً ضد الثورة الإيرانية التي لم يكن قد مرّ عليها أكثر من سنتين أو ثلاثة.

«... فلم تكن المواجهة مع رصاص وبنادق الشاه فقط. إذْ لو كانت هذه هي المواجهة فقط لكانت سهلة، وإنّما بالإضافة إلى ذلك، كان هناك رصاص الحيلة الذي أطلقه المزيفون والمتحجرون من الداخل، وقد مزّقت رصاصات الطعن والنفاق والازدواجية هذه القلوب وأحرقتها...»

وفي سياق انتقاده لهؤلاء العلماء المزيفين وتسجيله لمواقفهم الخيانية وفصْلهم الدين عن السياسة بالكامل وانتصارهم لخادم أمريكا الشاه كونه «شيعياً» واشتراكهم في وأد الثورة ورجالها، قال الخميني:

«وهناك جماعة أخرى من العلماء المزيفين الذين كانوا يعتبرون الدين مفصولاً عن السياسة قبل الثورة، وينكسون رؤوسهم في عتبة البلاط، ولكنهم يصبحون متدينين فجأة ويلصقون تهمة الوهابية وأسوأ من الوهابية بالعلماء الأعزاء والشرفاء الذين تحملوا دائماً الأذى من أجل الإسلام وتعرضوا للسجن والنفي والتشريد...»

وقد وجه الرجل نقده بل تنديده بمن أسماهم (الحجّتية) الذين يحرّمون الكفاح بدعوى أنه لا جدوى فيه حتى ظهور الحجة المنتظر «عج» وأنحى عليهم باللائمة لأنهم **«أهدروا بسكوتهم وتحجرهم شرف الإسلام والمسلمين وقصموا ظهر الرسول... ولم يكن عنوان الولاية لديهم إلا العيش والتكسّب ويعتبرون أنفسهم مؤسسي ووراثي الولاية، وهم يتحسّرون على ولاية حكومة الشاه...»**[1].

بهذا الأسلوب اللاذع وبهذه المكاشفة الصريحة سجّل الإمام الخميني، بداية مرحلة نقدية عنيفة للحوزة العلمية والمؤسسة الدينية ستكون مفتاح عصر جديد، للمكاشفة والمواجهة والصراحة، وبعيداً عن أساليب اللعب والمداراة التي لم يترشح

---

[1] - كانت كل تلك النصوص مقتطفات من رسالة الخميني إلى العلماء ٢٢ شباط ١٩٨٩ الموافق ١٥ رجب ١٤٠٩ هـ.

عنها إلاّ المزيد من الحالة «الثعابينية» وحالات النفاق والازدواجية، التي ألحقت بالإسلام والحركة الإسلامية الضربات تلو الضربات حتى صار (الإسلام الأمريكي) ورجاله الأفاعي المبرقعون بالقدسية ـ على حد تعبيره ـ هم السهام المسمومة التي زُرعت وتُزرع في قلب الإسلام الذي يرفض المداهنة والتزلّف، ويراهن على الصراحة والوضوح، ويطرح النقد والمراجعة والمكاشفة، منهجاً جديداً لوعي الذات، وتقويم الإنحراف، ومواجهة كل حالات التخلّف والتحجر والنفاقية في داخل الحوزة وخارجها.

كلمة للسيّد أحمد الخميني
وأخرى للشيخ المطهري وثالثة للخامنئي

وبعد رحيل السيّد الخميني وامتداداً لمدرسة النقد والمكاشفة هذه، جاء نجله السيّد أحمد (رحمه الله) ليواصل هذا الطريق الشائك المتعب، فجاءت بعض آرائه ومواقفه وكلماته أكثر سطوعاً أو (عُنفاً) لمواجهة أولئك الذين يضيقون بالنقد ويتبرّمون منه خشية الفضيحة والكشف طبعاً. فكان ممّا قاله هذا العالم الديني الآخر في هذا السياق:

«إن النقد هو مفتاح حلّ المشاكل، وإنّه يؤدّي إلى تنمية الوعي العام، وإذا كنّا نتصوّر أنّ النقد يؤدّي إلى إضعاف الحكومة فذلك خطأ..» ويضيف ساخراً:

«وإذا صرنا عاجزين عن نقد ممارسة خاطئة لهذا الوزير أو ذاك المحافظ، أو هذا المسؤول، فإنّنا سنصبح عاجزين عن توجيه أي نقد حتّى لمدير ناحية أو مختار قرية».

وينفتح السيّد أحمد الخميني على الواقع أكثر ويتكلم حول النقد بوضوح فيقول:

«..الجميع يخطئون، ولجميع الناس الحقّ في قول ما يعرفون، وعلى الصحف والإذاعة والتلفزيون خلق الأرضية اللازمة لتلاقح الأفكار وإتاحة الفرص أمام الناس لإبداء كلامهم مهما كان...» إلى أن يقول:

«إذا شطبنا حريّة النقد في أي نظام، فإنّ ذلك النظام سيصبح مستبداً.. ينبغي الانتباه إلى أنّ الطرح الحر للرؤى والآراء المختلفة أمر ضروري لحفظ وبقاء الدعائم الأساسيّة للنظام والثورة... إنّ أحد الابتلاءات التي تمكّنت من نفوس البعض وللأسف، أنّهم لا يطيقون سماع وجهات النظر المعارضة، وهذا الابتلاء سيجرّ إلى الدكتاتوريّة وأنّه يتقاطع مع روح وثقافة ثورتنا...»[1].

أمّا الشهيد المطهّري (رحمه الله) فقد اقتحم ميداناً أكثر تشابكاً وراح يندّد بمبدأ القداسة لهذا النفر أو ذاك، بل راح يندّد بما سمّاه **«مبدأ العصمة للناس والعلماء»** وكيف أنّ بعض الناس **«يعتبرون كلّ جديد بدعة أو اتّباع هوى»** ـ على حدّ تعبيره ـ ويدعو إلى إيجاد فكر مناهض واعٍ لمواجهة مبدأ العصمة هذا، لأنّ الإسلام ـ كما قال ـ **«لم يقل بعصمة أحد إلاّ مَنْ ثبتت لهم العصمة بالدليل»**[2].

وفي نفس السياق وبنفس النفَس وضمن نفس التأكيدات ومع ذات المؤسسة العلمائية تحدّث السيد الخامنئي يوماً قائلاً:

---

[1]- جميع هذه النصوص وعشرات مثلها وردت في كتاب (آراء ومواقف السيد أحمد الخميني) طبعة عام ١٩٩٦ م في فصل كامل تحت عنوان (أهميّة النقد) ص ٦٩ إلى ص ١٠٧.

[2]- راجع كتاب (ذكرياتي مع الشهيد المطهري) تأليف علي دواني ترجمة خالد توفيق ص ٢٦١.

«إنّ في الحوزة العلمية ميراثاً حوزوياً يمتدّ لإثني عشر قرناً يجب الحفاظ عليه ولكن مع (ترميمه) ثمّ (تطويره وترشيده)[1] ـ على حدّ تعبيره ـ فليس من الصحيح أن نكتفي مثلاً في علم الأصول بكتاب (الفصول) أو (القوانين) في الوقت الذي باتت فيه بعض بحوثهما في عداد المنسوخات».

وأكّد الخامنئي في هذا الخطاب أن هناك «حوزة مريضة وأخرى سليمة وأخرى ضعيفة وغيرها قويّة، وأخرى ميّتة وثانية حيّة».

وبعد أن أشاد بجهاد وجهود عظماء الحوزة العلمية ورجالها الأفذاذ قال:

«... واليوم فإنّ الحوزة العلمية ليست كالأمس، فهي متخلّفة جدّاً عن عصرها، فالأمر ليس مثقالاً أو مثقالين، كما لو أنّ فارسين يقطعان وادياً وأحدهما أسرع من الآخر، ثمّ ظهرت السيّارة فمن الطبيعي أنّ الأسرع منهما لن يُدرك حتّى غبار السيّارة، والحال اليوم ـ كما أشرت ـ لقد أغرقت أمواج الفقه والكلام والفلسفة والحقوق الدنيا بأسرها، وعندما نعود إلى أنفسنا نجد أنّنا متخلّفون عن عصرنا كثيراً...»

ويواصل السيّد الخامنئي حديثه قائلاً:

«واليوم ـ أيّها الأعزاء ـ توجد شبهات جديدة خطيرة. لقد ولّت الشبهات القديمة، فليس هناك من يطرح اليوم شبهة (ابن كمونة)... هناك شبهات أخطر وأكبر، وابتداءً من أصل التوحيد وضرورة الدين وانتهاءً بوجود الصانع والنبوّة العامّة والخاصّة ومسائل الولاية والمسائل المختلفة الأخرى، وفي كلّ المجالات الدينيّة والإسلاميّة..».

---

[1]- هذه الكلمات والتي ستأتي بعدها جاءت في خطاب للسيد الخامنئي أمام فضلاء وأركان الحوزة العلمية ألقاه في مدرسة (دار الشفاء) بقم المقدّسة بتأريخ ١٢ رجب ١٤١٦ هـ.

وفي معرض إشارته لأدب الحوار، وأدب الاختلاف يواصل الرجل قائلاً:

«لا مكان لمن يفقد أعصابه، لماذا نفقد أعصابنا؟ أليس من المفارقات أن تُتّهم حوزة الإسلام وهذا الدين المنطقي بغياب الاستدلاليّة فيه... لماذا تفقدون أعصابكم؟».

ثم أشار إلى أساليب التبليغ وضرورة التعامل مع الواقع بلغة العصر «فما ينبغي التحدّث به في الجامعة لا ينبغي أن يُطرح في الريف أو المصانع مثلاً» وأضاف :-

«إنّ إتقان فنّ الحديث وأساليبه هو من مقدّمات التبليغ، شأنه شأن علم النفس الاجتماعي الذي تفتقده الحوزة هو الآخر» مع الأسف الشديد. وفي نفس السياق أكّد الخامنئي على ضرورة إدخال اللغات الأجنبيّة كجزء مهم من المناهج الدراسيّة وتوفير الوقت الكافي للطالب، لتعلّم هذا الفن البالغ الأهميّة...

أمّا عن سبل الإصلاح في الحوزة بعد هذا النقد وغيره الكثير، راح الخامنئي يُعدّد سُبل العلاج فيشير إلى **«بعث روح العمل بيد الأوساط الشابّة في الحوزة»** و **«إنشاء مركز لإنجاز هذه الأعمال»** و**«خلق بيئة مفتوحة تساعد على ازدهار الأفكار»** و**«عدم التشنّج لدى طرح الفكرة حتّى لو كانت خاطئة..»** وتبديل المناهج مضيفاً:

«فما هي ضرورة (المعالم) (أي كتاب المعالم) وهو كتاب أُلّف قبل عدّة قرون؟ وما هو المبرّر في عدم استبدال كتاب (القوانين) بكتاب آخر مبسط مكتوب بعد أربعمائة عام؟» وكذلك (شرح اللمعة) الذي **«يعدّ معقداً إلى حدّ ما.. وإذا أمكن اختصار البحوث المطلوبة في (المكاسب) وغيرها من البحوث المعقّدة في غضون أربع سنوات من الدراسة، فهل في هذا ما يُعيب؟»** وذلك لتوفير بعض الوقت للطالب لتعلّم لغة أجنبيّة مثلاً!!

وكان ممّا قاله أمام جمع من طلبة (البحث الخارج) وهي أعلى مرحلة دراسيّة من مراحل التعلّم والتعليم في المدرسة العلمائيّة، قوله:

«يجب علينا توسيع دائرة الفقه، ويجب أن يتطوّر فقهنا من حيث سعة مستوى الفقاهة فيشمل كلّ مسائل الحياة، فهناك اليوم الكثير من المسائل غير واضحة من الناحية الفقهيّة... أنّنا يجب ألاّ نكتفي ببعض أبواب الفقه التي لها أهميّة فرديّة، وليس لها أهميّة اجتماعيّة... تلاحظون مثلاً ـ حجم الكتب المؤلّفة في باب الطهارة بخلاف باب الجهاد أو القضاء أو المسائل الاقتصادية»[١]. وأضاف:

«كان بعض الناس يتنجّس من العالم الذي يَدْرس الفلسفة أو يُدرّسها.. إذْ لم يكن للفلسفة شيء يُذكر في الحوزة العلميّة»[٢] ويقول:

«لماذا لا تؤلّف كتب دراسيّة جديدة في الحوزة بعد مضي سبعين سنة على الكتب الأخرى، ما هو الإشكال في ذلك؟ فلتُشكّل هيئات تأليفيّة لإعداد كتب علميّة جديدة، أم أنّه لابدّ من دراسة (المطوّل والمعالم والقوانين وشرح اللمعة إلى الأبد؟)»[٣].

أمّا عن غياب التفسير في الحوزة العلميّة فإنّ السيّد الخامنئي يَعتبر ذلك فاجعة، إذ يقول:

«إنّ الإنزواء عن القرآن الذي حصل في الحوزات العلميّة وعدم استئناسنا به أدّى إلى إيجاد مشكلات كثيرة في الحاضر والمستقبل... إنّ البعد عن القرآن يؤدّي إلى وقوعنا في قصر النظر... نعم، كان يُنظر إلى العالِم المحترم والمفسّر الذي يستفيد

---

[1]- من خطاب له عند شروع العام الدراسي في ١٢ ربيع الأول ١٤١٢ هـ. هل تُصدق أن هناك مجلّدين مطبوعين ومنشورين تحت عنوان «أحكام التخلّي والوضوء» للعبد الفاني الحقير اللنكراني ـ حسب تسميته وعنوانه ـ واللنكراني هذا هو أحد كبار علماء إيران المعاصرين.

[2]- نفس الخطاب السابق.

[3]- من خطاب آخر للسيّد الخامنئي أثناء زيارته لقم المقدّسة في ١٥ شعبان ١٤١٢ هـ.

الناس من تفسيره على أنّه جاهل ولا وزن له من الناحية العلميّة، لذا يضطّر هذا العالم إلى ترْك درسه، ألا تعتبرون ذلك فاجعة؟ (لاحظ)».

ويقول في مكان آخر:

«نحن لا ننسى ما كنّا نقوله ونردّده في مقتبل أعمارنا حيث كان حماس الشباب يسري في نفوسنا ما بين سنة ١٣٤٠-١٣٥٠ هـ ش حيث كنّا نوجّه اللوم إلى الذين كانوا يعاصرون الأحداث التي وقعت في العقد الممتد بين ١٣٢٠-١٣٣٠ هـ ش، وكان لومنا لهم لأنهم لم يقدّموا أي عمل، ولم يخطوا أية خطوة لتحطيم النظام الشاهنشاهي الذي كان قد ضعف في تلك الفترة، خصوصاً في السنوات الأولى، وكنّا نصف هؤلاء العلماء بأنهم لا همّة لهم ولا يتحلّون بالتفكير الصحيح.. لكونهم لم يتحرّكوا لاغتنام الفرصة الذهبية... إن الحوزة ليست كما هو مطلوب، أو على الأقل أن المتوقّع منها ليس حاصلاً، ولم يحصل لحد الآن... لماذا؟»[1].

ويُلاحظ أنّ الذي سمّاه الخامنئي (فاجعة) في الحوزة كان السيّد الشهيد الصدر قد أشار إلى أنّه يمكن تصوّره (كارثة)، إذْ إن سيادة التفسير التجزيئي للقرآن على امتداد ثلاثة عشر قرناً دون التفسير الموضوعي، أو على حسابه، يُعتبر كارثة فعلاً، فيقول (رضي الله عنه):

«لقد سيطر الاتّجاه التجزيئي على الساحة ثلاثة عشر قرناً تقريباً... وكان كلّ مفسّر يبدأ كما كان سلفه، فيفسّر القرآن آية آية، الأمر الذي أعاق الفكر الإسلامي وساعد على اكتساب حالة تشبه الحالة التكراريّة... وكان يكفي أن يجد هذا المفسّر أو ذاك آية هنا تبرّر مذهبه لكي يعلن عنه ويجمع الأنصار والأشياع...»

---

[1] - من خطاب له في ١٥ شعبان ١٤١٢ هـ ترجمة سلسلة في رحاب الولاية رقم ١٠.

وهذا الأمر أدّى إلى ما أسماه السيّد الشهيد «حالة التناثر ونزعة الإتّجاه التجزيئي» التي قادت «إلى ظهور التناقضات المذهبيّة العديدة في الحياة الإسلامية»[١].

وهذا يعني إنّ (انغلاق) المؤسّسة العلمائية على عدم السماح بالتفسير، أو عدم احترام العالم المختص بالتفسير، حسب إشارة الخامنئي وكذلك سيادة التفسير التجزيئي مقابل التفسير الموضوعي على امتداد هذه القرون الطويلة، حسب إشارة أو قول السيد الشهيد ـ كانا من أسباب التخلّف والتحجّر و«الإفلاس» الذي يُفترض برجال هذه المؤسسة الأفذاذ وعلمائها المصلحين المجدّدين أن ينفضوا غبار الزمن الأغبر وينطلقوا في صيحاتهم التجديدية الناقدة هذه لكي لا تتحوّل هذه المؤسسة المحترمة إلى ما يشبه الكنيسة في القرون الوسطى ـ حسب تعبيرات الخميني المعروفة ـ[٢].

صوت واعٍ آخر في الحركة النقدية
الشيعية المعاصرة لسماحة
آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله

وإذا ما تصفّحنا آراء علماء معاصرين آخرين من رواد الحركة الإسلامية أو الفكر الإسلامي، اكتشفنا رؤى جريئة جديدة في نقد المؤسسة الدينية المعاصرة تسعى

---

[1]- المدرسة القرآنية ـ محاضرات السيد الشهيد الصدر ط ٢ بيروت ص ١٢ – ٢٢.

[2]- راجع خطابات الإمام الخميني الكثيرة في هذا السياق وذلك في كتاب (نهضت إمام خميني) وغيره، وراجع كتابنا (مقالات عكس التيار) حول الترف والاستبداد.

للارتفاع بها إلى مستوى ما يُعوّل عليها للقيمومة على الفكر الإسلامي وقيادة التحرك الإسلامي الواعي الجديد.

ويأتي على قمة هؤلاء الناقدين آية الله العظمى السيد فضل الله أحد كبار العلماء المعاصرين، الذي قال في لقاء خاص له مع أحد النقّاد في ١٦ شباط ١٩٩٢ ما نصّه:

«إننا نعتقد أن الحوزة العلمية لا تمثّل الموقع العلمي الذي يوازي حاجات العصر وتحدّياته، لأن المناهج المطروحة في الحوزة بحسب منهجها وحسب خصبها الدراسي لا تزيد عن الفقه والأصول...» [١].

وأضاف:

«.. ومن نقاط الضعف، هو أن المرجعية لا تزال شخصاً وليس مؤسسة في الوقت الذي تطورت فيه أوضاع المرجعية في العالم الإسلامي الشيعي بحيث أصبحت القضايا السياسية تقتحم مسؤولية المرجع.. كما أن التحديات الكبيرة التي يعيشها الواقع الإسلامي صارت تواجه المرجع في مسؤوليته...» [٢].

وفي إشارة ناقدة أخرى يدقّ السيد فضل الله أجراس الخطر المحدق بهذه المؤسسة الدينية العريقة، ويُحذّر من التململ والاهتزاز الذي قد يعصف بها في سياق التحديات المذكورة وعدم قدرة المرجعية على مواكبة المتغيّرات الجديدة فيقول:

«... وهذا.. ما يجعل المرجعية في عزلة عن تطور الأحداث وبعيدة عن مواكبة المتغيّرات في العالم... وهذه المسألة هي من نقاط الضعف الكبيرة التي جعلت الواقع الإسلامي يعيش في واد والمرجعية تعيش في وادٍ آخر... إنّ هناك تململاً، ولكن هذا

---

[1] - المعالم الجديدة للمرجعية الشيعية ـ سليم الحسني ص ٩١.

[2] - نفس المصدر السابق ص ١٢١.

التململ لا يزال جانبياً... ويعني أن هناك إرهاصات يمكن أنْ تنفتح ولو بعد حين على وضع جديد يهزّ هذا الواقع الفكري والشعوري والعملي الذي يطبق على مسألة المرجعية»[1].

ولعلّ أحدث وأجرأ صيحة نقدية تقحمّت هذا المنعطف الصعب، في الفترة الأخيرة، هي المقدمة التي كتبها الأستاذ (سليم الحسني) لكتابه الموسوم بـ «المعالم الجديدة للمرجعية الشيعية» والتي تناول خلالها وبجرأة جديرة بالتقدير بعض نقاط الضعف في هذه المؤسسة العريقة وأشار إلى خطورة الاهتزاز الذي قد تتعرّض له بسبب عزلتها عن الأمة من جهة وفقدانها المبادرة أو الفعل السياسي المؤثّر من جهة أخرى...

كتب الأستاذ سليم الحسني ـ معلّقاً على هذه النقطة، ومنتزعاً رأيه هذا من عبارة موضوعية لآية الله السيد فضل الله قال فيها «إن العالمَ يسبق المرجعية بالتطور...» كتب يقول:

«هذه العبارة المباشرة رغم كونها تبدو قاسية بالنسبة لموقع متقدم في المؤسسة الشيعية (ويقصد سماحة السيد فضل الله) إلاّ أنها تمثل الحقيقة دون ريب، إذْ لم يحدّثنا التأريخ المرجعي في فتراته الطويلة إلاّ عن حالات نادرة كان فيها المرجع مبادراً في فعل سياسي أو اجتماعي مؤثّر، فلقد كانت الحالة المألوفة أن يستجيب المرجع لنداء الواعين من أبناء الأمة فيُصدر عنه موقف مؤيّد، وحين يُرفَض النداء فليس في ذلك خرقٌ للعادة والتقليد...» ويضيف:

---

[1]– نفس المصدر السابق ص ١٢١ و ١٢٤.

«إن الحوزة العلمية في النجف الأشرف والتي تمثّل مركز المرجعية الشيعية في العالم الإسلامي وثقلها الأكبر، كانت حتى الخمسينات من هذا القرن يرفض جوّها العام مجرد التفكير في الشؤون السياسية ويرى فيها خروجاً عن المألوف...»[١].

وفي إشارة ناقدة خجولة أخرى يحاول السيد (سليم الحسني) في مقدمته هذه أن يقترب من بعض الحروف ليضع عليها بعض النقاط دون أن يستفز القداسة التي أُحيطت بها هذه المؤسسة الدينية لأصالتها وتقوى رجالها وورعهم ودفاعهم عن الدين الإسلامي العزيز.

يقول السيد (سليم الحسني) في هذه الإشارة القيّمة:

«من الظواهر البارزة في الوسط الشيعي، أنّ المرجعية الدينية رغم موقعها الشرعي المقدس، إلاّ أنها كانت في معظم الفترات موضع عتب القاعدة الشعبية ـ لاحظ (موضع عتب) ـ ولاسيما في الوسط الحركي.. وقد برزت هذه الظاهرة بشكل ملحوظ منذ الخمسينات من هذا القرن نظراً للتطورات السريعة والخطيرة التي شهدها العالم الإسلامي...» ويُضيف:

«وقد كانت هذه الحركات ويقصد (الحركات الإسلامية) تنظر صوب المرجعية بحثاً عن الموقف المطلوب الذي يناسب طبيعة الظروف المحيطة بالجو الإسلامي، لكنها كانت في الأغلب تصطدم بجزء من التقليدية يكاد يكون معترضاً على أسلوب التحرك، بل إنه في بعض الحالات يكون معترضاً أو رافضاً، مما يشكّل عقبة كبيرة بوجه حركة الدعوة إلى الإسلام، وقد تتضخم هذه العقبة (والقول ما زال لمقدمة الأستاذ سليم الحسني) لتصبح مشكلة أساسية في واقع التحرّك الإسلامي، إذ أنّ

---

[1] – نفس المصدر السابق ص ٥٠ . وينقل العلامة السيد مرتضى العسكري في لقاء مسجّل

الحركة لا يمكن أنْ تتجاوز المرجعية، لأن من جملة أهدافها أن تنقل المرجعية من الجمود إلى الحركة»[1].

أمثلة نقدية خجولة أخرى
للإخوان المسلمين وحزب الدعوة الإسلامية
وشخصيات فكرية أخرى

وبعد هذه الصيحات الجريئة من العلماء المسلمين وفتح مغاليق الباب النقدي الموصد منذ سنين، بدأت تطْلع أصوات من هنا وهناك تحرّك كوامن الحالة النقدية المختزنة في النفوس، يقودها أعضاء وشخصيات بارزة في الحركة الإسلامية المعاصرة، يُشخّصون الخلل ويكشفون الأوراق ويطرحون التوجّهات ويرسمون آفاق التعاطي مع الأمراض التي جرى التكتّم عليها عقوداً من السنين حتى استفحلت وكادت تقضي على الكثير من جهاد وجهود أبناء الحركة الإسلامية الأصيلة...

فلم يعد غريباً أن تعلو أصوات مُخلصة تُطالب الحركة الإسلامية بتقويم أوضاعها ومراجعة ملفّ تَحركها دون خوف أو تردّد ولم يعد نشازاً أن يخرج مفكّر إسلامي أو مثقّف إسلامي هنا أو هناك (يغرّد خارج سربه) ـ كما يقولون ـ وإن كان في (تغريده) ما يثير الآخرين أو يُحرجهم أو يستفزّهم...

فلقد كتب الدكتور عبد الله فهد النفيسي من الكويت مقدمة جريئة لكتاب خاص قيّم ضمّ مجموعة مقالات ناقدة لأساتذة ومفكّرين إسلاميين تناول فيها بعض أمراض الحركة الإسلامية كالحزبية والسريّة وعصمة القيادة والانفصال عن الجماهير

---

[1] - نفس المصدر السابق ص ٤٦.

والاهتمام بالخطاب التعبوي دون الفكري وغير ذلك. ومما قاله في هذه المقدّمة الجديرة بالقراءة، وفي معرض نقده لحركة الإخوان المسلمين مثلاً:

«وحركة الأخوان ورغم مرور ما يربو على الستين عاماً على تأسيسها لا نجد في المكتبة العربية كتاباً واحداً أصدرته الجماعة باسمها... يتناول بالتقويم الموضوعي هذه الفترة الطويلة من الزمن والعمل والتحرك»[1].

أما حزب الدعوة الإسلامية الذي مضى على تأسيسه وتجربته السياسية قرابة الأربعين سنة، فلم يصدر عنه هو الآخر تقويماً موضوعياً لهذه التجربة الثريّة بل لم يصدر عنه حتى توضيحاً علمياً للخلاف أو الانشقاق الذي عصف به نهاية السبعينات وكاد أن يقضي عليه كحركة فاعلة تقود الصراع ضد الاستكبار العالمي عموماً وضد حاكم العراق على وجه الخصوص...

نعم هناك بعض البحوث والدراسات والإشارات المنتشرة في هذه النشرة السرية أو تلك أو هذا الكتيب غير الموقّع أو ذاك المجهول المصدر... ولكن لم يجرأ أحد من أعضاء هذه الحركة على نقدها بشكل موضوعي يتناول الإجابة على العشرات من التساؤلات التي أدى عدم الجواب عليها إلى أنْ يترك الحزب العشرات بل المئات من أعضائه وقياداته وكوادره على امتداد هذه الفترة...

وإذا كان لابد من كلمة منصفة في هذا السياق، فإن القارئ الشيعي الواقعي المسلم لم يرَ سوى كتاب واحد في هذا الصدد صدر عن مؤسسة الجهاد ـ في بيروت ولم يحْمل اسم كاتبه وذلك عام ١٩٨٥م، تناول فيه الكاتب المجهول، بعض المؤاخذات على الحركة الإسلامية في العراق وبالتحديد (الحزب المذكور) وكان بحق كتاباً جريئاً

---

[1]- الحركة الإسلامية / رؤية مستقبلية ـ أوراق في النقد الذاتي. مجموعة مقالات. من المقدمة ص ١٩.

وضع بعض النقاط على بعض الحروف، وتناول وبأسلوب عصري تسجيل هذه المؤاخذات كما رآها الكاتب، ومنها مثلاً:

التأكيد على النخبة مقابل الجماهير. والتأكيد على التثقيف الفكري وإهمال الجانب النفسي والعاطفي.

وكذلك فقدان المنهج التربوي والتأكيد على ذوات الأشخاص.

وشبهة الخطر الشيوعي وعقدة الاستعمار.

وعدم تبني مصالح الجماهير اليومية ومطالبها المعيشية وغير ذلك مما هو جدير بالقراءة والاهتمام والمتابعة.

ولكن الغريب المؤلم أن الكتاب طلع مرّة واحدة وغاب مرّة واحدة مع الأسف الشديد.

ولعل أجرأ ما وجهه الكاتب من نقد للحركة الإسلامية المذكورة هو تأخرها عن مبادرة الجمهور وكيف أنها ظلت تابعة له منقادة إليه وليس كما يجب أنْ تكون، أي في موضع القيادة والمبادرة، فقال:

«... إن الذي يقول إنّ انتفاضة صفر عام ١٩٧٧م كانت ذات طابع عفوي، يُقصد أنها لم «تُطبخ» في معامل التنظيم، ولا قُررت في دائرة المرجعية، ولكنها جاءت هذه المرّة من الجماهير والقواعد وليس من القمم والقيادات... إنّ قاعدة الهرم هي التي تململت هذه المرّة دون علم قمته التي اهتزت نتيجة للتحرّك، فلم تُعطَ الوقت الكافي للتفكير لكي تُنظّر لها وتقودها...»[1]

وهذا هو بالضبط الذي تكرّر في انتفاضة الشعب العراقي الجماهيريّة الأخيرة في آذار ١٩٩١م والتي راحت القيادات السياسية في الخارج تلاحقها بدلاً من أن

[1] - الحركة الإسلامية في العراق/ مؤسسة الجهاد - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥ ص ٧٩.

تقودها أو توجهّها، كما اعترف بذلك العديد من رموز المعارضة العراقية وصحفها آنذاك وأكّدوا أن «شعب العراق. شعب ثائر من دون قيادة وخاصة بعد أن استطاع نظام صدام تصفية قياداته المخلصة وتشريد البقية الباقية منها، ولم تستطع هذه البقية، أو ما يسمّى بمعارضة الخارج أن تجعل من التواصل مع الشعب العراقي داخل العراق همّها الأول ومسؤوليتها الكبرى...»[1]

وأضافت هذه الصحف مندّدة بأداء هذه المعارضة، ورهانها على الحلول القادمة من وراء البحار، وقالت:

«لقد بذلت بعض أطراف المعارضة من الجهود من أجل اللقاء بموظف صغير في وزارة الخارجية في هذه العاصمة الأوربية أو تلك أضعاف الجهود التي بُذلت من أجل التواصل مع الداخل العراقي...»

وهذه هي نفس الإشارة التي ألمح إليها العلامة السيد فضل الله حين قال:

«لعلّ الشعب العراقي في هذه الانتفاضة قد تجاوز قيادته التي كان يختزن بعضاً من بقاياها في داخله،... ونستطيع القول أن الانتفاضة كانت أكبر من تخطيط القيادة، لو كان لها تخطيط، بحيث أن القيادة بدأت تجري وراء الثورة الشعبية لعلها تتكامل معها... وإن الانتفاضة كانت أكبر من كل الذين استفادوا منها أو الذين استغلوها أو الذين أدّعوا أنهم هم الذين حركوها...» وأضاف:

«كانت الانتفاضة تفتقد القيادة المباشرة التي توجّه الثائرين على مستوى قيادة (الرمز) وهو ما نعيشه في الشرق، لأن الشرق لم يدخل عصر المؤسسة بعد، ولا زال

---

[1]- راجع افتتاحية جريد (صوت العراق) الصادرة في ١ تموز ١٩٩٥، وهي صحيفة معروفة من صحف المعارضة العراقية وتصدر في لندن.

يعيش عصر البطل، فلم يكن هناك بطل بمستوى الرمز ليتحرك على أساس أن يقود الجماهير ويلهب مشاعرها ويخطط لها...»

وباختصار شديد ـ والكلام ما زال للسيد فضل الله ـ: **«إن الناس يثورون كما يصلّون... وكل واحد صار يقول أنا قائد الانتفاضة حتى أجمع كل شخص يفكر بأن عليه أن يعطي الانتفاضة شيئاً من ذاتيته بحيث تمكنت الفوضى السياسية والعسكرية التي جاءت أن تتكامل مع الفوضى الموجودة في الداخل وصار عناق الطرفين فوضى في فوضى...»**[1].

وإذا ما عُدنا إلى بدايات الحركة النقدية المعاصرة التي قادت أو تكاد تقود إلى وضع خيوط نظرية متكاملة للحركة الإسلامية، لاكتشفنا أن إخواننا في الحركات الإسلامية غير الشيعية كانوا قد سبقونا في هذا المجال، وأنهم رغم قاسم المحنة المشترك، الذي يواجهونه ونواجهه، كانوا قد أشّروا على نقاط الخلل في الحركة الإسلامية بجرأة تستحق الإكبار، ولعلّهم بدأوا أول ما بدأوا في تأكيد ضرورة النقد الذاتي وأنه عامل ترشيد وتقويم، قبل أن يكون أداة تنديد وتعريض أو ما يُسمّى تسقيطاً وتشهيراً وتجريحاً...

وفي هذا السياق كتب الأستاذ (خالص جلبي) كتاباً مهماً تحت عنوان (ضرورة النقد للحركة الإسلامية) بدأه بالقول:

«لقد آن الأوان للمسلمين اليوم أنْ يعيدوا النظر في التجربة الإسلامية كي يبدأ العقل مسيرته الصحيحة...» معللاً ذلك بالقول:

---

[1]- راجع صحيفة الجهاد ـ ضمن ملحق لانتفاضة شعبان ١٤١٣ هـ في لقاء مع السيد فضل الله في الذكرى السنوية لهذه الانتفاضة.

«لا يمكن اكتشاف الخطأ بدون مراجعة»[1]

وقد تقحّم الأستاذ (خالص جلبي) هذا الطريق رغم وعورته ويقينه «**أن مجرد كلمة النقد الذاتي غير مُرحّب بها في الوسط الإسلامي، فهي حسب تفسير البعض: إما تجريح وتشهير، وهذه ليست أخوّة إسلامية، أو هي إتّهام، وهذا مروق عن الإسلام**»[2]. ولكنه رغم ذلك ولإدراكه حساسية الموضوع ودقّته وأن نقْد الآخرين أسهل من نقد الذات، أكّد ضرورة تقحّم هذه الرحلة الطويلة ولو بخطوة أولى في مسافة الألف ميل، ـ كما يقولون ـ وبدأ كتابه بالقول:

«**من السهل القيام بعملية نقد غيري لأنها كشف للآخرين، ومن أصعب الأمور القيام بعمل نقد ذاتي، لأنها مواجهة للذات... ونحن تعودنا ـ والقول لصاحب الكتاب ـ الفرار من الذات إلى تقديس الذات...**»

ثم راح في كتابه هذا يفصّل ويقول: «**إنّ موقف الاعتراف هو بداية حل المشكلة**» ويؤكّد ذلك بمصاديق مسندة وجميلة في التجربة الإسلامية الأولى ومن الشعار الذي طرحه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب في قوله الشهير في تحريض الناس على النقد والاعتراض:

«لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها». أي إن لم تقولوا الكلمة الناقدة والإشارة الصريحة.

وفي سياق تأكيده على ضرورة النقد أشار (جلبي) أن الذي يراجع ويعترف ويتوقف لا يسمح لديدان الخارج أنْ تنخر كيانه ولا لجرثومة المرض الخبيث التسلل إلى كريّات دمه، واستشهد على ذلك بدراسات المؤرخ البريطاني (ارنولد توينبي)

---

[1] ـ النقد الذاتي ـ ضرورة النقد للحركة الإسلامية ـ خالص جلبي ص ١٤-١٧.

[2] ـ نفس المصدر السابق ص ١٩.

الذي أكّد أن انهيار الحضارات لا يرجع إلى القضاء والقدر بمعناه الجبري ولا إلى القوانين العابثة، ولا إلى فقدان السيطرة على البيئة، ولا إلى الانحطاط في الأساليب الصناعية أو التكنولوجية، ولا إلى العدوان الذي يشنه الخصوم والدخلاء، وإنّما إلى الإنحلال الداخلي، أو ما سماه «الإنتحار الداخلي».

ومن أسباب هذا الانتحار وهذا الإنحلال هو غياب النقد واستشراء ظواهر التسلّق والنفعية والوصولية والتزلّف وذلك بعد سيادة لغة الاستبداد والإرهاب الفكري ومصادرة حرية الرأي وانكماش رقابة الأمة ومصادرة إرادتها وقتل عفويتها وبراءتها...

أما الأستاذ الدكتور حسان حتحوت تلميذ الشهيد حسن البنا وأحد كبار المنظّرين في الحركة الإسلامية فيصل في تحريضه على ضرورة النقد، إلى درجة مبالغ فيها حيث يقول:

«... ولعل الحركات الإسلامية القادرة والمستندة تُحسن صنعاً لو حشدت أو استأجرت ـ لاحظ ـ من يقوم بهذه الدراسات (ويقصد الدراسات النقدية) المجرّدة والمتخصصة، ولو من خارج صفوفها، أو من خارج صفوف أعدائها!»!!

ويضيف:

«إن اتجاه السمع والطاعة يجب أن يتغير فيصبّ من القاعدة إلى القيادة وليس العكس ـ كما هو مألوف ـ وإلاّ إستحالت القاعدة إلى عناصر سلبية تستسهل أن تأتمر، وتُلقي بعبء التفكير وحق التفكير على القيادة وتنفض عنها العناصر الفعّالة المبادِرة..»[1].

---

[1] ـ الحركة الإسلامية / أوراق في النقد الذاتي ص ٦٨.

وينتهي الأستاذ (عدنان سعيد الدين) المراقب العام للأخوان المسلمين في سوريا عام ١٩٧٥ والذي لا يزال في المواقع القيادية في الحركة، إلى الاستنتاج بأن إلغاء النقد أو تقليصه يؤدي إلى كوارث سياسية واجتماعية كبيرة وإنه قتل للمواهب والإبداع، وناهيك عن كونه قتلاً لكرامة الإنسان فيقول:

«الدكتاتورية كارثة على الشعوب، فهي تضيق بالنقد والنصح، وتغتال المواهب وتقضي على الإبداع، وتزرع الرعب حتى يصبح المواطن، خائفاً من ظلّه، لهذا صار الحكم الدكتاتوري عاراً على أصحابه وعلى كرامة الإنسان...».

ويضيف:

«إن الأفكار تتحول عن طريق الإقناع إلى مبادئ، وهنا يمكن القضاء على أي جموح أو جنوح... ويمنع من تحوّل السلطة إلى عصابة تُرهب الناس وتُفزعهم برجالها وصحفها... وبالتالي ـ والكلام للأستاذ (عدنان سعد الدين) ـ ومهما قيل في سلبيات التعددية الحزبية فإنها تهون بجانب ويلات الأنظمة الاستبدادية وطغيان الفرد...»[1].

أما الدكتور محمد عمارة وفي معرض نقده للحركات الإسلامية وكشف ما أسماه مظاهر الخلل فيها، فإنه ندّد بدعاة الرأي الواحد وأنصار الفكرة الواحدة، كما أشاد بالتعددية وضرورتها في كشف العيوب والتأشير على الهفَوات والثغرات... فقال ما نصه:

«إن الكثير من الحركات الإسلامية المعاصرة، ولا نبالغ إذا قلنا أكثريتها إنما تقف من مبدأ «التعددية» سواء في الرؤى الفكرية أو الأوعية التنظيمية والتنظيمات الحركية موقف الرفض العدائي أو الريبة الشديدة أو الشك في شرعيتها، بل ربما تكون هذه التعددية مصدراً للثراء الفكري ودافعاً على تحريك العقل نحو الاجتهاد

---

[1]- نفس المصدر السابق ص ٢٨٦ و ٢٩٧.

والإبداع، ومنبهاً على الأخطاء والانحرافات ومرايا يرى فيها الجميع العيوب والأمراض، فيُسرعون إلى علاجها والخلاص من مضاعفاتها...»[١].

ويضيف الدكتور عمارة في موضع آخر مستنكراً على الحركات الإسلامية تغييب هذه (السنّة الإسلامية الحسنة) ـ على حد تعبيره ـ ، معتبراً ذلك خللاً كبيراً ومن مظاهر الخلل في هذه الحركات، فيقول:

«إن غيبة هذه السنّة الإسلامية الحسنة، عن وعي أغلب الحركات الإسلامية جعلها تتخّذ من التعددية ذلك الموقف المتراوح بين التحريم والعداء، أو بين الرفض والارتياب والنفور...»[٢].

وأخيراً ينتهي الدكتور عمارة إلى قول شديد وتحريض صارخ لمحاسبة المقصرين في الحركات الإسلامية وقياداتها التي درّبت أعضاءها على الانقياد والطاعة وحرّمت عليهم النقد والاعتراض، معتبراً ذلك خطيئة لا تقل إثماً عن خطيئة معصية القيادة وعدم طاعتها فقال:

«إن الكثير من الحركات الإسلامية المعاصرة قد بالغت في ترويض أعضائها على طاعة القيادات ، أكثر مما درّبتهم على محاسبة ونقد وتقويم هذه القيادات، وليس يكفي أنْ يُقال إنها طاعة في غير معصية، ذلك أن الخلل في علاقة الطاعة بالحرية على النحو الذي لا ينمّي في الأعضاء ملكات النقد والفحص وشجاعة الاعتراض، عند توفّر دواعيه، إن هذا النمط في تربية أعضاء هذه الحركات ـ

---

[1]- نفس المصدر السابق ص ٣٣٠.

[2]- نفس المصدر السابق ص ٣٣٥.

والكلام ما زال للدكتور عمارة ـ هو بالقطع معصية من معاصي التربية في هذه الحركات...»[١].

نعم، إن غياب أو تغييب التعددية يعني سيادة (وحدانية الرأي) وهذا يعني أن تدجين الأعضاء على الانقياد يقتل لديهم مَلكة القيادة، وأنّ ترويض الأمة على حالة الإصغاء والتلقّي وتنفيذ الأوامر، يقتل لديها المبادرة والحضور في دائرة الفعل والأداء... وبالتالي، وكما يقول عمارة: «إذا غاب المرشد غاب الرشد» وإذا مات الإمام تمزقت الأمة وانفلّ غزلها وانحلّ عقدها...

(إذا غاب المرشد غاب الرشد)... هذه الكلمات النقدية الساخرة والساخنة، وهذا الغليان النقدي الفائر سوف يحدث بالتأكيد صدمات واهتزازات وتململات، ستفعل فعلها في ساحة التحرّك الإسلامي عاجلاً أم آجلاً...

وإذا ما تمّ استيعاب هذه الاهتزازات وتمّ تطويق مرجلها المعتمل قبل الانفجار، فإنها حالة صحية سوف تضع الحركة الإسلامية على الطريق الصحيح، إذْ ستتكامل عناصر الوعي مع حركة التغيير، وتتناغم عملية تعميق الوعي مع آلية هذا التغيير وفي مسيرة تكاملية منسجمة واعية ونُضج حركيّ مطلوب بعيداً عن الضحالة والتسطيح واتهامات التسقيط والتشهير ودعاوى التجريح والتعريض...

أما التهيّب من مواجهة المرحلة النقدية والإصرار على تنزيه الذات وتقديسها، بدل مراجعتها ونقدها، فإنه لن يولد إلا حالة غيبوبة دائمة لدى الأمّة وانكماش مؤسف لدورها الفاعل وبالتالي انحسارها عن المشاركة في الحوار وصناعة قرار...

وإذا أدركنا أن الأمة هي مادة التغيير وهي القاعدة العريضة التي يرتكز عليها هرم القيادة ويستمد منها صلابته وعناده وإصراره وخاصة في مراحل التحدّيات

---

[1] – نفس المصدر السابق ص ٣٤٦.

الكبرى وفي ساعات المحنة ولحظات الخيارات الصعبة، فإن اهتزاز هذه القاعدة أو تقليص دورها وتغييبها عن الحضور في ميادين التفعيل لحركة الواقع، وبحجة ترويضها على الإلتزام والطاعة، سيؤدي إلى نتائج سلبية جداً تدفع ثمنها القيادة والقاعدة معاً، وتروح ضحيّتها المبادئ ورجالها على حد سواء...

وإذا تمّ تهميش دور الأمة وكُبحت إرادتها عبر ترويضَها على الطاعة العمياء ومصادرة حريتها في النقد والمعارضة، فإن ذلك، أيضاً ستكون له آثار سيئة جداً في تفتيت عفوية الأمة، واقتحاميتها الجسورة ومبادراتها الفاعلة الشجاعة، وبالتالي فلن تَحصد المسيرة إلاّ نتائج معطوبة ومواليد مشوّهين، سيكون كلّ همهم أو جلّه ـ لتبرير انهزاميتهم وهروبهم من ساحات التصدي والمواجهة ـ هو ترديد عبارات وإطلاق شعارات، وعلى غرار ما كتبه أحد رجالات المؤسسة الدينية الشيعية حيث انفعل يوماً وصرخ ممتعضاً:

«وقد بدت المؤسسة الدينية في النجف وغيرها متخشبة جبانة... إلى حد أنها كانت تُجهض كل محاولة ولو بسيطة وسطحية لتحديث بعض الجوانب أو المظاهر في حياة المؤسسة المذكورة...» إلى أن يقول:

«وفي ما يتعلق بعلماء الدين، نلاحظ أنّ كثيراً من العاملين في الحقل الديني منقطعين عن الاتصال اليومي بالجمهور الذي يعملون فيه، وتقتصر صلتهم بالجمهور على بعض المناسبات العامة السنوية.»[1]

إذن فليبق النقد أداة كشف وتصحيح وترشيد، وليبق النقد الذاتي أداة توقّف ومراجعة وتشخيص للأخطاء والأمراض قبل استفحالها. فأعمق أنواع الوعي ـ كما

---

[1]- محمد مهدي شمس الدين / المرجعية آفاق وتطلعات في كتاب (مواقف وتأمّلات في قضايا الفكر والسياسة) الطبعة الثانية ١٩٩٢ م ص ٢١٥.

يقول بعض النقّاد ـ هو (وعي الذات)، وإنّ الحضارات لا تموت بفعل العامل الخارجي، وإنما بفعل الإنحلال الداخلي أو الانتحار الداخلي، على حد تعبير غيرهم، ويبقى العدوّ الصريح خيراً من الصديق المزيّف... وظاهر العتاب خير من باطن الحقد، ومن يُخفي مرضه لا دواء له، و:

إذا ذهـــبَ الـعتابُ فـــليس ودّ ... ولا ودّ إذا ذهب العتــــابُ

والـــضدُّ يـــكشف عيبه الـــضدّ ... وبـــضدّها تتميـــزُ الأشيـــاءُ

ومن يرضى عنه كلّ الناس فإنّه (نصف نذل) لأنّه انحنى للأنذال كما انحنى للشرفاءُ ـ على حد تعبير أحد المفكرين ـ .

وأخيراً وليس آخراً:

إذا رضيت عنّي كــــرام عشيرتي ... فلا زال غضبانـــــاً عليّ لئامها

الفصل الثالث

مصداقان على الاختلاف

في البيت الواحد

المصداق الأول

ذكرى الحسين (ع)
بين التوجيه الفكري والخطاب التعبوي

توطئة

بعد الذي قلناه حول الاختلاف والنقد وضرورتهما من الناحية المفاهميّة، أي النظريّة، دعونا ندخل عالم المصاديق، والممارسات... إذْ من خلال هذا الدخول نكتشف كم نحن قادرين أو مؤهّلين فعلاً لهذه النقلة الحسّاسة أو هذا الاختبار الصعب.

ولعل أفضل مثال لاكتشاف هذه الأهلية وقدرتنا على تجاوز هذا الاختبار هو (ذكرى الحسين عليه السلام) وخاصة بعد أن تدافعت الآراء حول هذه الذكرى، أي حول إحيائها، أو قل بعد أن تقاطعت الاجتهادات وتوزّعت الرؤى بين الخطيب والمثقف من جهة، أو بين المفكر والفقيه من جهة أخرى، أو بين مدارس الفكر ومدارس العاطفة من جهة ثالثة، نعم، لقد أصبحت هذه الذكرى ميداناً خصباً لاختبار سماحة المتحاورين ومدّعياتهم أو حول استيعاب الآخر واحترامه أو تكفيره وتفسيقه...

إذن من ذكرى الحسين هذه ننتقل من المفاهيم إلى المصاديق ومن النظريّة إلى التطبيق. ومن هذه القضية المثيرة للجدل نلج عالمَ المداخلات ونختبر قدراتنا على فهم الاختلاف واستيعاب النقد واحتواء الجدل وفي دراسة سريعة مضغوطة للتأمل في هذه

الذكرى، ومن ثمّ العمل على إصلاح بعض شعائرها، إذا كنّا فعلاً ممن يحقّ له قول كلمة أو الإدلاء برأي في زحمة الحديث حول ما سمّي أو يسمّى (إصلاح الشعائر).

فلنبدأ إذن، مع الفكر والعاطفة في ذكرى الحسين الخالدة هذه وذلك بعد تأكيد الاختلاف طبعاً وإقراره، ووضع الموضوع على طاولة البحث، وقبل إصدار أي حكم لصالح هذه الرؤية أو تلك وإن كنّا سجّلنا (انحيازنا) بالتأكيد من أوّل فقرة أو أول جملة في هذه (المعركة) الأكثر إثارة للجدل داخل (البيت الواحد) و(الأسرة الواحدة)...

من هذا (الانحياز) طبعاً، ومن نقطة الشروع المثيرة للجدل هذه، نقول:

ما دام الكائن الإنساني يختزن الفكر والعاطفة، ويحتوي العقل والقلب، ويهتم بالمحتوى والشكل، وتُحركه العِبرة والعَبرة، وينطوي على الظاهر والباطن، والضمير والهوى، كان لابدّ، عند مخاطبته، أن تُؤخذ هذه الزوجية في آدميته وتركيبته البشرية. فجاء اجتهاد المربّين والمرشدين والموجّهين في كيفية التعامل مع هذا الكائن المعقد عبر طريقتين أو منهجين، أو خطابين: الخطاب الفكري، والخطاب التعبوي، أو قُل عبر سبيلين: تحريك العقل، ومناغاة العاطفة، وهو عين ما اكتشفه الفلاسفة في منهجهم العقلي، أو ما ركّز عليه العرفانيون في تأكيدهم على القلب والوجدان. وهذا كلّه بعد أن أدركنا ضرورة الاختلاف وشخّصنا أدب الحوار وانتهينا إلى ضرورة ترويج أدب الاختلاف وثقافة الاختلاف.

وكلما كان الإنسان أقرب إلى الرشد والنضج العقلي وأكثر تقبّلاً للنقد والرأي الآخر، أو أكثر ميلاً إلى ذلك، كانت لغة الحوار والمحاججة أقرب إلى إقناعه أو تطويعه، وكلما كان عاطفياً بطبعه، شاعرياً بتفاعله مع الأشياء والأحداث أو انفعاله بها، كانت لغة الإثارة والخطاب العاطفي أجدى في احتوائه أو استنهاضه.

ولا يعني هذا ـ بطبيعة الحال ـ أن لا يتداخل البعدان في شخصية الإنسان، كما أننا لا نريد التفكيك المتعسّف بين هذين البعدين، كأن نتحدث عن عقلٍ مجرّد لا

عاطفة فيه ولا روح، أو نتحدث عن مخلوقٍ أو مع مخلوق مجنون بعاطفة فائرة لا كابح لها ولا ضابط.

ولكننا نريد أن نتعامل مع الإنسان السوّي الذي نسعى لتعميق وعيه لا على حساب عاطفته وانفعالاته المقدسة، بل غضبه المقدس، ونتعامل كذلك مع الإنسان الثائر الذي نسعى لتفجير عاطفته المقدسة وحسه المشاعري، لكن لا على حساب عقله ووعيه واتّزانه، وانطلاقاً من فهم ثقافة الاختلاف هذه واستيعاب النقد وتقدير ضرورته.

فالإنسان المفكّر، يتفاعل بطبعه وخلفيته مع الفكرة والحوار الفكري الهادئ، والإنسان العاطفي يتفاعل مع الخطاب التعبوي والإثارة العاطفية، وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن لا يمتلك الإنسان المفكّر حساً عاطفياً معيّناً، كما لا يعني أن لا يمتلك الإنسان العاطفي قسطاً من الفكر أو النضج العقلي. ولكن الموازنة تُفقد حين يتخشّب الإنسان المفكّر، ويتحوّل إلى (جبل) أجرد لأفكار مجرّدة لا عاطفة فيها ولا روح، وكذلك حين ينزلق الإنسان العاطفي إلى حالة طفولية نزقة أو إنفلاتٍ مراهق مهووس...

حديثنا، إذن، مع الإنسان السوّي الذي لا نريد له أن يتضخّم عقله على حساب عاطفته المقدسة، فيتحول إلى خشبة يابسة أو صحراء جرداء، ومع الإنسان المتوازن الذي لا نتمنّى له أن تتضخّم عاطفته على حساب وعيه، فيُستغفل أو «يُستهبل» في مدرسة تسطيح الوعي التي يحرص «تجّارها» و«فجّارها» على إبقاء الإنسان جاهلاً مغفّلاً، ليتسنّى لهم قيادته أو ترويضه، وبالأحرى إمتطاءه أو استحلابه!!

إما الحوار أو القمع

من هذه المنطلقات تأتي مدرسة الحوار وآداب الحوار أو ما يسمى مدرسة الرأي، أو الرأي الآخر، ومن هذه المنطلقات أيضاً تترشح مدارس القمع والإرهاب الفكري والاستبداد السياسي...

فكلّما كان الإنسان أقوى في حجته أو استدلاله، كان أقرب إلى احترام الرأي واحترام أخيه الإنسان، وكلما كان منفعلاً مسطحاً، كان أقرب إلى مدرسة الاستبداد والإرهاب والمراهقة الفكرية...

وحين يأتي المسيح (ﷺ) ليقول «**من ليس علينا فهو معنا**» فيحتوي الإنسانية كلّها بهذه الشمولية السمحاء والتربية العظيمة، يأتي المسطّحون و«**المراهقون الفكريون**» ليقلبوا هذا المفهوم الرائع، فيصبح «**من ليس معنا فهو علينا**» فيبرّرون بذلك كل وسائل القمع والمصادرة واغتيال العقل.

وحين يأتي الإمام علي (ﷺ) ليُربّي قومه على الحوار والمشاركة في صناعة القرار، في قوله الخالد المار الذكر:

«**فلا تكفّوا عن مقالة الحقّ أو مشورة العدل، فإني في نفسي لست بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي إلاّ أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به منّي.**»[1]

تأتي الحالة الفرعونية لتقول ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ و«ما أُريكم إلاّ ما أرى» ويأتي فرعون نفسه ليقول:

---

[1]- نهج البلاغة ٣: ٢٠٠.

﴿ذروني أقتل موسى إني أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد﴾[1].

الموازنة المطلوبة

نعم، العاطفة مطلوبة لتفعيل العقل لا لتسطيحه أو تغليفه، والعقل مطلوب لكبح العاطفة المراهِقة وعقلنتها، لا لقتلها أو اجتثاثها... وهذا يعني أن الإنسان العاقل أو المتعقّل يحتاج في بعض اللحظات إلى عاطفة صادقة تُخرج الفعل من العقل إلى القلب وذلك لتفعيله أو التفاعل معه أو الإنفعال به، وكذلك الإنسان العاطفي يحتاج إلى قسط وافر من العقل لكبح العاطفة إذا خرجت عن دائرتها المعقولة وشطّت في جنون الهوس غير المقبول أو غير المسؤول...

الذي يحصل أحياناً هو أن تتضخّم العاطفة على حساب الفكر، أو يُجمّل الشكل على حساب المحتوى، ويُرتّش الإطار على حساب المضمون، فيجري تفريغ الإنسان فكراً ومضموناً، أو تفريغ فكرته ومعتقده، وجرّهما إلى حالة ساذجة من الكرّ والفرّ والتدافع والتقاطع، وعندها فلا فكرة تنضج، ولا مشروع يتكامل، ولا رؤية ترشُد، ويبقى الحال هوساً وعواطف وازدحام أجوبة واختفاء صواب[2]،وجعجعة بلا طحين ـ كما يقولون ـ

ويجري من ناحية أخرى تضخيم الفكر على حساب العاطفة، فيتحول الإنسان إلى كتلة جليدية لا دفء فيها لإذابة قطرة ماء، ولا شمس حولها لسقاية مخلوق أو إدامة حياة.

---

[1]- غافر: ٢٦.

[2]- على حد مقولة أمير المؤمنين «عليه السلام» «إذا ازدحم الجواب خفي الصواب».

وبالتالي فلا جنون مقدس أو غضب مقدس يَعصف بـ «عقلاء» الأمة الذين يتهمون ثوارها عادةً بالجنون، ويتجاهلون كيف أن المجانين ينوبون عنهم[١] دائماً في لحظات المواجهة الساخنة والمواقف العصيبة، ويجهلون ويتجاهلون كذلك شعار (حب الحسين أجنّني)[٢] الذي فجّر غضب أصحاب سيد الشهداء ثورة وتمرداً وتحدّياً، وكذلك شخصية الإمام علي «عليه السلام» الذي لو لم يكن (ممسوساً في الله) ـ كما قيل فيه، لما كان «عليه السلام» بالمعنى الذي نعرفه به «فارساً في النهار، راهباً في الليل».

هذه باختصار شديد، هي خيوط الموازنة التي أردنا تجليتها في لحظات التدافع بين الفكر والعاطفة، والإطار والمحتوى، والعقل والشعار، من الناحية الذاتية. أما من الناحية الموضوعية فالظرفان الزماني والمكاني هما اللذان يتحكّمان في تقديم الخطاب الفكري على الخطاب التعبوي أو بالعكس.

وهذا يعني أن مرحلة الثورة الثقافية، هي غير مرحلة الثقافة الثورية، وأن زمن الثقافة الاستشهادية، أو ثقافة الاستشهاد، هو غير زمن المباني الفكرية أو المطارحات النظرية، والمحاججات والاستدلالات، وتحدّي الغزو الثقافي.

وبكلمات أخرى، أن خطاب الإمام الحسين «عليه السلام» التعبوي الثائر العظيم «إني لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ برما» وكذلك شعار أحد أصحابه:

إذا لـــم يـــكن من المـــوت بدٌّ ... فمن العـــــار أن تموت جبانـــا

---

[1]- [مجانين ينوبون عن عقلاء الأمة] هو عنوان الغلاف الرئيسي في أحد أعداد مجلة (أحمد جبريل) الفلسطينية (إلى الأمام) إشارة إلى عمليتي (سليمان خاطر) و (أيمن) البطوليتين وجنونهما المقدس في مواجهة العدو الصهيوني.

[2]- مقولة شهيرة لأحد أصحاب الإمام الحسين «ع» من الشباب حين حذّره أحد أزلام المعسكر المضاد متهماً إياه بالجنون على دخوله ميدان المعركة عاري الصدر حاسر الرأس، فكان جوابه الشهير (حب الحسين أجنّني) مدركاً طبعاً أنه مقتول لا محالة وأنه لا جدوى من لبس الدرع أو الطاس.

هو غير خطاب الإمام الحسن «عليه السلام» حين قال:

«ما كان معاوية بأكثر مني بأساً، ولا أشدّ مني شكيمة، ولا أمضى عزيمة ولكنّي أرى غير ما رأيتم، وما أردتُ بما فعلتُ إلاّ حقن الدماء، فارضوا بقضاء الله وسلّموا لأمره، والزموا بيوتكم وأمسكوا»[1]

وهو غير ما أراده رسول الله «صلى الله عليه وآله» في صلح الحديبية والذي وصفه أحد أصحابه وبانفعال غير متوازن ولا مدروس بقوله: «علامَ نُعطي الدنيّة في ديننا؟»!! ولم يفقه عظمة هذا الصلح، إلاّ بعد فتح مكّة حيث اعتذر قائلاً: «أي والله ما كان فتحٌ في الإسلام أعظم من صلح الحديبية»[2].

الظاهرة الحسينية بين الفكر والعاطفة

تُعتبر الظاهرة الحسينية ـ أو ذكرى إحياء سيد الشهداء ـ في مقدمة المظاهر التي يتخلخل فيها التوازن بين الفكر والعاطفة وتتداخل العِبرة مع العَبْرة ، وذلك لما تختزنه الثورة الحسينية من حسٍّ جيّاش في الوجدان الشيعي الشعبي وما تكتنفه من مشاهد «درامية» وبطولية تستفز العاطفة وتُحرّك المشاعر.

فهي من ناحية عَبرة دامية تتحول فيها الدموع دماً، ومن ناحية أخرى عِبرةٌ ودرس عظيم لثوار المبادئ الذين يجسّدون إمكانية انتصار الدم على السيف، ويؤكّدون كيف يكون الإنسان مظلوماً بل شهيداً وينتصر[3]...

---

[1]- بحار الأنوار_ المجلسي ج ٤٤: ٢٩.

[2]- مغازي الواقدي ٢/٦٢٤ والقائل هو الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطّاب.

[3]- إشارة إلى كلمة المهاتما غاندي الشهيرة (تعلمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر)..

ففي أجواء هذا التدافع المقدس بين العِبرة والعَبرة، وبين فيض العاطفة الفائرة وتدفّق الفكر الرصين يتأرجح الإنسان تارة إلى هذه الكفّة وأخرى إلى تلك، ويستمر هكذا حسب ظروف الزمان والمكان، ومتطلبات المرحلة وما يقرّره الأمر الواقع، أو الظرف المنفتح على الواقع.

وهذا يعني أيضاً، أن ظاهرة الوعظ والإرشاد ينبغي أنْ تتراجع أمام ظاهرة التحدّي والثورة في المرحلة الحسينية ـ أي مرحلة الدم والشهادة ـ ولكنّ هذا لا يعني أن تتحول أيام الحسين «ع» أو ذكرى استشهاده إلى عَبَرات متكسرة وزفرات مبحوحة بلا فهم ولا إدراك، أو إلى حوافر خيل وقعقعة سيوف ودق طبول وضرب سلاسل وعزف بوقات ومزامير دون النظر في قيم الحسين ومبادئ الحسين واستيعاب أهداف ثورته ورفضه وإبائه وسبب إصراره على القتال حتى الموت...

وبكلمات أخرى... وإذا كان لابدّ من (قامة وقيمة)[1] فلابد من قيمٍ أيضاً لحفظ الموازنة، ومن هنا تأتي ضرورة حفظ الذكرى بين «القيمة والقامة والقيم» كما قال أحد الكتاب الظرفاء يوماً ووازن بين الذكرى كظاهرة لإثارة العواطف النبيلة، وبين

---

[1]- «القامة» سيف قصير يحمله بعض الشيعة في بعض «مواكب الحسين» تعبيراً عن رفض الظلم والظالمين وتحدّيهم، ولكنه أُسيء استخدامه في السنين المتأخرة حيث صار يستخدم لشج الرؤوس في يوم عاشوراء تعبيراً سلبياً عن هذا الرفض وفي زمان ومكان لا داعي فيه لاستخدام هذا السلاح السياسي وبمثل هذه الطريقة المقرفة حيث يتدفّق الدم على الوجوه والصدور من الرأس المشجوج...

أما «القيمة» فهي أكلة عراقية نجفية معروفة تُقدم للناس في أيام التعازي والمناسبات، كنوع من الإطعام المحبّب المندوب، الذي يتضمن الثواب الكبير والأجر الجزيل، ولكنه أُسيء استخدامه هو الآخر بحيث صار هدفاً بحدّ ذاته لكسب الجمهور واستقطاب المؤيدين وتحشيد الناس لانتزاع موقف سياسي أو قرار سياسي أو رسم خط سياسي ضد هذا الطرف أو ذاك أو ضد هذه الفئة أو تلك.

الثورة كرسالة ومبادئ وطريق مقدّس لإحقاق الحق والانتصار لقيم الدين المضيّع، فلا قيمة لـ «قامة» بدون قيم، ولا قيمة لقيم بدون (قامة)[1]...

ولا نقصد بالقامة هنا «القامة الاستعراضية» أي «التطبير وشج الرؤوس» التي حولتها بعض المواكب الحسينية إلى أعمال رياء واستعراض باهت أمام الناس... وإنما (القامة) باعتبارها عنوان تحدٍ للسلطات الظالمة التي تحاول أن تطمس ذكرى الإمام الحسين فكراً، فتأتي القامة لتحييها عاطفةً وغضباً ورفضاً، وذلك كنوع من أنواع الاحتجاج السلبي، أي نوع من النضال السلبي ـ كما يقول السياسيون ـ على محاولة هذه السلطات طمس معالم هذه الذكرى الخالدة.

جدير ذكره، إنّ فكرة (التطبير) والقامة هذه فيها رؤيتان كما جاء في كتاب (الشعائر الحسينية بين الوعي والخرافة) الأولى تقول: إن أحد عشّاق الحسين «ع» جاء زائراً يوماً المرقد الشريف من بلاد القفقاز، وكان يحمل سيفه معه كسلاح شخصي في ذلك السفر الطويل... ولما استقرّ به المقام عند المرقد المقدّس وراح يستمع يوماً بتأمّل وإمعان إلى تفاصيل المواجهة الدامية وغير المتكافئة بين الحسين «عليه السلام» وخصومه، لم يستطع أن يتمالك نفسه، فأخذ سيفه وراح يضرب رأسه بلا شعور حتّى مات... الأمر الطبيعي أنّ يُشيّع الرجل في جنازة مهيبة باعتباره زائراً وغريباً وعاشقاً و(شهيداً) ـ لا ندري ـ فصارت هذه الحكاية باباً لاجتهاد أحد مسؤولي المواكب لمواساة هذا (الزائر الشهيد) في مصيبته، وكذلك مواساة سيد الشهداء وأصحابه (عليهم السلام) في فاجعتهم الكبرى...

أما الرواية الثانية وهي أضعف سنداً فخلاصتها أنّ مجموعة وليس واحداً هم الذين فقدوا سيطرتهم على مشاعرهم بعد أن سمعوا مأساة أبي عبد الله (عليه السلام) وراحوا

---

[1]- راجع كتابنا (مقالات عكس التيار) وتحديداً مقالة: ذكرى الحسين بين القيمة والقامة والقيم.

يضربون رؤسهم بسيوفهم فماتَ إثنا عشر شخصاً منهم في الحال إذ لم تكن السلطة مستعدّة أو (مهيأة) لإسعافهم في تلك اللحظات، وهكذا راحت (مواكب التطبير) تترى باجتهادات و«مشوق» لا يعبّر بعضها إلاّ عن استعراض لا طائل وراءه فيما يعبّر بعضه الآخر عن مشهد من مشاهد معارك السيوف التي تدافعت خيولها وتناثرت أشلاء فرسانها على رمضاء الطفوف... ـ راجع الكتاب المذكور ـ ص ٨٥-٨٦ وهو من إعداد الأخ السيّد محمود الغريفي وتقديم سماحة السيد كامل الهاشمي.

أما إذا كانت الذكرى حيّة في نفوس الناس، وكانت منابر الحسين عامرة في ذكرى استشهاده بمظاهر العزاء ومحاضرات الفكر والعقيدة، تصبح «القامة» أداة تعبير عاطفية فارغة أو ساذجة لاحتواء الذكرى، وتفريغها من محتواها العقائدي المعبّر، حيث تُضخّم، أي يُضخّم ضجيجها وعجيجها على حساب العقل والوعي، وعلى حساب الدراسة المتأنية للسَيْر على خطى صاحب الذكرى في مبدأيته وقاطعيته وحدّيته وعناده المقدس.

وتكون القضية أخطر حين يكون المشرفون على **(مواكب القامات التطبيرية)** مثلاً ممن لا علاقة لهم بسيد الشهداء إلا أيام عاشوراء، وحين تكون القامات أدوات استعراضية عاطفية للتعبير عن هوى النفس والرياء والعقد النفسية أكثر من كونها أدوات رفض وتحدٍّ للسلطات الظالمة التي تحاول طمس الذكرى فكراً وعاطفةً، وتحاول ذبحها عِبرة وعَبرة.

وهنا يأتي (شجّ الرؤوس) عنوانها الأكثر غوغائية والأكثر إثارة للجدل، وخاصة في زمن التخلف والمكابرة والعناد، وقبال الصحوة الإسلامية وانبثاق المشروع الإسلامي الواعي المعاصر، المواجه لإسلام التطرف والعنف والتكفير.

نعم قد تكون هذه (الاستعراضات) مفيدة وذات جدوى ضد الأنظمة الدكتاتورية الظالمة التي تفرض حصاراً سياسياً وإعلامياً على فكر الحسين وثورة

الحسين ومنبر الحسين، فتبقى القامة عنواناً عاطفيّاً لحفظ الذكرى في النفوس بدل تلاشيها أو نسيانها[1]... ولكن ما فائدة ذلك في بلد يُطلق الحرية كل الحريّة لمواكب العزاء مثلاً، وبلا قيدٍ أو شرط، ويعتبر المنبر الحسيني فيه (أي في هذا البلد) مثابة رئيسية من مثابات التربية الأولى للأمة، ويَعتبر أبناؤه أنّ كل ما لديهم من محرم... وأن سرّ مجدهم وانتصارهم وبقائهم هو في التمسك بفكر الحسين وعقيدة الحسين وثورة الحسين ـ عليه السلام ـ.

وإذا كان الهدف من (مواكب القامات) هو الشدّ العاطفي وإذكاء الحماسة الحسينية لدى العوام ـ كما يقول أنصارها صادقين، ونقول نحن كذلك ـ فيفترض على أقل التقادير ألاّ يشج أصحابها رؤوسهم ويُريقوا دماءهم في الأزقّة والشوارع، بالشكل المعروف، وأن يكون دعاتها ممن يتخلّقون بأخلاق الحسين ومبادئ الحسين وقيم الحسين، وأن يفهموا الثورة هدفاً ورسالةً وتضحية وعطاءً ولا يفهموها فقط استعراضاً وشعاراً وضجيجاً ودماً مُراقاً بلا هدفية أو مبدأيةٍ أو رسالية واضحة.

وبين القيم و«القامة»، تأتي «القيمة» أيضاً بمعنى إطعام الطعام، أي تقديم الطعام للجياع وذوي الفاقة وتخفيف مشكلة الفقر، وتفقّد المعوزين والمحتاجين، وليس بمعنى المتاجرة والرياء وتفريغ الذكرى للضجيج والجلبة والصراخ والتزاحم على إملاء الكروش والبطون وعلى حساب الضمائر والعقول.

---

[1] - نؤكد هنا بأن القامة تعني القامة بحد ذاتها ـ وليست التطبير ـ

أي أن يبقى «الإطعام» محتفظاً بعنوانه المقدس وليس شعاراً لتحشيد الجموع وسوقها بغوغائية واندفاع وهوس لا طائل وراءه ولا هدف... وهذا ما نشاهده مع الأسف الشديد في بعض الأماكن وليس كلها طبعاً. [١]

نعم، إن الذي يصنع الثورة بالتأكيد، هو العاطفة المقدسة الفائرة، أو كما يسميها السيد الشهيد الصدر «ﷺ» (الطاقة الحرارية)، ولكن الذي يصونها ويحفظها من الانحراف والضياع والانكفاء، هو الفهم الواعي، والعاطفة الواعية، والحماس المدروس والاندفاع المخطّط، وإلاّ فإنها تتحول إلى فورة عاطفية، وليس ثورة، وإلى حماسة عابرة تعيش لحظةً حرارية مؤقتة يعود بعدها الثائر إلى أصله ومعدنه، وربما يكون معدنه على ضوء المعادلة المذكورة «قامة وقيمة» فقط وفقط.

وفي أحسن الأحوال يتحول المجلس الحسيني إلى انفجار عاطفي فائر ينتهي مفعوله بعد انتهاء المجلس الحسيني مباشرة، وقد تنتهي جماهيره إلى جموع ساذجة تستسلم بسرعة تحت ضغط الردع الشرس الذي يُتقن إستخدامه الأعداء في دائرتي الردع والردع المضادّ...

بين الموجّه الفكري والخطيب التعبوي

وحين نكون أمام خيارين، لا ثالث لهما، إما الخطاب التعبوي الحماسي، أو الخطاب الفكري العقائدي، وبصرف النظر عن الظروف الموضوعية أو المرحلية، ـ

---

[1] ـ نعم، ما أجمل الإطعام في المسيرة الأربعينية الكربلائية المعروفة في العراق مثلاً حيث يتجه الملايين من عشاق الحسين إلى مدينة سيد الشهداء وهم ضيوف على أبي عبد الله وحيث يستلهمون من أبيّ الضيم معاني الإيثار والتضحية والعطاء.

أؤكد بصرف النظر عن الظروف الموضوعية أو المرحلية ـ فإننا بحاجة إلى الثاني أكثر من الأول، لأنه أدوم أثراً وأمضى سلاحاً وأعظم موئلاً، والسبب لأنه يبذر بذاره على مهل وبمخطط مدروس وبروّية وتأنٍ وتأمل من أجل إعداد أرضية المشروع التغييري الشامل، فيما تأتي «عبوة» الخطاب التعبوي مناشدة عاطفية فائرة، أو تحريضاً ثورياً حاراً، أو إثارة سريعة عابرة وأشبه ما تكون بثورة عاطفية أو ومضة تنطفئ بسرعة كما اشتعلت بسرعة.

وبكلمات أخرى، إننا في مراحل الصراع الفكري، بحاجة إلى موجّهين فكريين أكثر من حاجتنا إلى خطباء تعبويين، وبالأحرى إننا بحاجة إلى الموجّه الفكري أكثر من حاجتنا إلى الخطيب (الروزخون) العاطفي المفوّه ذي الصوت الشجي، لا عشقاً للأول وزهداً في الثاني، لأن أحدهما يكمّل الآخر بالتأكيد، ولكن، بلحاظ إن الموجّه الفكري هو «الحارس الأمين للجبهة الأيديولوجية»[1] التي نحن بأمسّ الحاجة لدعمها في هذه المعركة، أي في مرحلة المعترك الحضاري والعقائدي، وهي غير مرحلة الحرب والثورة التي تحتاج إلى الخطاب التعبوي والخطيب المعبّئ (الروزخون) فعلاً، أكثر من حاجتها إلى المنظّر والمفكّر...

وإذا ذهبنا أكثر من ذلك، وفهمنا فلسفة ربط الدين بالسياسة، ومساعي المدارس الإستكبارية المحمومة في تكريس العكس، أي فصل الدين عن المجتمع والإبقاء على جهل الأمم واستغفال أبنائها عبر التركيز على الخرافات والبدع والمظاهر والشكليات، نكون قد اقتربنا من فهم الأهداف الاستكبارية في تفريغ وعي الأمة وتخدير أبنائها والتمسّك بالقشور على حساب اللبّ، وتضخيم الإطار على حساب المحتوى، وبالتالي تسطيح وعي الأمة وإشغالها أو مشاغلتها بمعارك وهمية

---

[1]– الحركة الإسلامية ـ أوراق في النقد الذاتي / الدكتور عبد الله النفيسي ص ٢٩.

وشعارات وهتافات يأمن في ضجيجها مصاصو دماء الأمة، وناهبو ثرواتها من الملاحقة أو المساءلة أو العقاب.

ولهذا لم يعد غريباً مثلاً أو مستغرباً أنْ تقوم بعض السفارات الغربية بشراء الأكفان (لمواكب التطبير) التي يُقيمها بعض بسطاء الشيعة أيام عاشوراء الحسين، وتقوم بدعم هذا التوجّه وتغطيته إعلامياً لتشويه الإسلام بمظاهر محسوبة على الإسلام.[1]

ولم يَعُد غريباً أيضاً قيام إحدى السفارات بدعم مشروع عزاء ومنبر حسيني، كامل بعد ضمان توجّهات الخطيب الحسيني وتحديد محاضرته بالتركيز على مظلومية الزهراء مثلاً والنيل من الخليفتين الأول والثاني، لا حبّاً في الزهراء ـ سلام الله عليها ـ أو كُرهاً للخليفتين ـ كما يزعم القائمون على أمثال هذه المجالس، أو يتوهمون، وإنما لترويج كلمات حقّ يُراد بها باطل، سعياً محموماً وماكراً لإثارة الفتن الطائفية وإشغال المؤمنين بعضهم ببعض، وعبر التباكي على مظلومية الزهراء «ع» وإذكاء نيران الخلاف بين طائفتين إسلاميتين وعلى مسائل تأرخية تحتاج إلى الاستدلال التأريخي والبحث والتحقيق العلميين أكثر من احتياجها إلى اللعنات والإثارات العاطفية الساذجة التي تُحرّك كوامن النفوس أكثر مما تحرك مراجل العقول.[2]

---

[1]- راجع كتاب (تجارب محمد جواد مغنية) ـ العلامة الشيخ محمد جواد مغنية / الصفحات ٤٤٩-٤٥١.

[2]- راجع تفاصيل هذه القصة وكيفية تدخّل السفارة البريطانية بطهران أيام الصراع بين الدولتين الصفوية والعثمانية، واستغلال مظلومية الزهراء «ع» في إثارة الحس الطائفي بل النعرات الطائفية واستعداء فصيل إسلامي على آخر، في كتاب (طريقة حزب الله في العمل الإسلامي) للشيخ (علي الكوراني) الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ص ١٦٠-١٦١. وكان هدف السفارة البريطانية كما يقول الشيخ الكوراني في الكتاب المذكور: هو «أن يسمع موظفو السفارة العثمانية الذين كان المجلس بجوارهم المساس بالخلفاء عندما يصلّون في ذلك

وعند تداخل الدين والسياسة واشتباك الخطاب الفكري مع الخطاب التعبوي، وتقاطع معاهد الفكر مع مدارس العاطفة، ينبغي أن يأتي التعامل الدقيق لأصحاب القرار في تحديد الأولويات.

وتأتي حساسية المسألة عبر تراكُم عادات ومخلّفات قرون ليس من السهل على المجدّد الثائر تقحّم غمارها والاقتراب من غبارها دون ثمن، وخاصة إذا ابتُنيت على مبانٍ فقهية، وتصدّى لانتزاع جوازها أو استحبابها علماء ومراجع وفقهاء ومن نصوص الدين وأصول العقيدة، وبالأحرى عبر توظيف النص الديني والاستدلال الفقهي، أو تأويله أو تطويع العبارة الفقهية أو الرواية التاريخية لترسيخ هذا الفهم أو إقصاء ذاك وبالعكس...

وإليك ـ عزيزي القارئ ـ إشارة وإشارة فقط إلى أمثال هذه الاجتهادات أو التوظيفات التي تضع المقدّمات وتصوغ النتائج لما يخدم فن التوظيف هذا وبشكل لا يخلو من طرافة طبعاً:

يقول مؤيدو عادة التطبير مثلاً: إنّ مواساة سيد الشهداء حسنة، وهذه (مقدمة كبرى)، وبما أن التطبير هو مواساة لسيد الشهداء، وهذه (مقدمة صغرى)... إذن، التطبير حسن ومرغوب، بل مستحب ومطلوب، وهذه (نتيجة) طبيعية ومنتزعة من تلكما المقدمتين الكبرى والصغرى.

فيما يقول معارضو عادة التطبير ما يلي:

إنّ إيذاء النفس أو إضرار المذهب وتشويه سمعته سيئة، وهذه (مقدمة كبرى).

المسجد فيخبرون بذلك دولتهم ويصبّون النار على الخلاف المذهبي الذي أشعله الأوربيون بين الدولة العثمانية والصفوية حتى وصل الأمر إلى الحرب بينهما».

وبما أن التطبير كذلك أي إيذاء وإضرار ـ ولو في بعض الأحيان ـ وهذه (مقدمة صغرى).

إذن، فالتطبير سيئة، وعملية غير ممدوحة، بل غير محمودة، ومذمومة، وبالتالي فهي بدعة وضرر وإساءة وتشويه وما إلى ذلك...

ولا يختلف سوق مثل هذه المقدمات والنتائج عن ذلك المنطق أو القياس الأرسطي الذي نسوق نموذجاً آخر له، حيث يقول البعض: منع الفرقة بين المسلمين واجب، وهذه (مقدمة كبرى).

وإنّ استخلاف يزيد بن معاوية كان من أجل منع هذه الفرقة، وهذه (مقدمة صغرى).

إذن ما قام به معاوية من استخلاف يزيد كان واجباً مقدساً، وهذه (نتيجة)... ونتيجة عظمى ومقدسة أيضاً، ومن لا يعتقد بها يحلّ عليه ما يحلّ من لعنات أهل الأرض وأهل السماء!!!..

مثل هذه المفارقات أو الاستدلالات البائسة كثيرة ومتشعبة وينبغي التعامل معها بحذر، لأنها أشبه ما تكون بحقول ألغام وأسلاك شائكة لا يدري مقتحمها على أيّ صاعق سيضع قدمه، ولا أي سلكٍ سيخدش ثوبه أو يمزّق جلده...

وتكون المشكلة أكثر تعقيداً إذا خرجت من دائرة الاجتهادات الشخصية إلى دائرة المصالح الشخصية، وبمعنى آخر أن الجهل يمكن قشعه بنور العلم والمعرفة، وأنّ الجاهل بشيء ما يمكن تنويره مع الإصرار والصبر والسعي الحثيث لفتح مغاليق تحجّره وانغلاقه، ولكن المصيبة الكبرى تأتي حين يجتمع الجهل مع المصلحة، أو حين تُبرقع المصالح الشخصية بشعار المصالح العليا، وهذا يعني أن صاحب المصلحة في هذا التوجه أو ذاك لا يمكن تنويره أو محاورته، لأنّه غلّب مصلحته على دينه وغلّب

(الصكوك)[1] على الضمائر. وتمّت الصفقة معه بعد تغييب الله سبحانه وتعالى أو نزعه من ضميره أو وجدانه، واستبداله ـ جل جلاله ـ بآلهة أخرى منها حبّ الدنيا والجاه، أو حب الدعة والاستقرار والشهوات، أو حب النساء، والأثاث والرياش، وما يتبع ذلك من حب الوجاهة والرئاسة وعبادة أوثان الأرض وأصنام البشر، بل عبادة الآلهة والأرباب...[2] التي ما انفك عبّادها يشركون خلالها بالله، وهم يظنون أنهم غير مشركين، بل عبّاد وزهاد!!

وهنا لا ينبغي الإفراط أو التفريط في التعامل مع مثل هذه المسائل العويصة الحسّاسة، فأما الصبر والثبات والإصرار على تنوير العقول ورفع غيوم الجهل رغم الآلام والمعاناة ـ وفي ذلك الأجر والثواب ـ وإما الثورة وأسلوب الردع، وما قد يتبع ذلك من رهان ربما يكون خاسراً، ونتائج مرّة يُفترض أن يضعها المتصدّي للأسلوب الثاني في الحسبان وبلا تأفّف أو خيبة أمل أو زفرات، وإيماناً بقوله تعالى واحتساباً لوجهه الكريم:

﴿وما أكثرُ الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ (يوسف: ١٠٣)

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهُم مُشركون﴾ (يوسف: ١٠٦)

---

[1]- كناية عن الأموال التي تغدقها الدوائر الاستكبارية المعنية لتفريق كلمة المسلمين وتمزيق وحدتهم.

[2]- يُنقل عن (الحلاج) أنه وقف مرّة أمام جمع من الناس وخاطبهم متسائلاً:(ماذا تعبدون؟) فأجابوا : «نعبد رباً». فكرّر عليهم السؤال (ماذا تعبدون؟) فقالوا: «نعبد ربنا وربك» فقال ثالثاً :(ماذا تعبدون؟) فأجابوا :«نعبد ربنا ورب آبائنا الأولين».

وهنا صرخ (الحلاج) هاتفاً: «إن ربكم تحت قدميّ هاتين» وحين أراد بعض الناس قتله على هذا الكفر والمروق والزندقة حوّل قدميه التي أشار إليهما فوجدوا تحتهما ذهباً ودنانير. فقال: هذا هو ربكم الذي تعبدون، فلا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم... تباً لكم ولربّكم الذي تعبدون!!!

﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ (الرعد: ١، غافر: ٥٩)
﴿ولكن أكثرهم للحق كارهون﴾ (الزخرف: ٧٨)
﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ (المائدة: ٤٩)

وبالتالي: ﴿أحَسِبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون. ولقد فتنّا الذين من قبلهم، فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾ (العنكبوت: ١)

تحديد الأولويات: وتبقى هنا، مسألة مهمة جداً وهي: من له الحقّ في تحديد الأولويات؟! ومن يستطيع البتّ في تقديم التوجيه الفكري على الخطاب التعبوي أو بالعكس؟! ثم من يستطيع تفسير الضخّ العاطفي في كونه انحرافاً أو تحريفاً للصراع بقصد تمزيق الفكر واحتوائه؟ أو أنه ضرورة لازمة لمناغاة العواطف وشدّ الجماهير والانطلاق بها نحو الثورة والتحدّي؟!

وحين نقول إن الظرفين الزماني والمكاني هما اللذان يحددان ذلك، نقترب كثيراً من النُضج والرشد، فإذا كانت المرحلة، مرحلة جهاد وحرب ومواجهة ساخنة ضد الأعداء ـ كما أشرنا ـ فالأولوية بالتأكيد للخطاب التعبوي الثائر الذي يتناغم مع دوّي المدافع وقعقعة السيوف!! ويكون هذا الخطاب مطلوباً بل مرغوباً بل واجباً أحياناً لاسيّما إذا كانت هناك مواجهات دامية ضد حاكم ظالم يلاحق أصحاب الفكر الحسيني الأصيل، ويُمارس عمليات تصفية اجتماعية أو سياسية أو دموية بحقهم، ولا يَسمح لهم بطرح مظلوميتهم أو الانتصار لدينهم أو التعبير عن إنتمائهم ومعتقداتهم.

أما إذا كانت المرحلة، مرحلة بناء فكري، ومواجهة حضارية، وتحدّ لغزو فكري مستوردٍ أو وافد، فإننا بحاجة إلى التوجيه الفكري والخطاب الاستدلالي والحوارات والمطارحات والمناظرات الفكرية الهادئة، بعيداً عن ضجيج العواطف وانفعالات المشاعر مهما كانت مقدسة ومصونة... وكذلك إذا كان الحاكم راشداً والحُكم رشيداً، أي أنه يؤمن بحرية الفكر ويفتح صدره ومؤسساته لتلقّي الرأي

والرأي الآخر وبلا قمعٍ أو مصادرة أو إرهاب فكري أو احتكار سياسي أو إعلامي...

ففيما تراجعت المناظرات مؤدّبة، احتراماً للعواطف الصادقة في المرحلة الأولى، يصير ضرورياً أنْ تنسحب العواطف مؤدّبةً هي الأخرى لتتقدمها الأفكار الناضجة والرؤى الرشيدة في المرحلة الثانية... وفي ذلك يتم التفاهم أو التوازن، وتُحفظ دائرة العلاقات الأخوية والدينية في إطار العمل المشترك والأرضية المشتركة وصولاً لأفضل السبل وأكمل الأهداف وأحسن النتائج...

الخيار الأفضل: ولعل أفضل طريقة للتعامل مع (المرحلية) هذه، هو مزاوجة الخطابين وترجيح أحدهما على الآخر، حسب تقدير الأولويات المذكورة، لأنّ الضخّ العاطفي وحده بدون وعي لا ينفع، كما أن الضخّ الفكري وحده بدون انفعال مقدّس لتفعيله لا ينفع هو الآخر، ولعلّ أفضل ما خلّدته مدرسة الإمام الحسين «عليه السلام» هو الجمع بين الفكر والعاطفة وبين العِبرة والعَبرة، وبين الدين والسياسة. وفي ذلك ذكريات وخواطر جميلٌ أنْ نستذكرها أو نستحضرها هنا ومن خلال الردّات الحسينية العبادية السياسية الحماسية أيام زمان:

الردّة الأولى:

نفطنا والگمارك والمواني

تمرنا والضرايب ربح ثاني

هذي فلوسها وين؟ (أي أين)؟

تخلّي بالگلب (أي بالقلب) ونْ (أي أنين)

خبزك يا عراق أكلوه نهيبية (أي سراق وناهبون)

حيدر يا علي وين الوصيّة آه يا ابن الزچية (أي الزكية فاطمة الزهراء)

جرّد صارمك (أي جرد سيفك) حِلّ القضية

وهذه إثارة واضحة وتعريض واضح بالسلطة الغاشمة التي نهبت وسلبت حقوق الناس، واستغاثة صارخة بدم الحسين وسيف علي لإحقاق الحق والاقتصاص من الظالمين.

الردّة الثانية:

عِدْ مَن صارت فلوس الضريبة؟ (أي عند من صارت)

وأموال الشعب صارت نهيبه

أرباح النفط وين؟ واحنا مستفلسين (أي نحن مفلسون)

العاقل يفتهم يا هو لخذاها (أي يفهم من أخذها)

أگصد للنجف وأسمع صداها.

وذلك باعتبار النجف مركز الحوزة العلمية الدينية ومركز الإشعاع الفكري الإسلامي آنذاك... وفي ذلك تنديدٌ بالسلطة الناهبة للثروات مصاصة دماء الشعب، وتحويل الأنظار إلى ملاذ المسلمين وحوزتهم وعلمائهم في النجف الأشرف.

الردّة الثالثة:

الثار... الثار... الثار... يا عرب وجّو النار (أي اشعلوا النار)

خلّوا إسرائيل نذكّرها... حيدرنا شسوه بخيبرها (أي ماذا فعل حيدرة الكرار علي بن أبي طالب باليهود في خيبر)...

الثار... الثار... الثار... يا عرب وجّو النار

وكانت هذه الردّة أيام الحرب... العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٦٧ وفي قمّة الغليان الجماهيري العربي والإسلامي ضد الدولة العبرية.

الردة الرابعة

وقد استثمر السياسيون هذه المناسبات فراحوا يطرحون شعاراتهم أيضاً تحت الغطاء الحسيني، رغم بُعدها وبُعدهم عن أهداف الثورة ومتبنّيات رجالها. إسمع ما جاء في إحدى الردّات الحسينية أيام المد الشيوعي في العراق...

نريد اتحاد فدرالي

ويه الصين الشعبية... والخوةّ سوفيتية

أيزنهور ينهار ... يا سيد الأحرار

والخوةّ سوفيتية

وهذا يعني أنّ السياسيين بمن فيهم الشيوعيون (الذين كانوا ضد الدين والمتديّنين) آنذاك اضطروا إلى الاحتماء بالذكرى وطرح مفاهيمهم السياسية من خلالها، لأنها وحدها القادرة على استقطاب القواعد الشعبية، وتحشيدها في التعبئة السياسية أو الفكرية أو العقائدية...

ولم يفُت (البعثيين) العفالقة أن يدلوا بدلوهم هم أيضاً في استثمار أو توظيف هذه الذكرى وإنْ كانوا أشدّ أعداءها وأكثر المناوئين لها وأغلظهم، بل أشرسهم على من يقوم بإحيائها.

ففيما كانت مواكب أهالي الشامية المعروفة في العراق، تجوب الشوارع مردّدة هاتفةً:

رايات الشامية وياك   والرايـــــــــة حرّة[1]

كلّ الغيارى وياك   والرايـــــــــة حرّة

رايات الشامية وياك   والرايـــــــــة حرّة

كلّ الغيارى وياك   والرايـــــــــة حرّة

---

[1] - أي نحن وإياك نرفع راياتنا الحرة يا أبا الأحرار...

أنـــــوارك علينه　　　　للـخير تـــهدينا

يشهد بفضلك يحسين　　　　حتى الأجـــانب

وكل النشامى وياك　　　　وعزّة الـــواهب

رايات الشامية وياك　　　　والرايـــــة حرّة

رايات الشامية وياك　　　　والرايـــــة حرّة

نقول، فيما كانت هذه الشعارات تدوّي في سماء الشامية وكربلاء، أقحم العفالقة أنفسهم في موكب (سياسي) حشدوه من مرتزقتهم وراحوا يرددون هم أيضاً:

رايات الشامية وياك　　　　والرايـــــة حرّة

وحدة وحرية الأهداف　　　　واشـتـــراكـيـــة

شوف المكاسب كل يوم　　　　كـــلهـــا ثـــورية

نرفع شكُرنا التام　　　　للـــبكر وال صـــدّام

رايات الشامية وياك　　　　والـــرايـــة حـــرّة

وفي ذلك حديث يطول، لا نرى ضرورة لاستحضاره أو الاسترسال معه...

وهنا نستطيع أن نقول، إن كلّ الفرق والفصائل السياسية، بمن فيهم أعداء الفكر الحسيني يستطيعون الاندساس في وسط الأمة الغاضبة في ذكريات إحياء سيد الشهداء، ويستطيعون تحت الشعار الحسيني وغطائه، أن يوجّهوا خطابهم التعبوي، مستغلين بذلك بساطة الأمة وعفويتها وفي قصد واضح لتحريف الثورة وتفريغ محتواها العقائدي الخالد من جهة وتضخيم إطارها الشعبي العاطفي الفائر من جهة أخرى، وإنْ كان على حساب مضامين الثورة ومبادئها والتعريف بأسبابها الحقيقية.

ولتوضيح هذا البعد نُذكّر بالقصة التالية:

في سنة من السنوات وفيما كانت تظاهرة (طويريج)[1] الحاشدة المعروفة تتجه نحو مرقد سيد الشهداء وهي تهتف بالشعار الحسيني المعبّر الرافض المعروف (أبد والله ما ننسى حسيناه... وأبد والله ما ننسى حسيناه) أو الشعار الآخر: (لو قطّعوا أرجلنا واليدين، نأتيك زحفاً سيدي يا حسين).

أقول: خلال هذين الشعارين، حشر رجال المخابرات العراقية والأمن التابعون للنظام أنفسهم وسط المتظاهرين وفي محاولة ماكرة لإلغاء أو تمييع ذينك الشعارَين السياسيين الرافضين الثائرين، وأطلقوا شعاراً آخر يقول: «يعباس جيب الماي لسكينة»، وسُكينة هذه هي بنت الإمام الحسين التي آذاها الظمأ يوم عاشوراء. فانسجم الجمع العاطفي مع الشعار الأخير، وراح يردّده مع العقل الجمعي غافلاً عن الهدف الخبيث الذي دفع رجال السلطة الحاكمة لاستبداله بالشعارَين الأوليَين..

ومثل ذلك الكثير مما يعرفه الشيعة في العراق، ويتذكّرونه بمرارةٍ وألم... وأحياناً بتندّر واستخفاف بأزلام السلطة وهلعهم وخوفهم من الشعارات الثورية التي كانت وما زالت تقضّ مضاجع الظالمين وتؤرّق ليلهم.. وكان آخر ما رفعه العراقيون من شعارات ضد السلطة الظالمة وأدى إلى اصطدام مسلح بين المتظاهرين وأزلام السلطة وسقوط العشرات بين قتيل وجريح هو «يحسين إنهض لينا، خصمك اتعدّه علينا» أي (يا حسين إنهض إلينا، لأن خصمك اعتدى علينا) وقد رُفع هذا الشعار في أربعينية سيد الشهداء عام ١٤١٨ هـ وتناقلته وسائل إعلام المعارضة العراقية آنذاك.

وتأسيساً على ذلك، ومن هذه المنطلقات والمباني، تأتي مدرسة المنبر الحسيني الخالدة، التي تفتح مغاليق القلب بذكر سيد الشهداء، وتختتم بالتعريج على الفاجعة

---

[1]- وهي مظاهرة عبادية سياسية حماسية يقوم بها أبناء العراق منطلقين من مدينة طويريج القريبة من كربلاء (مقام سيد الشهداء)، وهم يركضون مهرولين نحو المرقد المطهّر للإمام الحسين (ع) يرفعون شعارات الثورة والقيم، وأحياناً يدعون إلى الانتقام من أعداء الأمة وأعداء الدين من الحكّام الظلمة والطواغيت.

(فاجعة كربلاء) لاستنهاض الحسّ العاطفي الطاهر وإثارة العواطف النبيلة ضد الظلم والظالمين...

وبين هذه المقدمة وهذا الختام، تأتي التربية الرسالية، عبر محاضرة هادفة أو عِبْرة بليغة يجتمع فيها العقل والقلب، ويلتقي في ثناياها الفكر والعاطفة، وينسجم الدين مع السياسة والسياسة مع الدين، وفي نسيج عزائي، طافح، ووئام أرضي سماوي عظيم، أساسه تعميق الوعي من جهة، واستنفار العواطف الصادقة من جهة أخرى، وبعيداً عن المظاهر الفارغة والبدع الاستعراضية وما دخل أو أُدخل على الشعائر الحسينية من خرافات وأعمال مستحدثة ما أنزل الله بها من سلطان، وما سمعنا بها إلاّ في آخر هذا الزمان...

وهكذا يمكن تفعيل المشروع التغييري في التحرّك الإسلامي وموازنته والإنسجام مع مظاهره وتمظهراته، فلا عاطفة جانحة مجنحة سائبة على حساب الوعي والعقل الرشيد، ولا عقلانية متحجّرة متخشبة جامدة على حساب العواطف الجيّاشة والمشاعر أو الأحاسيس النبيلة الصادقة...

ففي لحظات المواجهة الساخنة يُرفع شعار (حبّ الحسين أجنّني) و(أبد والله ما ننسى حسيناه) و ﴿**ما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان**﴾؟! (النساء: ٧٥)

وفي أيام التحدّي الفكري والثقافي يُطرح شعار: ﴿**تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم**﴾ (آل عمران: ٦٤) و ﴿**إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾ وذلك عبر الإنسجام والتنسيق مع ﴿**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ لأن أولئك هم ﴿**الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب**﴾ (الزمر: ١٨).

أما في أيام الفتن وتشابك الاجتهادات وتقاطع الرؤى، فإن الحكمة العلوية هي التي تُنير الطريق الشائك والدرب المظلم، وشعارها الخالد المعروف... «**كن في الفتنة كابن اللبون لا ضرعاً فيُحلب ولا ظهراً فيُركب**»!!

وكلما ازداد رشد الأمة، وتعمّق وعي أبنائها، أو كان الاتجاه هكذا، كانت الأمة ألصق بالدليل والمنطق الاستدلالي. وكلما كانت عاطفية فائرة، أو أريد لها أن تكون هكذا، كانت أقرب إلى الإثارات العاطفية، وأطوع إلى محطات سوء الاستخدام الغوغائية ومدارس الهَرج والمَرج. ففي الحالة الأولى تسود المطارحات الفكرية الرصينة والحوار الفكري الهادف، وتتصدر المناظرات والندوات الثقافية والسياسية الهادئة، فيما تستشري في الثانية، البالونات الإعلامية والشعارات والمظاهر الإستعراضية وسوق الارتشاء السياسي...

وهنا يأتي دور القرار السياسي في رسم دائرة التحرك العاطفي أو الفكري ويأتي دور القيادة في ترجيح كفّة الأولوية لهذا الاتجاه أو ذاك، وعلى الأمة الواعية في هذه الحالة أن تنسجم مع قيادتها الواعية أو مرجعيتها الرشيدة، إن كان تعميق الوعي يأتي على حساب بعض ألوان الترف الفكري...

وبكلمات أخرى فإن الذي يُحدد هوية المرحلة إنْ كان باتجاه الثورة الثقافية، أو الثقافة الثورية، إنما هم أصحاب الرأي والرؤية الثاقبة من ذوي التأريخ النظيف والتصدي المسؤول، من المفكّرين والفقهاء الواعين، إذ إن هؤلاء وحدهم هم المخولّون أو القادرون على البتّ والموازنة بين هاتين المدرستين أو الدائرتين، وضمن محدّدات التحكّم الواعية في تشخيص المرحلة وبلورة الموقف والحرص على عدم التفريط بالعاطفة النبيلة لحساب الفكر، أو التفريط بالفكر الرشيد لحساب العاطفة.

ممارسات مرفوضة في الشعائر... تطبير وأقفال وزحف

من أغرب الممارسات التي دخلت أو أدخلت على الشعائر الحسينية هي ظاهرة (التطبير) ولعل أول من تصدى لهذه الظاهرة في العصر الحديث بشكل صريح هو السيد الخامنئي المرشد الأعلى للثورة الإسلامية الإيرانية، وكان مما قاله في هذا السياق ما يلي:

«إني آسف جداً للقول بأنه خلال الثلاث أو أربع سنوات الأخيرة ظهرت على الساحة ممارسات غريبة أعتقد أنّ وراءها جهات مُغرضة...» [١]

وأشار إلى بعض هذه الممارسات، مثل الأقفال التي يعلّقها البعض على أبدانهم و (ضرب القامة) التي اعتبرها نوعاً من المعصية والانحراف ولا علاقة لها بالدين، وقال إنها (بدعة وخطيئة) وكذلك (افتراش الأرض والزحف على البطن أثناء زيارة الأضرحة المقدسة) وغير ذلك، ثم تساءل قائلاً:

«من هو الذي يروّج لهذه الأمور بين الناس؟! إنني أخشى أن يكون هذا من فعل الأعداء!!» ثم قال:

«إن الدين الإسلامي دين منطق ودليل... وهذه أشياء أشبه بالخرافة... وأخشى أن يتهمنا الناس أننا (بالزحف) نسجد للأئمّة، و(بالقامة) نروّج للخرافة...»

واستشهد الخامنئي بآراء ومواقف علماء السلف الصالح من المتنورين وأصحاب الأفكار النيّرة الذين كانوا يتحفظون على مثل هذه الممارسات فقال:

---

[1] – سوف تأتي على تفاصيل خطاب السيد الخامنئي في فصل لاحق من هذا الكتاب باعتبار الرجل عالماً دينياً وفقيهاً من فقهاء المسلمين، ناهيك عن كونه حاكماً ورئيساً معاصراً في دولة مهمة في العالم الإسلامي الكبير.

«هناك بدعة غريبة ابتدعوها مؤخراً في كيفية الزيارات، أنتم تعلمون أن جميع أئمة الهدى «ع» كانوا يزورون المرقد الطاهر للرسول الأكرم (ﷺ) والمراقد المطهّرة لأئمة أهل البيت في المدينة المنورة والعراق وإيران، ولكن هل سمعتم أن أحداً من الأئمة أو من العلماء كان يزحف على صدره من باب الحرم إلى الضريح أثناء الزيارة؟! فلو كان هذا العمل مستحباً أو مستحسناً لقام به علماؤنا الكبار، إلاّ أنهم لم يقوموا بمثل هذه الأعمال. قد نقل عن المرحوم آية الله العظمى البروجردي (رضوان الله عليه) ـ ذلك العالم الورع والمجتهد البارز صاحب الأفكار النيّرة أنه منع حتى تقبيل العتبة عند دخول الحرم المطهّر لأيٍّ من الأئمة...» وأضاف:

«ربما يكون هذا العمل من المستحبّات.. ولكن المرحوم البروجردي منع ذلك لكي لا يتصوّر أو يُصوّر أنه نوع من السجود، يَشهره الأعداء سلاحاً ضدنا لتوجيه الإتهامات إلى الشيعة أو مذهب التشيّع...».

نعم، إنّ العاطفة ضرورية ولا ينبغي التفريط بها، ولكن لا على حساب العقل والمنطق.. «فنحن الشيعة أهل منطق وأهل استدلال منطقي، وأن الكتب الخاصة بالشيعة مليئة بالاستدلالات المنطقية المتينة مثل كتب المرحوم السيد شرف الدين، وكتاب الغدير للمرحوم العلامة الأميني في عصرنا الحاضر وغيرها...»

ولم يَفُت سماحة السيد الخامنئي أن يؤكّد أن أكثر المبتلين بهذه الممارسات، إنّما هم من الناس الطيبين المخلصين المحبّين لأهل البيت، العاشقين للإمام الحسين «عليه السلام» ولكنهم واقعون في خطأ واشتباه، ولا يصحّ لأي منهم أن يزعم أنه يحبّ الإمام الحسين «عليه السلام» أكثر من الإمام الصادق «عليه السلام» الذي لم يُعرف عنه أنه مارس عملية (التطبير) أو غيرها من الممارسات...

ولئن صحّت هذه الممارسة أو أفتى بحليّتها عالم جليل في يوم ما، فإن ذلك يخصّ ذلك الوقت وذلك المكان، وما دام العصر اليوم عصر الإسلام، والعالم اليوم عالم حاكمية الإسلام فإننا يجب أن نُقدّم الإسلام للعالم كنموذج وتجربة، وكذلك كنظام وترجمة عملية ولا يُفترض أن نقدمه مظاهر غير مقبولة، ـ وحتى لو صدق أصحابها أو صدقت نواياهم ـ وبالتالي نسمح لأعدائنا أن يشوّهوا إسلامنا عبر هذه المظاهر، وخاصة بعد انتشار الأقمار الصناعية وأجهزة التصوير المتطورة، وفي مرافعات ظالمة لا يعرف حضورها وشهودها مقدار العشق الذي يكنّه عشاق الحسين لإمامهم، ولا يتصورون أنهم قادرون على استيعاب مثل هذا العشق للقيام بهذه الممارسة أو تلك...

فحين تُعرض أفلام ملونة عن مواكب التطبير في الغرب مثلاً ويُقدّم للمشاهدين مقدّمة تقول (إن المسلمين الشيعة أناس متوحشون وساديّون ويتلذذون بإيذاء أنفسهم إن لم يجدوا من يلحقون به الأذى) يكون الضرر على الدين أكثر منه على النفس وتكون آثار تهمة تشويه الدين أكثر من فوائد أو عوائد هذه الممارسة العاطفية الجانحة، حتى لو رأى صاحبها أنها عشق لسيد الشهداء ومواساة له في مصيبته وقتل أبنائه وأصحابه وأهل بيته...

وإذا قدّرنا أن (التطبير) يلحق الأذى بالنفس أيضاً، وهو أذىً غير مبرر يكون تحريمه أو التحفّظ عليه أكثر إلزاماً من أي وقت مضى، وحين تكون هذه الممارسة وسيلة من وسائل تشويه الدين يستخدمها أعداؤنا سلاحاً ضدنا، تأتي مسؤولية التصدّي لتشذيب الشعائر الحسينية أكثر إلحاحاً أيضاً من أي وقت مضى لاسيما في سياق انتشار ظواهر العنف التي تجتاح العالم الإسلامي.

نعم، قد يكون إذكاء العاطفة الحسينية في نفوس العشاق مطلوبة، وقد تكون القامة (لا التطبير) كظاهرة تحدّي لسلطان جائر مطلوبة، ولكن ما هو تفسير هذا الإذكاء أو هذا التحدّي في بلدٍ يعتقد جميع أبنائه أن كل ما لديهم من ثورة الحسين

ومواقف الحسين وأنّ انتصارهم ما كان ليكون لولا حبهم وولاءهم للحسين وأصحاب الحسين؟!

ما تفسير هذا الإذكاء أو هذا التضخيم للعواطف، وبهذا الشكل المثير للتساؤل حين يأتي على حساب المنبر الحسيني والتوجيه العقلائي الذي تشهده الأمة في طول البلاد وعرضها؟! وأين يكون موضوع التحدّي والحرص على إحياء الذكرى عاطفياً، في دولة فتحت كلّ مؤسساتها ومنابرها ومساجدها وحسينياتها لإحياء الذكرى الحسينية ـ ومنحت وتمنح كافة الإمكانات وبسخاء لا نظير له لتكريس الحسّ الحسيني والعاطفة الحسينية والتحريض على تحليل نهضة الحسين المباركة وأسبابها ونتائجها والدعوة للسير على منهجها ورفد الأمة برافدها المحمدي الأصيل.

وإذا كان بعض العلماء والمراجع الكبار قد سكتوا عن هذه (الشعائر) واعتبروها غصّة في حلقومهم[١] لظروف سياسية قاهرة وخشية أن يحرموا الأمة من العواطف، كما حرمتهم السلطة من الأفكار، الأمر الذي قد يُنسي الذكرى ويُسدِل عليها الستار بتوالي السنين والأعوام، فبماذا يُفسّر السكوت عنها والعالَمَ اليوم عالم أفكار وتحدٍّ حضَاري، وصراع فكري وثقافي وعقائدي، وبكل ما تعني كلمات الصراع والتحدّي من معنى؟

وإذا حقّ لولي أمر المسلمين أن يقول رأياً في ظرف وزمان معينين خلافاً لرأي سابق، وانطلاقاً من مقولة الأحكام الأولية والثانوية ـ كما يقول الذهن الفقهي[٢]،

---

[1]- هذا هو رأي السيد محسن الحكيم (قدّس سرّه) نقلاً عن نجله السيد محمد باقر الحكيم ـ صحيفة كيهان العربي ٥ محرم الحرام ١٤١٥.

[2]- يقول السيد الإمام الخميني في رسالة إلى العلماء في ١٥ رجب ١٤٠٩ هـ: «فالزمان والمكان يعتبران عنصرين أساسيين في الاجتهاد، فالمسالة التي كان لها حكم في السابق قد تأخذ حكماً جديداً في إطار علاقة الحاكم بالسياسة والمجتمع والاقتصاد، وبعبارة أخرى، فإن معرفة دقيقة للعلاقات الاقتصادية

يصبح كل متقوّل آخر، متصيّداً في الماء العكر ـ أو كما سمّاه (الشيخ قراءتي)[1] من شياطين الداخل المتواطئين مع شياطين الخارج... فيجعلون من هذا الرأي الفقهي لعالم عادل (قميص عثمان)، لتمرير مكائد أعداء الدين وإثارة الفتن بين المسلمين، وهو امتداد خائب لمناهج مدارس تسطيح الوعي التي تسعى لفصل الدين عن السياسة، أو تضخيم العاطفة على حساب العقل...

وما دامت المسألة، موضوع أخذ وردّ بين العلماء، فلا يُفترض أن تعطى حكم الثوابت أو حكم الضرورات ولا حتى حكم (الشعائر)، وإنما يقتضي الإنصاف وروح البحث العلمي أن توضع في دائرة الأحكام المتغيّرة وتجري عليها، كما على غيرها، سنّة الأحكام الأولية أو الثانوية في المسائل الفقهية.

شيء آخر عن الفكر والعاطفة

ويبدو من التأمل في موضوع (الفكر والعاطفة) هذا، وما يتبعه من انشطار في هذا المنهج أو ذاك، أنّ هناك مدرستين مدرسة الفكر والدليل والمنطق الاستدلالي، ومدرسة العواطف والمشاعر والشدّ الروحي... الأولى قادها علماء كبار تحفظوا على مثل هذه (الشعائر) وحاولوا تطويقها، ولكنهم لم يفلحوا، وبالأحرى لم يَتسنَ لهم، أمثال الإمام السيد محسن الأمين العاملي صاحب (أعيان الشيعة) والعلامة الجليل

والاجتماعية والسياسية يكون الموضوع الأول ـ الذي لا يختلف ظاهرياً عن الموضوع السابق ـ موضوعاً جديداً يحتاج إلى حكم جديد...».

[1]- أحد أكبر محاضري خطباء المنبر الحسيني المعروفين في إيران، وجاء رأيه هذا في إحدى محاضراته في التلفزيون الإيراني بعد خطاب السيد الخامنئي حول هذا الموضوع...

الشيخ محمد جواد مغنية، والشيخ الحائري الكبير والسيد البروجردي والسيد أبو الحسن الأصفهاني والسيد الشهيد الصدر والشهيد المطهري والإمام الخميني الذي قال عند التطبير (أنه لا صلاح فيه)[1] وكثيرون آخرون ممن لّمحوا أو صرحوا بأن هذه العواطف أو بعضها لا علاقة لها بالدين، وإنها أُدخلت إلى الدين تعسّفاً وحُشرت حشراً. وبعفوية وبراءة وسذاجة أحياناً، وبقصد ومكرٍ وخبثٍ أحياناً أخرى.

وهذا ما أكّده الشيخ الدكتور أحمد الوائلي، رائد المنبر الحسيني المعروف حيث قال في محاضرة حول هذا الموضوع جاء فيها:

«لا تجعلوا الناس يرمون أهداف الثورة الحسينية بالخرافة والتفاهة، إن هذه الخرافات وراءها أيادي أثيمة تلعب دورها» ثم ندّد بمن أسماهم (الـ..) الذين حوّلوا الشعائر الحسينية إلى (مسخرة وتفاهة، وحوّلوا مبادئ الحسين إلى بعير أو ناقة تسير في الهايد بارك بلا خجل...)[2]

أما رأي السيد محسن الأمين، فقد جاء صريحاً، حول هذا الموضوع في كتابه (التنزيه) وهو مطبوع، ونصّه مثبت أيضاً في كتابه المعروف (أعيان الشيعة) وتحديداً في الجزء العاشر منه، إذْ قال فيه ما نصّه:

«ومن جهات الخلل في إقامة العزاء، جرح الرؤوس بالمدي والسيوف، ولبس الأكفان وضرب الطبول والنفخ في البوقات وغير ذلك من الأعمال، وكل هذا محرّم بنص الشرع وحكم العقل، فجرح الرؤوس إيذاء للنفس وهو محرّم عقلاً وشرعاً، ولا

---

[1]- جاءت مقولة الإمام هذه رغم ظروف الحرب والمواجهة الملتهبة التي كانت الجمهورية الإسلامية تعيشها ضد أعدائها.

[2]- راجع نص هذه المحاضرة في ملحق صيحفة (بدر) الصادرة في ١٠ محرم الحرام ١٤١٥ هـ و(الهايد بارك) هذا هو الساحة الرئيسيّة المعروفة في العاصمة البريطانية حيث تستعرض بعض المواكب الحسينية شعائرها هناك.

يترتّب عليه فائدة دينية ولا دنيوية، بل يترتب عليه زيادةً على أنه إيذاء للنفس، الضرر الديني وهو إبراز شيعة أهل البيت بصورة الوحشية والسخرية، كلبس الأكفان وباقي الأعمال، كل ذلك مزرٍ بفاعله وبطائفته ولا يرضاه الله ولا رسوله ولا أهل بيته، فهو من فعل الشيطان وتسويل النفس الأمارة بالسوء، سواء أُسُمّي بالمواكب الحسينية أم بإقامة الشعائر بأي أسم كان..»[١]

وللعلامة الشيخ (محمد جواد مغنية) رأي مقارب لرأي السيد محسن الأمين يقول فيه:

«إن العادات والتقاليد المتّبعة عند العوّام لا يصحّ أن تكون مركزاً للعقيدة، لأن الكثير منها لا يقرّه الدين الذي ينتمون إليه، وحتى لو أيّدها وساندها شيوخ يتّسمون بسمة الدين، ومنها ما يفعله بعض عوام الشيعة في لبنان والعراق وإيران من لبس الأكفان وضرب الرؤوس بالسيوف في اليوم العاشر من المحرم. إن هذه العادة المشينة ـ والكلام للشيخ مغنية ـ بدعة في الدين والمذهب وقد أحدثها لأنفسهم أهل الجهالة دون أن يأخذ بها إمام أو عالم كبير، كما هو الشأن في كل دين ومذهب حين توجد به عادات لا تقرها العقيدة التي ينتسبون إليها ويسكت عنها من يسكت خوف الإهانة والضرر، ولم يجرؤ على مجابهتها ومحاربتها أحد في أيامنا إلاّ القليل من العلماء وفي طليعتهم المرحوم السيد محسن الأمين العاملي الذي ألف رسالة خاصة في تحريم هذه العادة وبدعتها وسمّى الرسالة (رسالة التنزيه)..»[٢].

---

[1] – «أعيان الشيعة» محسن الأمين العاملي، الجزء العاشر ص ٣٦٣.

[2] – عن كتاب ـ تجارب محمد جواد مغنية بقلمه ـ جريدة الصفاء ١١ آذار ١٩٦٥، وسوف تأتي على نص (رسالة التنزيه) هذه في فصل لاحق من هذا الكتاب.

هذا وقد دفع السيد محسن الأمين لهذا الموقف وأمثاله من المواقف ضرائب غالية حتى اتّهم من قبل بعض الغوغاء بالكفر والزندقة بحيث قال فيه شاعرهم قوله المشهور السيّء الصيت:

إذا مـــررت بجلّقٍ فـــــــابصق   بوجــــــه أمينهـــــا المتزنـــدقِ

ويؤكّد الشيخ الشهيد المطهري رفضه هذه العادات أيضاً بقوله:

«إن التطبير والطبل عادات ومراسيم جاءتنا من أرثذوكس القفقاس، وسرت في مجتمعنا كالنار في الهشيم»[1].

ويظهر من أسماء هؤلاء الأعلام وآرائهم أن مدرستهم هي مدرسة الحجة والدليل، والمناقشة العلمية والبحث العلمي، وإن كتبهم ومؤلفاتهم خير دليل على منهجهم وقدرتهم على المناقشة والإقناع...

أما الآخرون، أصحاب مدرسة العواطف والمشاعر. فينقسمون إلى قسمين: قسم يُغلّب العواطف على العقل ويتعامل مع مشاعر العوام أكثر من حجج المنطق والاستدلال المنطقي، فيسوّغ كل ألوان العواطف والتعبير بغضّ النظر عن مشروعيتها وفوائدها ونتائجها، ويُفسّر هذا التسويغ بأن البشر يختلفون بطبائعهم في التعبير عن مشاعرهم، فبعض النساء مثلاً حين يتوفى زوجها تتصرف بتعقل واتّزان ووقار، كأن تبكي عليه مثلاً ولا تَزيد، وتُجهّزه وتدفنه وتلتزم بوصيته وهكذا، فيما تقوم أخرى بتمزيق ثيابها ونفش شعرها ولطم خدّها وضرب رأسها بالباب أو الحائط وهكذا...

ولما كان الناس يختلفون بطبيعتهم في التعبير عن أحزانهم ـ حسب تفسير أصحاب هذه المدرسة ـ فإنّهم يقولون : تترك دائرة الحزن هذه مفتوحة ولا نقيّدها بقيد، لأن العاطفة لا تُكبح وأنّ المشاعر لا تُخنق. أما ردّ أصحاب المدرسة الثانية

---

[1] ـ الجذب والدفع في شخصية الإمام علي ـ الشهيد المطهري ـ الهامش ص ١٦٥.

على هذا التفسير، فله وجهان: الأول أن مشاعر الاتزان ـ حسب درجة الرُشد ـ هي التي يجب أن تسود، وأن العواطف غير المتّزنة يجب أن تُوجّه، إنْ لم نقل تُكبح، هذا، إذا صحّ أن دوافعها نبيلة وأهدافها مقدسة.

أما إذا كانت غطاءً للرياء والأهواء والمصالح المبيّتة ـ كما يفعل بعض (محبّي) الإمام الحسين مثلاً ممن يسهرون حتى الفجر (لضرب القامة) ولا يؤدون صلاة الصبح بنوايا صادقة أم كاذبة، أو ممن يمارسون بعض الموبقات خلال أيام السنة، ويلوذون بشفاعة الحسين أيام عاشوراء ويتوهمون أنه شفيعهم يوم القيامة.

مثل هؤلاء ـ حسب تفسير أصحاب مدرسة الفكر ـ لا يختلفون عن الجهلة من النصارى وأتباع الرهبان ممن يرتكبون الخطايا والذنوب كل أيام الأسبوع ويذهبون يوم الأحد إلى الكنيسة ليغفر لهم ـ الراهب أو القس ـ ذنوبهم أو يستغفر لهم (لا فرق)، ويبيع عليهم (صكوك الغفران) السيئة الصيت، فتتحقّق مصالح الطرفين بهذا الإجراء الخائب البائس أي (الغفران للمذنب والكسب للراهب)!

أما القسم الآخر فهم مسطّحون متحجّرون، لا علاقة لهم بالعقل والأفكار ولا يهمّهم إلاّ مجاراة الغوغاء وتوظيف عواطفهم وتضخيمها حتى لو كلّف الأمر مصادرة الفكر أو إلغائه، أو تغييب الوعي وقتله...

وبالنتيجة فلا فرق بين الصنفين، صنفٌ يبحث عن غفران الذنوب بأسهل الطرق وبلا جهدٍ أو معاناة أو عمل صالحٍ مثمر، وصنفٌ لا يهمّه الوعي أو العقل فيعيش في غيبوبة العواطف وهيام الطبول وقرع السلاسل ولا يصحو من إغفاءته إلاّ بعد مرور أيام من هذا الهيام يعود بعدها إلى سالف أعماله وكأنّ شيئاً لم يكن، اللهمّ إلاّ بعض الذين تهزّهم العواطف هزاً عنيفاً فيعاهدون سيد الشهداء على أن لا يعودوا إلى ماضيهم المشين، وفي ذلك خيرٌ لا يُنكر طبعاً، ولعله السبب الرئيس الذي يدفع بعض الواعين إلى التساهل أو الاسترسال مع هذه العواطف، باعتبارها المدخل الوحيد لتوبة

بعض هؤلاء ومِنْ أجل أن يضعوا أقدامهم على أول خطوة على طريق الهداية أو التوبة أو الإنابة أو درب الصلاح الشائك الطويل...

وتبقى هذه المسألة فورة واستثناء ولا ينبغي أن يُبتنى على هذه الفورة أو هذا الاستثناء، فَهْمٌ أو منهج أو طريق أو مشروع تغيير.

وإذا أضفنا صنفين ثالثين لهذين الصنفين، فهم أولئك الذين لم يحاولوا تقحّم الإدلاء برأي صريح في حرمة أو حلّية هذه المظاهر، خشية الاصطفاف مع إجراءات الحكومات الظالمة التي تحاول طمس معالم النهضة الحسينية فكراً وعاطفة، شكلاً ومضموناً، محتوىً وإطاراً. فقرّروا ترْك المسألة تسير على سجيّتها والإبقاء على الكلّ الظاهري والإطار العام أمام هذه الخيارات الصعبة، ومن باب أهون الشرّين ـ كما يقولون ـ

وقد تجلّت معالم هاتين المدرستين بشكل واضح بعد إصدار السيد الخامنئي توجيهاته بهذا الشأن، فاصطفّ معه كل العلماء المفكّرين وحسب درجات وعي كلّ واحد منهم، فناشده بعضهم بإلغاء المزيد من الخرافات الملحقة بالشعائر، وطالبوه بالمزيد من التصحيح والترشيد في مظاهر المدرسة الإسلامية المعاصرة[١]، فيما طالب آخرون فتح بنك للدم تحت أسم (بنك الدم الحسيني) للفقراء والمعوزين، بدل إراقته في الشوارع وبالشكل الإستعراضي المعروف[٢].

واستبشر كثيرون بهذا التحول في مسألة التطبير وطالبوا بالمزيد من الإجراءات لتنقية الشعائر وتشذيبها أو تهذيبها، ومن بين هؤلاء آية الله العظمى المرحوم الشيخ

---

[1]- العلامة السيد محمد حسين فضل الله في مقابلة تلفزيونية معه أيام عاشوراء ١٤١٥ هـ.

[2]- وهذا الرأي للعلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين وهو من كبار علماء لبنان، وجاء رأيه هذا في محاضرة له في أحد مساجد لبنان، ونقل التلفزيون الإيراني نص هذه الكلمات في برنامجه العربي ظهيرة أحد أيام عاشوراء ١٤١٥ هـ..

الأراكي، والعلامة السيد مرتضى العسكري، والشيخ محمد مهدي الآصفي، والسيد محمود الهاشمي، والسيد محمد باقر الحكيم، والسيد كاظم الحائري، والشيخ المشكيني والشيخ جنّتي وعشرات غيرهم من علماء لبنان والعراق وإيران... ممن بعثوا رسائل وبرقيات واضحة وصريحة حول هذا الموضوع. يدعمون رأي السيد الخامنئي ويؤيدون موقفه للتصدّي لمثل هذه البدع والخرافات. [1]

ولم يتحفظ حول هذا الموضوع إلاّ نزرٌ يسير من عشاق العواطف وممن لا يُشكّ في صدقهم وولائهم وحبّهم لأهل البيت «ع» وإنْ كان الشعار الذي اختاروه للتعبير عن هذا الحب أو هذا الولاء، ابتعد قليلاً أو كثيراً عن شعار المدرسة الأولى ومتبنياتها وخاصة في مواجهة الغزو الفكري والثقافي للإسلام والمسلمين لاسيما بعد بروز الإسلام قوة ثالثة بل ثانية في العالم، أي بعد انهيار المعسكر الشيوعي وانفراد المعسكر الرأسمالي بالهيمنة على مقدّرات العالم تحت عنوان «النظام العالمي الجديد»!..

أما دعاوى البعض في أحقية أي إنسان باتّخاذ أي شعار للتعبير عن عواطفه في شكل العزاء وكيفية إحياء الذكرى ما دام ليس هناك «نص خاص من الشريعة على تحريمه» [2] فهذه مسألة فيها نظر، وإلاّ أُلغيت الأعراف وصودرت آراء الفقهاء والمجتهدين وتحكّمت الأهواء وصار من حقّ أيّ واحد أن يعبّر عن مشاعره بالطريقة التي يهواها حتى ولو كانت خلاف الذوق العام أو العُرف العام [3]، وبالتالي السماح بظهور بدع وخرافات وتعبيرات لا تعبّر إلاّ عن مزاج فاعليها وأذواقهم ومشتهياتهم.

---

[1]- راجع صحيفة كيهان العربي من ١ إلى ١٠ محرم الحرام ١٤١٥ هـ ، تفاصيل هذا الموضوع في فصل لاحق.

[2]- صحيفة (الشهيد) ملحق عاشوراء ٨ محرم الحرام ١٤١٥ هـ

[3]- وهذا ما صرنا نراه في بعض طرق (اللطم) الإستعراضية، وطرق (الإحماء) وعرض المشاعل، والمشق وركوب الأباعر وضرورة تهذيب ظاهرة (النشابية) الفنية الجميلة من قبيل اختيار الممثلين وعدم السماح

وهذا ما بدأ يُلاحَظ على المواكب الحسينية في السنين الأخيرة وما صار يَدخلها من عوامل التزويق والجذب وريش اللقالق وهوادج الجمال المزركشة، وألوان الدمامات والبوقات و«الصرناجات» والسلاسل والمشاعل النفطيّة والزيتيّة وطريقة الأداء فيها والزنجيل (المُحشّى) بالسكاكين، والكلاليب المعلّقة في الجلد، والضرب على الصدور العارية بضروبه وألوانه أمام الفتيات والنساء أحياناً، و(العريس) الذي يؤتى به أمام الجمهور كأنه (العروس)، و(زينب الكبرى) التي تمثّل دورها إحدى (النجمات)! وغير ذلك مما ابتعد كثيراً عن جلال الفاجعة وهيبة الذكرى، وما أُدخل في الدين وهو ليس من الدين...

وهذا لا يعني أننا نريد إلغاء كل هذه الصور والاستعراضات ولكننا نريد حفظها في إطار الذوق العام والمراسم المقبولة التي تحافِظ على خصوصية الإحياء، ولا تجنح بها إلى المغالاة، والعرض المثير، البعيد عن الأذواق والقيم، خاصة ونحن مستهدفون ومرصودون ونعيش حالة تحدٍّ حضاري وثقافي لا يَترك لنا صغيرة أو كبيرة إلاّ ووظّفها ضد ديننا وعقيدتنا ومذهبنا... مذهب أهل البيت ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ

وهذا لا يعني على الإطلاق إلغاء المراسم المقدّسة والشعائر الكريمة التي تعبّر عن الحب والولاء لمذهب أهل البيت ولكنْ ضمن المقبول والمسؤول والمرضيّ من قبل العقلاء والراشدين والعاملين المخلصين ممّن يريدون إحياء الذكرى عِبرة وعَبرة، عاطفة وفكرة، هدفاً ووسيلة...

بإعطاء الدور لمن لا تأريخ لها في تمثيل زينب أو قيام منْ له تأريخ أسود بتمثيل دور سيّد الشهداء، عليه السلام ـ وأمثال ذلك...

وباختصار شديد، وبصرف النظر عن مقاصد ونوايا الطيبين والأبرياء من عشاق ومحبي الإمام الحسين «ع» فإن مدرسة العواطف هذه صار لها منظّرون ومفكرون (وفلاسفة) مقابل مدرسة الوعي، وصار هدف البعض من دعمها أو تأييدها أو ترويج ثقافتها، هو تضخيم الأحاسيس على حساب الأفكار، وتجميل العواطف على حساب الوعي، وترويج الخيال على حساب الواقع، الأمر الذي أدّى، في بعض المقاطع، ويؤدي إلى ضمور الوعي وإنكماش العقل وتراجُع لغة المنطق والدليل، وشيوع «الدروشة» و«الدرباشة» والمجالس «الجنجلوتية» والتكيات غير المسؤولة وحتى السحر والشعوذة ، وتحت شعار (الغيب والعرفان) المقدسين، وهذا هو أقصى ما يتمناه أعداء الدين من أجل تمزيق الصفّ الإسلامي وتفريغ الدين من مضامينه الحقيقية وقصره على العواطف والانفعالات.

وحين شعر هؤلاء، بأن إشغال الأمة بالسفاسف والترّهات ـ عبر مدارس التسطيح هذه ـ لم يعد يكفي للسيطرة على العقول، لأن الوعي أصبح حاكماً والعقول مفتّحة، وحين شعروا أن اصطفافهم ـ عن قصدٍ أو غير قصد ـ مع ما تريد تحقيقه بروتوكولات حكماء صهيون، التي تقول أن الشعوب يمكن قيادتها وترويضها كما يروّض الأطفال، لم تعد تكفي هي الأخرى، راحوا يُضخّمون العواطف وحتّى الغرائز أحياناً وينفخون في كلمات الحق التي أريد بها باطل، بطبيعة الحال لعلهم يصطادون سمكة ميّتة هنا أو تمساحاً تائهاً هناك...

ومثال على هذا النفخ والتضخيم، حُرفت فكرة (الإطعام) المقدسة هي الأخرى ـ كما ذكرنا ـ وسُحبت بعيداً عن الأهداف التي جاءت من أجلها، وصارت وسيلة هابطة لمناغاة البطن والكروش، وتحوّلت إلى هدف بحد ذاته تُجبى له الأموال وتُخصص الميزانيات الضخمة ويؤهّل لها الكوادر والرجال وتتحوّل إلى مشاريع اقتصادية لابتزاز البسطاء والأبرياء من التجار الصادقين وحشدهم في تجمّع أو

تجمّعات لم تَعُد تدعو إلاّ إلى تهيئة الطعام وإعداده ولو على حساب آلاف الجياع ممن لا يجدون قوت يومهم وليس سنتهم... هذا إضافة إلى توظيف هذه الجموع وعِبْر هذه الولائم إلى أهداف سياسية وغايات مذهبية وحزبية ضيقة.

وهنا اجتمعت الكروش مع العواطف في هجمة شرسة ضد العقل، وصارت الجماهير تُحشد على موائد دسمة يتسابق في تفصيلها المعنيون ويَعدّون فيها ما لذّ وطاب، وكلّ ذلك من أجل إلغاء الوعي والانفراد بالتخطيط وإشغال الناس بفقه (المعاد) بعيداً عن فقه (المعاش) ـ كما يقول الكواكبي ـ والتركيز على شعار (**يعباس جيب الماي لسكينة**) المارّ الذكر بدل (**أبد والله ما ننسى حسيناه**) وبالتالي فرض الهيمنة على الثروات والمقدّرات وعبر سياسة الاستغفال أو الاستهبال هذه، وبعيداً عما قلناه أو ما قاله المثل الصيني الشهير: «**أنْ تعلّم أخاك صيد السمك، أفضل من أن تطعمه سمكة كل يوم**»...

وهذا لا يعني إلغاء فكرة الإطعام على الإطلاق، لأنها مندوبة ومحبّبة وسبيل للتلاقي والمودّة وإحياء أمر أهل البيت «ع» ولكن يجب أن يُصار إلى إدراك الجانب الآخر وهو البحث عن مشاريع عمل للعاطلين واستيعاب الطاقات المعطلة ـ وترويج ثقافة العمل وبذل الجهد والمشاركة في الحصول على الاستقلال الاقتصادي وسحب البساط من تحت أقدام مقاولي الدين وتجار الشعارات الذين جعلوا من موائد الإطعام وحشود (الطعام) أماكن لانتزاع قرار سياسي أو تنضيج موقف سياسي لصالح هذا الطرف أو ذاك، وبعيداً عن مصلحة الإسلام العليا، وما يُخطّط له الاستكبار العالمي في دعوته الخبيثة لفصل الدين عن السياسة أو التركيز على الغيْب دون الواقع وعلى عالم (البرزخ وعذاب القبر) دون عالم الناس ودنيا الناس وهموم الناس...

ترى هل سيُدرك المعنيّون أبعاد وجذور هذا المخطّط، وهل سيدركون أن تعليم الإنسان صيد السمك أفضل من إطعامه سمكة أو «دجاجة أو قيمة» كل يوم؟! أم

إنهم سيواصلون حرب الشعارات والطعام تحت عنواني (الشعائر والإطعام)؟! وفي عصر أصبح الإسلام مستهدفاً كدين وعقيدة أولاً، وحدود أحكام ثانيا؟!

هذا هو السؤال الذي تحتاج الإجابة عنه إلى وعي تام بأبعاد المخطط المؤامرة!! ويحتاج استيعابه إلى تأمّل ونضج وتوفيق من الله تعالى، كما يحتاج إحباطه إلى رُشدٍ كامل وهمّة عالية وشجاعة كشجاعة الخامنئي حينما قال:

«كان عليّ أن أتطرّق إلى هذا الموضوع، لأن مسؤوليتي أكثر من الآخرين، وعليكم أن تشيروا إلى هذه الأمور، وإن الإمام الراحل (ﷺ) ويقصد الخميني ذلك الجريء، إنما كان يتصدى بمنتهى القوة ودون أي اعتبارات لكل ثغرة تشمّ منها رائحة الانحراف... وأن هذا الأمر مسؤولية كبيرة يجب أن يتحملها السادة العلماء والخطباء أينما كانوا»!

وهذا هو عين ما أكّد عليه الخميني حين فتح الباب على مصراعيه ودعا إلى مواجهة الخبثين الشرقي والغربي، وعدم حصر الدين في دوائر (الجنابة والحيض والنفاس) وعدم قصره على أمور الطهارة والشكوك وجنس الملائكة وعدد المسامير في سفينة نوح...!!

وهو نفس ما صار يؤكّد عليه دعاة الثورة والتجديد، في عدم استنزاف العقل المسلم في مشاغل ثانوية وربما تافهة وكيف أن الزمن تجاوز أولئك (المرحومين) الذين ألّف أحدهم (رسالة في نوم الملائكة) والآخر الذي ألّف (رسالة في زواج الجن)، و(ما هو عدد الملائكة الذين يمكن أن يقفوا فوق رأس أبرة)[1] وما إلى ذلك من مسائل غريبة بل ترّهات وسفاسف استنزفت العقل المسلم وأشغلته في قضايا ومشاكل وهمية، بعيداً عن مشاكله المصيرية وما يُخطّط له في دوائر الظلام.

---

[1] – راجع مجلة (قضايا إسلامية) العدد الثالث ١٩٩٦ م ص ١٢.

نعم إن المنظومة المعرفية للعقل المسلم يجب أن يُعاد ترتيبها، وأنّ (مكعبات) الخطاب الإسلامي المعاصِر يجب أن يُعاد ترتيبها هي الأخرى، هذا فضلاً عما يجب أن يبذله المخلصون من العلماء والعاملين في زحزحة حالة الركود والسبات في بعض الميادين ويعملوا على تحرير وعي الأمة وإطلاق قدرات أبنائها في إعادة استلهام التأريخ لمواجهة تحديات الحاضر ومواجهة إشكالات المستقبل.

وقبل كل ذلك الانسجام مع رواد المشروع التغييري الواعي المعاصر الذين يحرصون على إغناء التجربة الإسلامية بصيحات المجدّدين وإعادة الخطاب المعتدل إلى العقل المسلم والمجتمع المسلم، والتصدي بحزم إلى الخطاب المتطرف والمنهج المتطرف الذي بات لا يؤمن إلا بلغة القتل والتكفير وإشاعة ثقافة الكراهية، وفي أحسن أحواله، لا يؤمن إلا بالإنتماء الطائفي بل التمييز الطائفي ويؤكّد على الهوية والهوية فقط دون النظر إلى كون الإسلام منهجاً وسلوكاً وليس هوية وانتماء.

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[1].

---

[1]– الكهف: ١١٠ . لاحظ تقديم العمل الصالح حتى على الإيمان نفسه في هذه الآية الكريمة.

المصداق الثاني

المرأة المسلمة
النموذج الأفضل بين الوظيفة والتوظيف

مقدمة استعراضية . تداخل الأدوار

يبقى بحث المرأة ودورها في المجتمع هو الموضوع الأكثر حساسية في عالم النساء، والبحث الأكثر إثارة للجدل منذ بدء الخليقة ولحد الآن، ويبقى هذا الموضوع مثيراً للسجال في الدائرة الواحدة والبيت الواحد مهما تحلّى أهل هذا البيت بالحلم والاستيعاب وسعة الصدر.

ففيما كان بعض الناس يعتبر المرأة (شيطاناً) يجب التحفّظ منه والتعامل معه بحذر، وأنها سبب الخطيئة الأولى وسبب الغواية والانحراف في مسيرة الإنسان، اعتبرها بعضٌ آخر النصف المتمّم للرجل، بل النصف الأهم والأكثر تأثيراً في مسيرة الأمم والشعوب... فجاء شعار الصنف الأول: «**المرأة شرّ كلها وشرّ ما فيها أنه لابدّ منها**» فيما جاء شعار الصنف الثاني: (**المرأة أولاً، وأن وراء كلّ عظيم امرأة**)!!

وبين الرؤية الأولى والثانية امتدت مسافات شاسعة وعبر عهود طويلة توزعت المرأة خلالها على محطات مختلفة خاضت في خضمّها صراعاً مريراً من أجل تحديد الدور وتشخيص الوظيفة .ونيل الحقوق، باعتبارها الكائن الأضعف في دنيا المخلب والناب من جهة، أو باعتبارها الأقوى في عالم الفتنة والغواية والإغراء من جهة أخرى...

من هذه النقاط المتباعدة شقّت المرأة طريقها وما زالت. ومن هذه المحطات جاءت آراء الفلاسفة والمفكرين وعلماء الدين. فبعضهم أراد لها أن ترسو على شاطئ أمين يحفظها من (الذئاب) في (شريعة الغاب) ـ بمقاييس الرؤية الأولى ـ وآخرون أرادوا أن يحفظوا الرجل من مكرها وكيدها ـ بمقاييس الرؤية الثانية ـ . وهكذا استمرت المسألة، سنين طويلة، صراعاً وغلبة، تسابقاً وتنافساً، كراً وفراً، هجوماً وانسحاباً، وبكلمة واحدة تنازُعاً؟ وتدافعاً وصراعاً من أجل الهوية والقيمومة أو القوامة أولاً، ومن أجل التحدّي وإثبات الوجود ثانياً...

ولا نُريد في هذا العرض الموجز، أن نستعرض مسلسل الصراع هذا لتحديد دور المرأة في المجتمع وحريتها ووظيفتها، ولكننا نريد التوقف قليلاً أمام بعض المحطات التي توقفت عندها المرأة عموماً، والشيعية على وجه الخصوص باعتبارها موضوع البحث، ولكن في إطار المسافة الشاسعة المذكورة، وكذلك إطار التحولات الكثيرة التي مرّت على ترسيم بُعدين فقط من أبعاد الاختلاف وهما الدور والوظيفة، واستئنافاً للمسلسل التأريخي حول هذا الموضوع، واستكمالاً للطرح الأكاديمي المعروف، وسعياً جاداً للوصول إلى الأفضل والأنضج والأكمل. وفي موضوع لابدّ فيه من الاختلاف وليس الخلاف إن شاء الله.

ابتداء، لعلّ البعض يستغرب اليوم مثلاً: كيف أن (الفقيه البغدادي) المعروف، الشيخ نعمان بن أبي الثناء الآلوسي ألّف كتاباً عام ١٨٩٧ م تحت عنوان (الإصابة في منع النساء من الكتابة)، الكتاب لا يزال موجوداً في مكتبة الأوقاف ببغداد، ومما جاء فيه:

«فأما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله منه، إذ لا أرى شيئاً أضرّ منه عليهن، فبما أنهنّ مجبولات على المكر والغدر، يصبح حصولهن على هذه الملَكة من أعظم وسائل نشر الفساد.. والمرأة ـ والكلام للفقيه البغدادي طبعاً ـ أول ما تتعلم

الكتابة، فإنها تكتب رسالة إلى زيد، وبيت شعر إلى عمرو، وإشارة إلى آخر، وشيئاً إلى رابع وخامس وهكذا، بحيث تصبح الكتابة لها كمثل شرّير سفيه تهدي إليه سيفاً، أو سكّيراً آثم تعطيه قنينة خمر...»

وينتهي الفقيه (اللبيب جداً) إلى القول: «فاللبيب من الرجال هو الذي يترك زوجته في حالة من الجهل والعمى (لاحظ)، لأن ذلك أفضل لها، وأنه أصلح للنساء وأنفع لهن»[١].

أمام هذا التخلّف المُفجع والتحجّر الأسود، يقف آخر ليداوي الداء بداءٍ أخطر، وفي حالة مفجعة أخرى، لا يرى خلاها، مقابل هذا العمى أو التحجّر إلا تحرير المرأة من كل القيود والأعراف وتحليلها من قيم الدين والمجتمع، والدعوة إلى إطلاق حريتها بشكلٍ سافر وغير مسؤول، فيقول:

أسفري فـالحجـاب يـا ابنة فهرٍ   هـو داءٌ في الاجتمـاع وخيـمُ

كـلّ شيء إلى التجدّد مـاضٍ   فـلماذا يُقرّ هـذا القـديم[٢]

ويقول آخر، وبشكل أكثر صفاقة وتحلّلاً:

وتحرّري مما عليك وحطمي وتحطّمي!

مجنونة من تحجب النـ.. أو هي تحتمي

مجنونةٌ من مرّ عهد شبابها لم تُلـ..[٣]

وكأن المسألة ليست أكثر من سفور وتبرّج وهوس وتحطيم وتحطُّم، ودعوة إلى التحلّل تحت شعار (التحرّر). وهنا لا تبدو المرأة أكثر من متلقّية ساذجة لتمثيل دور

---

[1]- التعليم في العراق، عبد الرزاق الهلالي ص ٥٩.

[2]- الشاعر العراقي ـ جميل صدقي الزهاوي.

[3]- الشاعر اللبناني ـ نزار قباني.

جاهز أعدّه لها تجّار الرذيلة ودهاقنة الهبوط، فلا هي صانعة قرار ولا هي إنسانة في حوار، وليس عليها إلاّ أنْ تستقبل ما يقوله ذلك المتحفّظ (المتحجّر) أو يدعو له هذا (المتحرّر) المتحلّل...

منْ هاتين المحطتين، أو بين هذين المثالين، نكتشف شدة الرياح العاتية التي عصفت بالمرأة ووضعتها بين مطرقة الموروث البائد الذي يستنكف حتى من ذكرها أو ذكر اسمها[1] وبين سندان الأمزجة والأهواء والعواطف الهابطة، بعيداً عن قيم الدين وتعاليم السماء العظيمة السمحاء.

ومن هنا، فإن أفضل سبيل لموازنة هذا التطرّف والوقوف على أرضية متوازنة، لمواجهة هذا الإفراط والتفريط، هو ما جاءت به الأديان عموماً، وفي مقدّمتها الإسلام، حيث وضع المرأة في موضعها الطبيعي، وأقرّ لها دورها في بناء الفرد والمجتمع، متوّجاً، بل متقدّماً على كلّ الدعاوى التي جهدت وجاهدت من أجل أن تأخذ المرأة حقها وتدعو لأنْ تساهم في صناعة الإنسان الذي يُراد له أن يكون خليفة الله على أرضه وبلا حيفٍ أو إجحافٍ أو مزايدةٍ أو ابتزازٍ أو إدّعاء عريض...

جاء الإسلام، إذن ليؤكّد إنسانية المرأة، ويؤكّد آدميتها وأنها نصف المجتمع وجوهرته الثمينة وأن لها ما لأخيها الرجل وعليها ما عليه من حقوق وواجبات...

﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ (الأعراف: ١٨٩).

﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن﴾ (النساء: ٣٢).

---

[1] – إذا كان يقول بعضهم عند ذكرها أو تسميتها في العراق : (تِكرَم) أو (تِحشَم) ترفّعاً واستنكافاً واحتقاراً لها طبعاً...

﴿إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدّقين والمتصدّقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ (الأحزاب: ٣٥).

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ (التوبة: ٧١).

﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً﴾ (الأحزاب: ٥٨).

وأخيرا وليس آخراً...

﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم﴾ (البروج: ١٠).

فلم تعُد المرأة سلعة رخيصة ولا أداة طيّعة أو مطوّعة، ولم تعد وسيلة تلهية أو فريسة مسعور، أو قنيصة قنّاص، ولم تعد ساحرة أو تعويذة أو رقْية، ولم تعد جنيّة أو طلسماً، وأخيراً فإنها بالتأكيد ليست عامل غواية أو إغراء، وبطاقة تاجر أو سمسار رذيلة، أو ماركة رخيصة مسجّلة في دوائر الفن المبتذل في سوق النخاسة والانحطاط والليالي الحمر.

نعم، جاء الإسلام ليؤكّد على لسان النبي الأكرم (ﷺ) أن «المرأة ريحانة وليست قهرمانة» وأن الدين سَخِر أول ما سَخِر من أولئك الجهلة المتخلفين الذين ﴿إذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم﴾[1].

---

[1] - النحل: ٥٨.

بل أكّد نبي الإسلام وبشكل صريح وواضح لا يقبل التأويل والتفسير، متقدماً على كل ما جاءت به الشرائع السماوية الماضية وما أقرّته النُظم الوضعية ودعا له منظّرو حقوق الإنسان في العصر الحديث فقال (ﷺ):

«**إذا سقى الرجل امرأته أُجر**»، وقال (ﷺ) «**إن الرجل ليؤجر إذا رفعَ اللقمة إلى فيّ زوجته**»، أي إلى فم زوجته.

وأضاف (ﷺ): «**إني لأعجبّ ممن يضربُ إمرأته وهو بالضرب أولى منها**»!! وتأكيده (ﷺ) على حقّها في الحنو والرعاية والمودّة:

«**ما أكرمهّن إلاّ كريم وما أهانهنّ إلاّ لئيم**»، «**لا يكن أهلك أشقى الخلق بك**»!«**إنّ أرضاكم عند الله أسبغكم لعياله**».. أي أكرمكم لعياله.

ولكنه لم ينس قوامة الرجل على المرأة باعتباره الأرجح عقلاً في عالم العقل والفكر، كما جعلها الباري تعالى الأعظم عاطفة ودفئاً في موضع العواطف والحب، لهذا السبب أو غيره جعل سبحانه ﴿**الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض**﴾[1] إضافة إلى ذلك ولموازنة أو مقابلة تلك التوصيات الجميلة، أضاف (ﷺ):

«**لو أمرتُ أحداً أن يسجدَ لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها**»!!

وكلّ ذلك طبعاً بعد تثبيت حدود الموازنة الحقّة بين الرجل والمرأة في الحقوق والقوامة، وليس في الوصايا والقيمومة.

أمام هذا السيل العذب من الأحاديث والآيات، لم يكتفِ الإسلام، أو نبي الإسلام (ﷺ) بطرح الشعارات ورفع اللافتات، على طريقة أصحاب الشعارات، ولم يكتف أن يُنظّر فقط على طريقة أصحاب الأطروحات والنظريات، ولم يُحلّق في

---

[1]- النساء: ٣٤. وهذه قاعدة طبعاً ولكنها لا تلغي الاستثناء في كون بعض النساء أرجح عقلاً وأكثر وعياً من كثير من الرجال.

المفاهيم العامة العائمة دون المصاديق الصريحة الواضحة، على طريقة أهل الفلسفة والمُثل وأهل الكلام، وإنما جسّد القول بالفعل والنظرية بالتطبيق، والمفهوم بالمصداق، وقرن بين الشعار والشعور، والرأي بالممارسة، والكلام بالعمل. وفرّق بين الأدعياء والدعاة، وبين الصادقين والمزايدين، فجاءت مصاديقه أروع تجربةٍ، وأقدس ترجمةً، وأكرم مثالٍ في عالم المبادئ والنظريات...

المرأة النموذج . المفهوم والمصداق

وحين يقدّم الإسلام المرأة النموذج والتجسيد الأكمل، ليردم الهوّة بين المفهوم والمصداق، ويُقلّص المسافة بين القول والفعل، والنظرية والتطبيق، تأتي سيرة الزهراء (سلام الله عليها) لتتوّج كل عناوين المرأة الفاضلة وتملأ كل أبعاد النموذج الأروع في عالم النساء ودنيا الناس...

فإذا تحدث متحدث عن جهاد المرأة مثلاً، وقال (إنّ جهاد المرأة، حُسن تبعّلها) على حد قول النبي (ﷺ) تجلّت عظمة الزهراء في موقفها من زوجها (عليه السلام)، ومشاطرته الهموم والشجون والمحن، ومنذ أن بدأت حياتها معه، ولياً ومعارضاً وإماماً ولحين رحيلها (رضوان الله عليها) صابرة مظلومة محتسبة.

وإذا تحدّث متحدث آخر عن زهد المرأة وعظمة هذا البعد في شخصيتها الرسالية، تجلّت الزهراء ـ سلام الله عليها ـ عنواناً متألقاً في السماء وهي ترتدي عباءة (مَخيطة من اثني عشرة مكاناً)[1] وهي بضعة المصطفى وزوجة المرتضى ويمكن أن يكون تحت قدميها أكوام الذهب والفضة، ولكننا رأيناها ـ كما أورد التأريخ.

---

[1]- بحار الأنوار ـ المجلسي ـ ج ٤٣ ص ٧٣.

«أستقت بالقربة حتى أثّرت في صدرها، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها، وكنست البيت حتى اغبرّت ثيابها، وأوقدت النار حتى دكنت ملابسها...»[١]

نعم كانت الزهراء (سلام الله عليها) مثالاً عظيماً للتضحية في سبيل المبادئ وكانت عنواناً لا نظير له في مواساة الجياع والفقراء والمعوزين، وكانت الترجمة الأكثر صدقاً لقوله تعالى ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ بل في بيتها وفيها وفي زوجها نزلت الآية الكريمة ﴿ويُطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً...﴾!!

وإذا تحدث ثالث عن الإيثار وعظمته في بناء المشاعر والقيم الإنسانية، نرى الزهراء (سلام الله عليها) حين طرق بابها جائع فقدمت له طعام الحسنين (فرقدا كأنهما فرخان منتوفان من الجوع) تقول : «كيف أردّ الخير وقد نزل ببابي»[٢] وهي صاحبة القولة الخالدة «يا ولدي، الجار قبل الدار» وغير ذلك مما لا يمكن حصره في هذا العرض الموجز السريع...

أما بيتها، كما هو معروف، فكان كوخاً، وكان مهرها درعاً، وكان فراشها جلد كبش مدبوغ، وحين تعبت من كثرة ضيوفها وجهد الأطفال والعيال فطلبت خادمة، وُهبت تسبيحاً وهو المعروف بـ (تسبيحات الزهراء) المعروفة، حتى مرضت وانهدّت قوّتها ولم تستطع القيام بواجبات البيت فجيء لها بـ (بفضّة) خادمة لها في أخريات أيامها...

---

[1]- بحار الأنوار ج ٤٣ ص ٨٨. الرواية منقولة عن سلمان الفارسي، حيث رأى حالها ـ عليها السلام ـ كذلك وأضاف : ((واحزناه، بنات قيصر في السندس والحرير، وابنة محمد (ص) عليها شملة صوف خلقة قد خيطت من أثني عشر مكاناً))!!!

[2]- نفس المصدر السابق ج ٤٣ ص ٧٣.

وتقول السيرة أيضاً إن النبي (ﷺ) رأى يوماً فاطمة عليها كساء من أجلّة الإبل، وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعت عيناه (ﷺ) وقال: «**يا بنتاه تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة**» فقالت (عليها السلام): «**يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه**» فأنزل الله تعالى ﴿**ولسوف يُعطيك ربك فترضى**﴾!!

ومعروفة القصة المتواترة عن الإمام الرضا (ؑ) عن آبائه عن علي بن الحسين (عليهم السلام) أنه قال: حدّثتني أسماء بنت عميس، قالت: كنت عند فاطمة، إذْ دخل عليها رسول الله (ﷺ) وفي عنقها قلادة من ذهب كان قد اشتراها لها علي بن أبي طالب (ؑ) من فيء له، فقال لها رسول الله (ص): «**يا فاطمة، لا يقول الناس، إن فاطمة بنت محمد تلبس لباس الجبابرة**» فقطعتها في ساعتها وباعتها واشترت بها رقبة وأعتقتها... وفي هذا وغيره قال (ﷺ): «**لله أبوها... فداها أبوها**»! «**إن الله تعالى يرضى لرضا فاطمة ويغضب لغضبها**».

وكل ذلك هو غير ما صرنا نسمعه اليوم عمّن أو ممن يَحْسبن أنفسهنّ على مدرسة الزهراء وهنّ يرفلن بالحرير والذهب ويزعمن أنهن ينتسبن لولاية أهل البيت وعلى خط سيدة النساء (عليها السلام) زوراً وإفكاً..

وهنا تبدأ خيوط الرأي والرأي الآخر، أي هنا تبدأ خيوط الاختلاف وتتشابك، وهنا يبدأ النقد والحوار وتضارب الآراء.

نعم، الكلّ يعلم أن اختيار فاطمة الزهراء للفقر والزهد، لم يكن منّة على أحد أو عوزاً أو نقصاً أو قلّة ما في اليد، لأنها (سلام الله عليها) كان بإمكانها أن تمتلك ما امتلكته بنات كسرى وقيصر، وإنما كان خيارها للفقر خياراً رسالياً أرادت وزوجها

من خلاله طرح القيم الرسالية والاستخفاف بملذات الدنيا وحطامها وتكالب أهلها عليها.[1]

فلم تتحدث (سلام الله عليها) كما يتحدث المتأخرون أو المتأخرات عن الموقعية والجاه و(الشأنية). ولم تحاول أن تفهم أو تفسّر نصّاً دينياً كما تحاول بعض المتأخرات تفسير النصوص أو توظيفها أو تأويلها أو الالتفاف عليها وخاصة ما شابه الآية الكريمة ﴿**قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق!!**﴾ وكيف يوظّفن الاحتماء بهذه الآية لتبرير الزينة والطيّبات ولو في زمن الفقر والفاقة وحاجة المسلمين وشظف عيشهم.

نعم، كانت الزهراء بهذا الصدق، وهذه المواساة، وهذا الزهد وتلك العبادة، قد أصبحت المرأة القدوة، والنموذج الأمثل لنساء المسلمين بل نساء العالمين فصارت بحق المرأة التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها. فبوركت سلام الله عليها سيدةً للنساء وبوركت نموذ جاً للمؤمنات الصادقات، وعظمت زوجةً صالحة، وأمّاً كريمة، ومربّية عظيمة، وقدوة حسنة، ومثالاً طاهراً، وهبةً من السماء لنساء الأرض، بل أهل الأرض...

---

[1]- يروى عن علي (عليه السلام) أنه عوتب يوماً على ثوب خلق كان يرتديه، فقال: (ثوب يخشع به القلب، وتذلّ به النفس، ويقتدي به الفقير)!! وهو (ع) صاحب القول الخالد : «ما جاع فقير إلاّ بما مُتّع به غنيّ، وما رأيت نعمة موفورة إلا وبجانبها حقٌّ مضيّع» أو قوله الآخر: «كاد الفقر أن يكون كفراً»، «لو تمثّل لي الفقر رجلاً لقتلته»... ثم «أأرضى من نفسي أن يقال عنّي أمير المؤمنين ولا أشاركهم (أي الفقراء) مكاره الدهر أو أكون لهم أسوة في جشوبة العيش» وغيرها الكثير الكثير.

الاختلاف حول توصيف النموذج

لعلّ الخيط الأول من خيوط الاختلاف في (البيت الواحد) ـ كما قلنا ـ هو عدم القدرة على توحيد الهدف عند دراسة هذا النموذج الفريد للمرأة النموذج. وحين يتشعب الهدف يبدأ التقاطع والتدافع في تقديم مهم على أهمّ، أو تقديم محور على آخر... ونقول محور على آخر وليس موضوع على آخر... إذ لا بأس بتقديم موضوع على موضوع في سياق الخيارات أو الاختيارات، ولكن (البأس) أن يتضخم محور على حساب آخر بل يتجلّى محور ويُدفن آخر... وبكلمة: يكون الهمّ، أو يوجّه الهمّ إلى بُعدٍ دون آخر، دون أن تكون هناك غاية واضحة لهذا التوجيه المتعمّد أو هذا الدفن المقصود...

ومن موقع النقد والاختلاف وطرح الآراء وإثارة سرّ أو شيء، دعونا ندلف في عمق الموضوع وبانحياز واضح، لتجلية مسألة مهمة في هذا البيت من القصيد، لعلّنا نهتدي إلى السرّ أو بعض السرّ...

وقبل أن نقول شيئاً، نثير سؤالاً، وسؤالاً حساساً، وهو:

لماذا يمرّ العديد من الكتّاب والباحثين وخاصّة قراء المنبر الحسيني على سيرة الزهراء في بعدها المعيشي، أي زهدها، وترفُّعها على حطام الدنيا، مرور الكرام، فيما يتوقفون طويلاً ويستغرقون كثيراً في موضوع آخر، ويحوّلونه إلى محور، بل المحور الرئيسي في كل المحافل والمناسبات والظروف؟

ولا نريد ـ كما قلنا ـ التقليل من شأن هذا المحور، واعتباره نقطة البداية في مسيرة المظلومية التي لحقت بالإسلام وأهله، ولكننا نريد التذكير والتذكير فقط، بأن زهد الزهراء هو الآخر يمكن أن يكون محوراً، ومحوراً مقدساً لاستقطاب وعي الأمة

وتوجيه بنات الإسلام لركنٍ مهم من أركان البناء الاجتماعي والرُشد الأُسري والتربية الرسالية الهادفة...

نعم، لماذا التركيز على محور المظلومية السياسية والاجتماعية فقط، وتجاهل هذا الجانب التربوي الرائد في شخصية هذه المرأة العظيمة، أي بُعد الزهد؟ ولماذا التركيز على محور (الضلع المكسور) رغم مرارتنا وألمنا لما جرّه هذا الكسر ـ إنْ صحّ تأريخياً[1] ـ من جرأةٍ على الله ورسوله وسيرة نبيّه؟ وعدم الالتفات إلى سيرة الزهد وعظمة الإيثار ونبل التضحية وقداسة العطاء في حياة سيدة النساء؟!

ثم لماذا تتحول كل محافل الذكر في شخصية هذه المرأة الخالدة إلى تركيز هذا الجانب المظلم في تأريخ الإسلام، رغم ما فيه من عناصر استنهاض القيم، واستصراخ الذمم في ضرورة محاسبة المقصّرين في أوّل محطة ظالمة من محطات الظلم التي أُلحقت بالإسلام وأهل الإسلام من الكوارث والمصائب والرزايا على امتداد التأريخ؟ ويجري الإهمال أو التغاضي أو تقليل الحديث عن سيرة ذاتية عطرة لامرأة خالدة كتبت بمواقفها أجلّ وأقدس ما تكتبه امرأة عظيمة في سِفْر الإسلام الخالد العظيم؟!

صحيح، أنّ الجرأة صارخة، وأن الجسارة على بنت المصطفى جسيمة وأن التجاوز والتطاول كانا كبيرين على زوجة المرتضى وأم الحسنين، وخاصّة في اقتحام البيت والتجاسر على حرمة من فيه، ولكن هل يعني هذا أن يُفرّغ التأريخ المقدس لهذه المرأة المقدسة لحساب موضوع (الضلع)؟

وهل يصحّ أن يتحوّل هذا الضلع إلى محور، بل المحور الأول، بل المحور الذي لا محور سواه ولا موضوع غيره في بناء الشخصية النسائية؟ وتغييب استحضار التأريخ

---

[1]- لا يخفى على القارئ الكريم أننا هنا لسنا بصدد التحقيق في هذه القضية ومناقشة أصل ثبوتها أو عدمه، لأن ذلك خارج إطار البحث.

والمواقف الخالدة ـ التي مر ذكر بعضها في سيدة النساء ـ لكشف الواقع وتجسيد القدوة ورسم المستقبل؟

لا نريد إثارة المزيد من التساؤلات حول هذا الموضوع، بل نترك الإجابة إلى ما تناولته الكثير من الحكايات المشهورة حول قيام دوائر وجهات أجنبية مسؤولة بالترويج والدعوة لترسيخ المحور المذكور وتوظيفه توظيفاً سياسياً لزرع الفتنة، وإشاعة العداء وثقافة الكراهية في الصفّ المسلم، واستخدامه كما يقال: **(كلمة حق أريد بها باطل)**.!

ولم يكتشف المعنيّون هذا الأمر إلاّ بعد سنين وسنين من الاحتراب والتطاحن والاقتتال والمشاغلة التي أثارتها تلك الدوائر، ومنها السفارة البريطانية في طهران مثلاً، التي كانت تموّل هذا التوجّه، وتدفع به إلى أبعد حالات الكيد الخبيث في زرع الضغائن وتفجير الصراعات وتسعير النيران بين أبناء الدين الواحد والنبي الواحد والقبلة الواحدة... لا بهدف كشف الحقائق طبعاً ومحاكمة المقصرين في التأريخ الإسلامي أو استحضار هذا التأريخ لبلورة الأصح وترسيخ الأفضل، وإنما من أجل زرع الفتنة وإذكاء الصراعات وصبّ الزيت على النار.[١]

ولا نعني بهذه الإثارة بالتأكيد، أننا نريد إلغاء التأريخ أو تحريف السيرة، أو شطب المَشاهد المظلمة بل الظالمة التي كانت سبباً لكل الظُلامات والظلام في آتيات الأيام وغابرات الليالي، بادّعاء الحرص على الوحدة وتناسي الخلافات وعدم التذكير

---

[1]- راجع تفاصيل هذه القصة ـ كما ذكرنا ـ في كتاب (طريقة حزب الله) ـ للشيخ الكوراني ص ١٦١. أو كتابنا: (وقفة وحوار مع الشيخ الكوراني)، وكيف أن هذه السفارة كانت تموّل مجلساً حسينياً خاصاً لم يتحدث فيه المحاضر لأسبوع كامل أو عشرة أيام إلاّ عن (ضلع الزهراء) وذلك في مسجد قرب السفارة التركية أيام الحرب الصفوية ـ العثمانية.

بسرّ الانحراف عن جادّة الإسلام الأصيل، ولكننا نريد أن نقول، بوضوح تام وصراحة تامة:

لماذا يتحوّل هذا الموضوع ـ المهم والمهم جداً ـ إلى محور، بل محور أول، ولا محور غيره أو دونه، فيما يجري، وعن عمدٍ وسبق إصرار، تجاهل موضوع الزهد في سيرة الزهراء (عليها السلام) وعدم تحويله إلى محور مهم آخر يستنهض حماة الدين ورجال العقيدة في تركيز هذه القيمة الرسالية العظيمة في نفوس بنات الرسالة؟ وذلك من أجل تهذيب حالات الترف والميوعة والترهّل، بل التغنّج والدلال، التي عصفت وما زالت تعصف، بالركن الاجتماعي للإسلام، وتُزلزل ثوابت الدين في الزهد والقناعة والإيثار، وخاصة بعد استشراء ظاهرة المهور الغالية مثلاً، وتزلزُل قوامة الرجال على النساء، واهتزاز الكثير من القيم الأصيلة في المجتمعات الإسلامية؟!

وإذا قال قائل: إن المحور الأول هو بداية الظلم وبداية الفواجع التي ألّمت بدار الإسلام وبالتالي لابد من تكريسه وتوضيحه والطَرْق عليه، نقول: إن ذلك صحيح، ولكن الصحيح أيضاً بلا الأصحّ: أن المحور الثاني أو البعد الثاني المهم بل الأهمّ في بناء الأسرة المسلمة وهو الأساس الأول في التربية عبر تجسيد القدوة ورسم المثال وتجلية النموذج...

وإذا قال قائل إن المحور الأول موضع خلاف، فيما الثاني لا خلاف فيه فإننا نؤكد مقولتنا السابقة، نعذر بعضنا بعضاً في ما اختلفنا فيه ونعمل سويّة في ما اتفقنا عليه. هذا أولاً، وثانياً: أن الثاني هو الآخر بحاجة إلى ترسيم أو تكريس، لأنه هو أيضاً موضع اختلاف بل خلاف، فإن لم يكن في المفهوم ففي المصداق، وإن أكثر الاختلافات تأتي حول المصاديق وليس حول المفاهيم ـ كما هو معلوم ـ..

إذنْ هناك سرّ، وليس اختلاف فقط والاختلاف هو في عدم كشف السرّ وليس السرّ في عدم كشف الاختلاف!!

ما هو السرّ إذن؟!

فما هو هذا السرّ، إذن، وما هي خيوطه، وكيف يمكن توضيحه؟

نقول، وباختصار شديد، إنّ سرّ تحاشي الكثير من المعنيين التحرش بهذا البُعد الرسالي لسيدة النساء، وتفريغه لحساب الأول، هو ما يلي:

١) إن الزهراء (سلام الله عليها) قمة شامخة في عالم الزهد والتضحية، لا يجرؤ على الاقتراب من سفحها من هبّ ودبّ من الأدعياء أو الدعيّات، وبالتالي فلا يريد المتحدّث عن سيرتها أن يُحاكم في مواقفها، أو يُرافع حول الفاصلة بين قوله وفعله، وليس بودّه أن يُعرّض نفسه لمحكمة الاستجواب الجماهيرية، وخاصة إذا شخّصت الجماهير سعة الفجوة بين ما يقوله الخطيب أو يكتبه الكاتب وبين ما يفعلانه أو يطبّقانه.

وتأتي المرافعة حساسة ودقيقة إذا جاء حديث المتحدث، أو مقال الكاتب، مادتان استهلاكيتان للعيش على الدين وليس له...

وهذا يعني أنه سيصطدم في مصاديق الكشف عن شخصية هذه المرأة الرسالية بواقعه هو، ومدّعياته هو، لاسيما إذا لم يكن قادراً مثلاً على ترويض عائلته وتربيتها على أسس الزهد التي دفعت الزهراء (ع) أن تتصدّق بعقدها مثلاً لإشباع فقير أو عتق رقبة، أو أنْ تقدم طعامها وطعام أطفالها لجائع وعابر سبيل طَرَقَ بابها وهي تقول «كيف أردّ الخير وقد نزل ببابي؟» وما أشبه... فيتحاشى الخطيب ـ على وجه الخصوص ـ التعرّض لباب الزهد أو باب التضحية هذا، وإذا مرّ عليه فإنه ـ كما قلنا ـ لن يتفاعل معه كمحور، وإنما يمرّ عليه مرور الكرام.

أما إذا كانت زوجته أو بناته ممن يرفلن بالدمقس وبالحرير وبينهنّ الخدم والحشم فإنه بالتأكيد لا يستطيع أن يتحدث عن إمرأة عظيمة ارتدت جبة من أجلّة الإبل (وخيّطت عباءتها من إثني عشر مكاناً) وأنها طحنت حتى مجلت يداها وكنست حتى اغبرّت ثيابها وأنها حملت الماء حتى أثّر في صدرها (صلوات الله وسلامه عليها) لأنهنّ إذا كنّ كذلك أي من (بنات الباشا) فإنه سيصبح عرضة للمسائلة إنْ لم نقل للاستجواب أو النقد أو الاستخفاف.

٢) إن الاستغراق في عالم المظلومية المُحزن المبكي والتركيز على محور (الضلع المكسور) يُبعد عن الاصطدام بواقع الكثيرين من الأغنياء والمترفين الذين لا يستفزّهم هذا الموضوع، أي لا يستفز حساسيتهم، بقدر ما تستفزها سيرة بنت أعظم نبي وأعظم حاكم، وهي مغبّرة الثياب، كادحة عاملة، منهكة من كثرة الطحن والعجن، وحمل الماء إلى الأطفال والضيوف والعيال...

وهذا يعني أن هذا الخطيب الحسيني (حفظه الله) بالتركيز على (دراما) المأساة واستدرار الدموع والندب على الضلع المكسور والاعتداء الصارخ على بنت المصطفى (ص)، يستطيع أن يحصل على قوته وقوت عياله، فيما قد تحرمه الإشارة إلى معالم الزهد في شخصية هذه المرأة العظيمة، من احتمال تعاطف هؤلاء الأغنياء الذين استمرأوا حياة الخدم والحشم والأثاث والرياش ، فلا يروق لهم، بل لا يرغبون أن تُستفزّ حساسيتهم في حياة الدلال والترف والبذخ التي يعيشونها، وبالتالي فحديث الدموع والبكاء والجنين الساقط والضلع المكسور أقرب إلى أذواقهم وأهوائهم وعالمهم، من حديث الزهد والتضحية والبيت الكوخ، والمهر الدرع، والفراش البسيط الذي لم يتعدّ (جلد كبش يضع عليه أمير المؤمنين (عليه السلام) العلف لجمله في النهار وينام عليه هو وفاطمة ليلاً كما يقول المؤرخون.

٣) إن التأكيد على الجنبة العاطفية وشدّ الناس بالمأساة والفواجع والدموع فقط، والاهتمام بالشكل على حساب المضمون وترتيش الإطار على حساب المحتوى، والتركيز على مواضيع الحزن والآلام والآهات، كلّ ذلك يُساعد على تحاشي الاصطدام بأزلام السلطات الظالمة الحاكمة الذين يحبّذون مثل هذه المواضيع حيث تنأى به وبهم بعيداً عن إثارة حفيظة المنعّمين المترفين الذين لا يروق لهم أن تُفضح حفلاتهم الباذخة، ومصاريف ولائمهم، ومهور بناتهم، وما ترتديه نساؤهم من أساور وعقود، وبدلات أنيقة وغالية، أجنبية ومحلية وإقليمية.!!

علماً بأن بعض هؤلاء، هم الذين يبذلون بعض أموالهم لإقامة هذه الشعائر وتركيز هذا التوجّه لتفريغ شعورهم بالإثم عبر مجلس الوعظ هذا الذي يتوسلون من خلاله شفاعة الزهراء وشفاعة «أبيها وبعلها وبنيها والسر المستودع فيها» من جهة، والظهور بمظهر المحبين لأهل البيت، لأن حبّهم ـ كما يقولون **(حسنة لا تضرّ معها سيئة)!!** من جهة أخرى، والحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه...

٤) الانجرار وراء المخططات الشيطانية لأعداء الإسلام، بالإنكباب على عرض المظلومية فقط، وتضخيمها وإثارة حساسية الجهلة الذين لا يقرأون التأريخ وممن لا يزالون يردّدون ببلاهة (سيدنا علي وسيدنا معاوية) أو (سيدنا يزيد وسيدنا الحسين) الأمر الذي نُستدرج إليه أحياناً بعيداً عن تقدير التحدّيات وظروف الزمان والمكان فنجد بعض البسطاء يتخندقون كلٌّ في خندق، ويروحون يردّدون بغباء وببغاوية أن الشيعة دعاة تفرقة، وأنهم غلاة وباطنيون وأهل تقية، وأنهم مثيرو الفتن ولا يحترمون (الصحابة) وأمثال ذلك.

* * * * *

ومن هذه الغوغائية والضجيج يتسلّل أعداء الدين، أي أعداء السنّة والشيعة معاً فيفتحون ثغرة في حقول الألغام الدفاعية لساحة المسلمين، ويتسللون من خلالها لدق إسفين الصراع بين أهل الدين الواحد والنبي الواحد والقرآن الواحد والقبلة الواحدة ويدلفون غاطسين في بحيرتهم يعكّرون ماءها ويصطادون في الماء العكر، مستغلين جهل العوام وسذاجتهم من جهة، وملوّحين ببعض الخزعبلات التي لا يخلو منها تأريخ ولا تسلم منها أمة أو جماعة، ويصورونها لهؤلاء على أنها أساس المذهب وركن العقيدة، وأصل الدين من جهة أخرى...

وأخيراً وليس آخراً ـ وإذا أحسنّا الظن بكل ما يزعمه أو يحاول تكريسه أنصار (المظلومية والعواطف) ـ فإننا نجد جنوحاً غير مبرّر لتضخيم الجانب الغيبي على الجانب الواقعي، أو تضخيم الكرامات والمعجزات مثلاً على حساب الجوانب الحركية والواقعية التي عاشها الأئمة (عليهم السلام) عموماً والزهراء على وجه الخصوص... فلا نجد تفسيراً مقنعاً فعلاً لأن يكون للزهراء (عليها السلام) في بعض الكتب التأريخية الحظ الأكبر في وصف زواجها في السماء واحتفال الملائكة وابتهاجهم هناك، فيما لا نجد أو نجد حظاً أقلّ من نصيبها على الأرض... حين ننطلق معها (سلام الله عليها) في حياتها الجهادية والكفاحية مع النبي (ﷺ) في مكة والمدينة، وكيف كان نشاطها وحركتها وعلاقتها بمن قال عنها أبوها «إنها أم أبيها» و(فداها أبوها).

وهذا يعني أننا نتصور ـ كما تصور أحد العلماء «أن الجانب الغيبي ليس هو الأساس في هذه الشخصيات العظيمة، ولذلك فإننا نجد أن النبي (ﷺ) والأنبياء (ع) لم يتحدث القرآن الكريم عن شخصياتهم من الناحية الغيبية كثيراً، بل تحدث عن

الشخصيات من الناحية العملية والواقعية، أي كيف كانوا يفكرون وكيف يتحركون وكيف يعملون. نعم إنّ الله تعالى أعطى الغيب هامشاً صغيراً حتى في حياة الأنبياء والأئمة وليس هو الهامش الشامل المستغرق في ذلك كله...»[١].

وهذه هي المرارة التي لم نكن نحسّ بعلقمها حينما كنّا أطفالاً في مدارس الطواغيت، وكيف كان المنهج الدراسي يؤكّد على التأريخ الشخصي للحكام فيمجّدهم باعتبارهم أبطالاً[٢] مثلاً ولا يشير إلى تأريخ الثورات ونهضات الشعوب ضد الحكام الظلمة.

الأمرّ من ذلك أن تأريخ الطواغيت كان يؤكّد على الجوانب الغيبية للأنبياء ولا يؤكّد على حركيتهم في مواجهة هؤلاء الحكام أو أولئك الطواغيت، وكلّ ذلك من أجل طمس المعالم الحقيقية لنشاطات الأنبياء (عليهم السلام) والتكتّم على مواقفهم الجهادية في قيادة الشعوب نحو الحرية والكرامة والانعتاق، أي تجاه نضالهم في مواجهة هؤلاء الطواغيت وتأليب شعوبهم عليهم وصولاً لعمليّة التغيير الاجتماعي الكبرى التي يرهبها الطغاة ويتطيّرون من سماعها أو سماع التفاف الناس حول دعاتها...

وهكذا، وعودةً إلى صلب الموضوع، كان التوظيف المتعسّف لسيرة الزهراء (ع) هو الذي مكّن أعداء الدين أو المغفّلين أن يسحبوا من سِفْر هذه المرأة العظيمة، المثال، وسِجلّها الخالد النموذج، أبهى معاني التضحية وحُسن التبعّل والمكابدة، والصبر على

---

[1]- نشرة حوارات العدد الخامس ١٥ ـ صفر ١٤١٤ هـ ـ في حوار مع العلامة السيد فضل الله...

[2]- وهذا ما كنّا نقرأه عن فتوحات عبد الملك والرشيد والمنصور والمعتصم وغيرهم التي ما كانت لتكون إلاّ على حساب دماء الشعوب وتحريف الإسلام وسحق القيم الإسلاميّة والإنسانيّة. ـ راجع كتاب (وعاظ السلاطين) للدكتور علي الوردي ص ٢٠٤، وإقرأ كيف يسخر الوردي هذا من هذه الفتوحات ويعتبرها سحقاً للشعوب ومصادرة لحقوق وكرامة أبنائها ويقول بالحرف الواحد :«يتبجّح بعض هؤلاء المغفّلين بذكرى الفتوح التي قام بها أجدادهم وهم لو أنصفوا لنكّسوا رؤوسهم خزياً».

الأذى في سبيل الله، ويسحبون منها مواقف العطاء والبذل والإيثار، ويحجبون سجّل الزهد والتضحية المعطّرَيْن بألف موقف وموقف، وذلك تحت أكوام الدموع وأنين الزفرات والآهات والعبرات، وحيث يجري الاسترسال مع العواطف الخالية من الفكر، والسطحية البعيدة عن العمق، والدموع الساخنة الواهة في أعماق السماء بعيداً عن استذكار موقف تضحوي خالد أو استحضار حكاية وعظية معبّرة.

نعم، يمكن أن تكون الدموع الساخنة مدخلاً لتركيز العمق الرسالي، ويمكن أن تكون العواطف النبيلة باباً لتأكيد الرسالية الهادفة وولوج عالمها المبدئي العظيم، لكن يجب الحرص على حفظ الموازنة بين العمق الفكري والعواطف الفائرة، وبين وادي الدموع (المقدس) والبناء الرسالي (المقدس أيضاً).

وبغير هذه الموازنة تبقى الدموع ـ وإن كانت كريمة وسخيّة معولاً لتسطيح وعي الأمة وتفريغ وتفتيت رساليتها، وتبقى العواطف الفائرة، مادة استهلاكية، للبيع والشراء، وليس (طاقة حرارية) كما يقول السيد الشهيد الصدر ـ لتحريك الثورة وقيادة مسيرة التغيير. أي تبقى العواطف مجرد تأوهات دفينة وآهات حبيسة تتفجّر لامتصاص الغضب المقدس، وليس لتفعيله أو توظيفه في مواجهة الظلمة والطواغيت وأعداء الدين.

وباختصار شديد، يتحوّل النموذج إلى شعار موظّف للاستهلاك بدل أن يكون قدوة وأسوة ووظيفة رسالية لاستنهاض المروءة الغائبة، وتفعيل قيم الدين المضيّع.

وبهذه الموازنة الدقيقة والحساسة، يمكن للمفاهيمية الرسالية أن تجد بحرها الذي تسبح فيه أو عالمها الذي تتفاعل معه، وإلاّ تبقى المفاهيم وحدها شعارات عائمة وأطروحات نظرية بلهاء، كذاك الذي يريد أن يتعلم السباحة على الحصير، أو ذلك الذي يرفع بندقيّة لقتل جرادة. وتبقى المصاديق العملية كذلك محطات استجواب ومرافعات خطيرة لا يستطيع أن ينجو من حسابها وعتابها غير القليل من الناس.

وسبب ذلك، أن آدمية الناس وبشريتهم وجانبهم الطيني المرتبط بالأرض تبقى الأقوى في الرهان، والأرجح في الميزان من أريحية السماء، والتألق في عالم الزهراء الشفاف، الذي يتعجّل (مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة)، والذي يدفعها أن تتجلبب بعباءة خلقة (خيطت من اثني عشر مكاناً) وهي بنت نبي أهل الدنيا، وزوجة من فتح باب خيبر ويعرف الطريق بل الطرق إلى (كنوز الذهب ومنابع العسل المصفّى) كما قال (ع)، وكان بإمكانها أن تكون بمستوى زوجات كسرى ونساء قيصر وبلا رقيب أو حسيب...

بهذا التعلّق بالله سبحانه وتعالى، وابتعاد بنت المصطفى عما كانت عليه بنات الجبابرة، دخلت الزهراء آلاء الله وعالم الصدّيقين والصدّيقات، وبهذا أصبحت المرأة القدوة التي يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها. وأصبحت بصبرها وزهدها ومظلوميتها المرأة المثال والزوجة المثال والمدرسة المثال.

فسلام على الزهراء يوم ولدت في حضن الرسالة مكافحةً مجاهدة، وسلامٌ عليها يوم عاشت صابرة محتسبة، مظلومة الاعتبار، مهضومة الحقّ مضيّعة القدر، وسلام عليها يوم أصبحت دمعة ساخنة فقط في عيون من لا يستطعن أن يقتدين بها وإنْ ادّعين ذلك، فظُلمت هذه المرأة الخالدة مرّة أخرى وهو الظلم الأكبر إذ صارت بعض الأحيان شعاراً للحزن المزيف، وعنواناً للتوظيف المخطّط، ولافتة للاستهلاك الإعلامي والسياسي المدروس اللئيم.

نموذج آخر في عالم اليوم ـ نريده وظيفة وليس توظيفاً أيضاً

ومن ذلك الزمن الممتد، ومن تلك البداية العظيمة، وبعيداً عما يقوله أو تقوله أو يتقوّلنه أنصار (الشأنيات) ودعاء النصّ المؤوّل في زمن الفاقة والفقر، وكيف يلتفون

عليه بعيداً عن عنصري الزمان والمكان، ويتشبثون بنصٍ كريم في مصداقه أكثر منه في مفهومه «ليس الزهد ألاّ تملك شيئاً وإنما أنْ لا يمتلكك شيء» أو الآخر ـ المارّ الذكر ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق﴾ فيوظفون هذين النصّين الكريمين لامتلاك كل شيء وحيازة كل شيء والتطيّب بكل شيء...

نقول، من ذلك الزمن، ومن تلك البداية وبعيداً عن عوالم التأويل يأتي نموذج رائع آخر، ومن واقع الساحة النسوية العراقية الإسلامية ليؤكّد امتداد الخط وعمق الرسالة وعظمة الدين في تربية النفوس. إذْ تنبري المرأة العلوية الفاضلة بنت الهدى شقيقة الشهيد الصدر (رض) ـ لتكون المصداق الأكثر سطوعاً والأبهى مثالاً في عالم النساء اليوم.

نعم، تنبري هذه المرأة الرساليّة المجاهدة، التي عاشت حياتها ـ لا تملك قوت يومها ـ رغم كونها في بيت علمٍ وجاه وقدْر رفيع، وتحت يديها أموال عالِم ثم مرجع، ولها مالها كغيرها من خمسٍ وحقوق وهدايا، ولكن بيتها ـ كما ينقل شهود عيان ـ بل شاهدات عيان : «**لم يكن يحتوي من الأثاث والأواني حتى ما كانت تحتويه أفقر البيوت أو ما تملكه أفقر العوائل العراقية آنذاك**»[1].

تنبري هذه المجاهدة المكافحة، لتتصدى لزمرة البغي والضلال في بغداد بعد اعتقال شقيقها السيد الشهيد من قِبَل جلاوزة السلطة فتخرج إلى حرم أمير المؤمنين وهي تصرخ: «**الظليمة... الظليمة... أيها الناس... لقد هُتك دينكم... لقد اعتُقل مرجعكم**» وبعدها راحت تسجّل الموقف تلو الموقف صموداً وصلابةً وثباتاً وحذو

---

[1]- راجع كتاب زينب العصر ـ بقلم أم أبرار ص ١٣ ، وكذلك ـ كتاب بطلة النجف ـ بقلم أم فرقان ص ١٨ والأختان المذكورتان من تلميذات وزميلات هذه المرأة الفاضلة.

الشبل للأسد مع أخيها الكبير السيد الشهيد (قدس سره) حتى قضت معه شهيدة خالدة مع الشهداء والصديقين وحسُن أولئك رفيقاً...

عاشت هذه المرأة حياتها كفاحاً وجهاداً وتربيةً وتوعيةً، تنتقل بين مدرسة وأخرى في سيارات الأجرة العامة، تتفقّد طالباتها وتعود زميلاتها وتُشْرف على مدارسها وجلساتها بصبرٍ ورضاً وقناعة، فلا تتأفف ولا تتبرّم، ولا تحمّل الناس منّة العطاء، ولا تطالب بحقوق (شأنٍ) أو (مخصصاتٍ) (شأنيةٍ)، ولا تريد امتيازاً، ولا تحرص على معروفيةٍ أو موقعية، ولا تزعم أفضليةً أو أستاذية أو أكرمية إلاّ بما كرّمها به تعالى من (ورعٍ وتقوى) وفضّلها سبحانه بعلمٍ أو فهم، أو رسالية أو دين.

نعم، كانت المرأة الفاضلة النجيبة، الوفيّة لدينها، البارّة بأخيها، القدوة لأخواتها، المصداق الأعظم للمثل الأعلى، التجسيد السماوي لأهل الأرض، الشاهدة الشهيدة على كلّ من زعمت أو تزعم الإنتساب لمدرستها، وادّعت أو تدّعي الانتماء لمنهجها أو خطها ـ رضوان الله عليها ـ ...

إذن، ومن ذلك المثال الطاهر الآتي من أعماق السماء، وهذا المثال الخالد النابع من طُهر المولد ونُبل المرضَع، يأتي حرص المرأة العراقية المسلمة اليوم في كفاحها ضد الطاغية المتفرعن من جهة، وضد الهوى واتّباع الدنيا والتهافت على حطامها من جهة أخرى...

ولعلّ الخطوة الأولى في مسيرة الجهاد هذه هي الاقتداء بذينك المثالين النموذجين العاليين في سماء الفضيلة والتضحية والتمثّل بجهاديهما وسيرتيهما وزهديهما. وليس أدلّ على هذا الاقتداء وهذا السير وهذا الزهد من التعامل مع الدنيا بتلك الروحية التي تعاملت بها سيدة النساء «ع» وهي تقول: **«كيف أردّ الخير وقد نزل ببابي»** بعد أن أطعمت الطارق وتركت ولديها جائعين **«كأنهما فرخان منتوفان»** ـ كما مر ذكره ـ وكذلك سيرة حفيدتها بنت الهدى (رض) التي كانت تقول:-

إســـلامنـــا أنـــت الحـــبيب   وكـــلّ صعبٍ فيـــك سهلُ

ولأجـــل دعوتـــك الـعزيزة   علـقم الأيـــــــام يحلو[1]

لقد جسّدت هذه المرأة الفاضلة فعلاً النموذج الأكمل في اقتران المفهوم بالمصداق، وجمعت بين القول والفعل، والشعار والشعور، فكانت في مواساتها لبنات جيلها وزميلاتها ما سيظل غرّة على جبين الزمان ويظلّ عنواناً خالداً لجميع المكافحات والمجاهدات ممّن سلكن ويسلكن طريق الله.

وهاك ما ينقلن هنّ أنفسن من معانٍ وشواهد سامية وأخلاق رفيعة تحلت بها العلويّة الفاضلة، وكيف أنها (رحمها الله) أرادت أن تزور إحدى صديقاتها يوماً ولكنها اكتشفت قبيل خروجها من البيت أن حذاءها تمزّق ولم يكن لديها ما يمكنها من إصلاحه، ولم يكن لديها المال الكافي لشراء حذاء جديد، (فقرّرت البقاء في البيت لعدم وجود شيء تحتذيه)[2] ثم اتصلت بصديقتها معتذرةً عن عدم المجيء...

وتنقل إحدى تلميذاتها عنها أيضاً قولها:

«إنّ علاقتي مع الناس الذين يبحثون عن الشكليات (أي المترفين المنعمين) لا تتعدى الرسميات، أما علاقتي الروحية الواقعية ـ فكانت مع الناس البسطاء في معيشتهم، العاملين لإسلامهم وعقيدتهم...»[3]

وتعلّق هذه التلميذة على مواقف الشهيدة بنت الهدى، ومزاعم من يُحاولن أن يُحسَبن على مدرستها وخطها فتقول:

---

[1] - هذان البيتان من قصيدة كريمة للعالمة الفاضلة بنت الهدى...

[2] - بطلة النجف ـ بنت الهدى ـ تأليف الأخت أم فرقان طبعة سنة ١٤٠٤ هـ ص ١٨.

[3] - نفس المصدر السابق ص ١٩.

«ليس الفخر في معرفة النور، بل الفخر في اتّباع ذلك النور، وعدم الزيغ أو الانحراف عنه»... وتضيف (أي هذه الأخت الفاضلة):

«معرفة أهل البيت ليس فخراً، بل اتّباعهم ونهج نهجهم في الحياة هو الفخر. فكم من عارفٍ لأهل البيت (ع) وليس بتابعٍ لهم، وكم من عارفٍ بولاية أمير المؤمنين، ولكنه تخلّى عنه في أشد الظروف حراجة...»[١]

نعم.. إن الحديث عن الدين يجب ألاّ يكون بديلاً عن العمل به، وإنّ الدفاع عن الإسلام المحمدي الأصيل، يجب ألاّ يكون بديلاً مشوهاً لطرح الإسلام (المرواني) أو (الأموي)، أو «الصفوي»!!

وأخيراً وليس آخراً... إن طرح المفاهيم ـ مهما كانت رائعة وجميلة، يجب أن لا يكون بديلاً عن المصاديق... فالعمل الصالح ذُكر في القرآن الكريم مرات ومرات حتى قبل الإيمان بالله سبحانه ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[٢] وبخصوص المؤمنين والمؤمنات، قال ـ عزّ من قائل: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾[٣].

وفي ذلك إشارة، وإشارة دقيقة جداً لكل من ألقى السمع وهو شهيد، حيث قدّم سبحانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أشياء كثيرة مهمة أخرى، ومنها الإيمان نفسه... وهذا يعني أن الإيمان ـ كما يقول السيد الشهيد الصدر (قدس سره)

---

[1]- نفس المصدر السابق ص ١٤.

[2]- الكهف: ١١٠.

[3]- التوبة: ٧١.

«ليس عقيدةً محنطة في القلب بل الشعلة التي تتقّد وتشع بضوئها على الآخرين، فما لم يكن المسلمون على مستوى هاتين المسؤوليتين ـ فلا أمة إسلامية بالمعنى الصحيح»[1] وهكذا جاءت الآية الكريمة الأخرى أكثر صراحة وأكثر وضوحاً:

﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[2].

فبوركتْ من قَرنت القول بالفعل، وطوبى لمن قدمت الفعل على القول أو كانت من ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب﴾.

أما أن تبقى هذه النماذج بل هذين النموذجين الرائعين في دنيا النساء مجرّد يافطات ولافتات لاستدرار الدموع وتحشيد النادبات اللاطمات في الاحتفالات ومجالس العزاء أو مجالس التأبين من أجل جمع المال واكتناز الذهب والفضة وحيازة المقام والجاه. فذلك ما يؤدي إلى تفجير الاختلاف وتحويله إلى خلاف بالتأكيد، وخاصة إذا دسّ الخصوم أُنوفهم وتسلّقوا الجدران وتسوّروا الأبواب ودخلوا الدار.

وهذا ما صرنا نسمعه ونراه مع الأسف الشديد من، أو عنْ بعض يحسِبن أنفسهن على هذه المدرسة أو هذا الخط. فصار الحديث عن (ضلع الزهراء) مثلاً بديلاً عن الاقتداء بزهدها وشظف عيشها وجهادها ومواساتها لفقراء المسلمين.

وصار الحديث عن شهادة (بنت الهدى) وإقامة مراسم تشييع نعشها الرمزي في ذكريات استشهادها المتوالية، غلافاً لما يقُمن به بعض المحسوبات عليها من مشاهد

---

[1] ـ مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن ـ للسيد الصدر ـ بيروت ١٩٨٠ ص ٨٠.

[2] ـ آل عمران: ١١٠.

البذخ والترف واستمراء الدنيا والركون إلى عالم الراحة والدعة والاستقرار، أي صار الحديث عن هذين النموذجين بديلاً عن الاقتداء بهما أو التأسي بهما.

وباختصار شديد، صار الحديث عنهما حرفةً وليس سلوكاً، أو قُل صار النموذجان أو صُيِّرتا توظيفاً وليس وظيفة، وهذا هو أشد ما نخشاه إذا ارتجّت القيم واهتزت المقاييس واشتبكت الشعارات مع الشعائر!! وأضيفت لها المشاعر!!

ويبدو أن سبب هذا الانجرار أو الاسترسال مع حطام الدنيا قد ترشّح بسبب طول المحنة ومضي السنين ويأس البعض من (رحمة الله) وما دَرَينَ أنّ المشاعر العظيمة وحدها لا تخلق العظماء أو العظيمات، وإنما مدّة وديمومة هذه المشاعر.. فلئن كانت الزهراء (سلام الله عليها) قد ماتت فإن الله تعالى حيّ لا يموت، وإن كانت بنت الهدى قد تحوّلت إلى رمز، فإنها (رضوان الله عليها) ستكون شاهدة كما صارت شهيدة على كلّ من وظّف رمزيتها ولم يقتدِ بها، وعلى كل من عاش على تراثها ولم يعش للهدف الذي استُشهدت من أجله زهداً وكفاحاً وجهاداً في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنّساء والولدان!!

نعم، الاختلاف هنا مرّ، والحقيقة هنا علقم، ولكنّ الاختلاف هنا خير من الاتفاق، والحقيقة المرّة هنا أفضل من الخداع الناعم... فشجرة الصفصاف لا تثمر عنباً، ومن يخفي مرضه لا دواء له، وعندما لا يستطيع الشيطان أمراً ينتدب امرأة... ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

الفصل الرابع

رسالة التنزيه

للسيد محسن الأمين

محسن الأمين

في صميم الظاهرة الحسينية

حين قلنا أو نقول إن الشيعة لم يختلفوا شكلياً على ظاهرة أو ذكرى ـ كما اختلفوا على ظاهرة إحياء ذكرى سيد الشهداء وأبي الأحرار ـ الإمام الحسين «عليه السلام»، وهذا يُشير إنّ اختلافهم كان من أجل الحرص على إبقاء هذه الذكرى والتنافس على إحيائها والاعتزاز بها أكثر من إختلافهم على توظيفها أو الاستفادة منها رغم الملامح التي يمكن تأشيرها لهذا المستفيد أو ذاك في هذا الاستثناء أو ذاك...

وهنا يمكن القول أن اختلافهم كان نافعاً في بعض الأحيان رغم ما شابه أو يشوبه من عوامل التصدّع والتقاطع والجفاء أحياناً بين أصحاب هذا الرأي وأتباع ذاك ورغم التنافس الذي قد يأتي مرفوضاً أو غير مقبول بين أنصار هذا الموكب أو ذاك[1]. إذْ كان هذا الاختلاف سبباً لتنضيج هذا الإحياء، ودافعاً لتشذيب ما أُدخل فيه أو أُقحم عليه، (ورُب ضارّة نافعة) كما يقولون...

ولعل ما كتبه المرحوم علي شريعتي في إحدى مقالاته وما أثاره الشهيد المطهري في كتابه المعروف (الملحمة الحسينية) وكتابه الآخر (مبدأ الاجتهاد في

---

[1] ـ يذكر الدكتور علي شريعتي أنّ هدف بعض أصحاب المواكب «لم يكن أكثر من تجميع عدد من الشباب يرتدون السواد ويُحمل كلٌ منهم فانوساً مخرّماً وعدداً من السلاسل وصناجات، ويتدافعون بل يتقاتلون من أجل أن يتمكن موكب عزاء قرية (محمد آباد) من إثبات وجوده يوم عاشوراء مقابل موكب عزاء قرية (بهمن آباد)، وقد تُسفك الدماء في أحقية من يجتاز المفرق أولاً...» راجع كتاب (الإنسان والإسلام) ـ الدكتور علي شريعتي ص ١٩٥.

الإسلام)[1]، وما حاولاه جاهدَيْن لإقصاء بعض المدخولات أو الشوائب المشكوك بصحتها عن أصل الملحمة الدامية وتشذيب بعض عناصر الإثارة التي أُقحمت على المجالس الحسينية، وكذلك ما قاله أو رجّحه السيد محسن الأمين في قصة (رسالة التنزيه) التي سنأتي على تفصيلها ـ كلّها جاءت في سياق واحد وهدف واحد، وهو موازنة الذكرى في بُعدها الفكري الرسالي من جهة والشاعري العاطفي، من جهة أخرى.

نعم لقد حاول البعض جرّها إلى البعد العاطفي الذي أُقحمت فيه بعض الأفكار الغريبة التي تصوّر رئيس الجن مثلاً يَظهر للإمام الحسين «عليه السلام» ويقول له إن جيشاً من الجنّ الذين أسلموا على يد أبيه الإمام علي «عليه السلام» ينتظر الإشارة ليمحق أعداءه وكيف أن الحسين «عليه السلام» أبى واختار أن يمضي إلى قضاء الله وقدره.

أو ذاك **«الذي كانت لديه رياضة روحية خاصة تُمكّن الذين يُمارسونها من رؤية ومشاهدة واقعة يوم عاشوراء ـ وهذا أمرٌ تام وممضى وفقاً للقواعد العلمية ـ لأن كلّ هذه الأمور محفوظة ومخزونة في (الجفر) لم تَتلف ولم تنمح، وكلها موجودة ويمكن للروح بواسطة تلك الرياضة الخاصة أن تتصل بها وتراها...»**[2]، وأمثال ذلك مما صار يُنسج على منوال كتاب أو كتب، ويظهر توليفة خيالية لأخبار غريبة تحرّك مشاعر الناس وتُلبّي ظمأ بعضهم للعجائب من الخوارق والغرائب واستنادهم على

---

[1]- يقول الشهيد المطهري «... إلاّ إنّ المواضيع التي لم يَلتفت إليها المجتهدون، بقي فيها الجمود الفكري الإخباري لحد الآن، وما أكثر المجتهدين الذين يجتهدون بعقلية إخبارية...» ويضيف بألم:
«إن الكثير من القضايا التي نراها في السوق باسم (معارف أهل البيت) وتطعن أهل بيت النبوّة بالخنجر من الخلف، ليست في الحقيقة سوى بقايا أفكار (أمين الاسترابادي)» راجع كتاب مبدأ الاجتهاد ص ٤١.

[2]- مقتطفات ولائية ـ آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني ترجمة / عباس بن نخي ط ١٩٩٦ ص ٤٠.

(السيد عبد الرزاق المقرّم) صاحب هذا الاختصاص دون مناقشة السند التي دأب على إتحاف كتاباته بها[1]...

نقول جاءت هذه الاختلافات والتقاطعات لتحسم جدلاً طويلاً لِما أُدخل على المنبر الحسيني من مسائل الاختلاق والتقويل والتهويل، وتُعادل ذلك مع الفكر الأصيل وصولاً للوقوف على أرضٍ مشتركة لحفظ هيبة الذكرى من جهة... وإذكاء حسّها العاطفي والشاعري من جهة أخرى...

ولا نريد هنا المرور على كل ما جاء في هذه الكتب «واستعراض كل ما أثاره هؤلاء الكتّاب حولها وإنما أردنا التوقف فقط مع (رسالة التنزيه) للسيد محسن الأمين واستحضارها والتأمل فيها، باعتبارها الأكثر إثارة للجدل وما زالت: وباعتبارها الأكثر مساساً بهذه المسألة الحساسة... علماً بأنها جاءت رداً على ما كتبه أحد الناس حول الشعائر ـ كما سنقرأ ـ وأنها فتحت الباب لمناقشة الموضوع من النواحي الفقهية والاجتماعية وحتى السياسية. نعم، اعتُبرت «رسالة التنزيه» هذه أول هزّة حقيقية في مسيرة إصلاح الشعائر الحسينية، باعتبار أنّ كاتبها أو مُعدّها هو السيد محسن الأمين أولاً، وبسبب الضجّة الإعلامية الضخمة التي أعقبتها ثانياً...

وحين تأتي قيمة هذه «الرسالة» من قيمة صاحبها فلأنه (رحمة الله عليه) علَم كبير من أعلام الدين غنيّ عن التعريف رغم ما قيل فيه أو عنه بعد إصدارها أو ترويجها... وباعتباره من أصحاب الرأي والدليل الذين تُحترم آراؤهم وتُحترم استدلالاتهم..

---

[1]- تأريخ الصراع على إحياء عاشوراء ـ مقالة للشيخ جعفر المهاجر ـ جريدة السفير (١٩٩٦/٧/١٥ م).

ولسنا هنا بصدد الترويج لهذه «الرسالة» أو تبنّيها بقدر ما يهمّنا شخص كاتبها وقراءة رؤيته فيها، وهو الذي تحدّث عنه الكثيرون.ورثاه الكثيرون وما زال الكثيرون يعتبرونه رائداً من روّاد الإصلاح وعلَماً من أعلام النهضة والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، وخاصة في ما كتبه في كتابه المعروف (المجالس السنيّة) والآخر (كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب) وموسوعته الشهيرة (أعيان الشيعة) التي تُعتبر من أفضل الموسوعات الشيعية عمقاً ودقّةً وموثوقيةً.

وحين نقول إننا لسنا بصدد الترويج للرسالة فلا يعني ذلك بالضرورة أننا لا نتبنّى معظم ما جاء فيها، ونتحفّظ على بعض قليل منها، وإنما اعتقاداً منّا باحترام وتقدير كل الآراء التي طُرحت حولها قدحاً أو مدحاً، رفضاً أو قبولاً، ذمّاً أو تبنياً.

وهذا يعني أن بعض أعلام عصره الذين قدّروا أنه لم يُوفّق في اختيار الزمان مثلاً فحملوا أو تحاملوا على رسالته، فلكونهم انطلقوا من الحُكم على عقل السيد (رحمة الله عليه) وليس على دينه أو اعتقاده أو اجتهاده، وفي ذلك حكم قائم للقادح والمادح لا يعلمه إلاّ الله سبحانه وتعالى...

نعم... كانت الرسالة هزة عنيفة، جاءت امتداداً لأخريات عديدات مثلها أو أقلّ منها كان منها على سبيل المثال ما أثاره المرحوم السيد هبة الدين الشهرستاني عام ١٩١١ م حينما كانت بعض عادات المسلمين الشيعة في العراق تقضي بنقل الجنائز على الدوّاب لمسافات طويلة من أجل دفنها في مقبرة النجف الأشرف بجوار مرقد أمير المؤمنين «ﷺ» وحيث وصف السيد الشهرستاني هذا الإجراء بقوله:

«ينقلون كل ميّت وإن استلزم نقله تفسّخ أجزائه وتقطع أوصاله وفساد جثته وإضرار مسلمي البلاد من تلك الجنازة المارّة بهم وهي منتنة الرائحة تَحدث في أهويتهم البسيطة أنواع الأمراض والأوبئة وأصناف جراثيم العلل... الخ».

«وهنا نادى السيد الشهرستاني بتحريم نقل الجنائز ودعا إلى ترك هذا التقليد لما فيه من المفاسد التي ذكرها، فقامت عليه قيامة الغوغائيين في العراق وثارت عليه العامة العمياء»[١].

نقول، جاءت هذه الهزّة أو «الرسالة» بصوت وقلم السيد (محسن الأمين)، لتؤكّد أن ما يفعله جملة من الناس من جرح أنفسهم بالسيوف أو اللطم المؤدّي إلى إيذاء البدن إنما هو من تسويلات الشيطان وتزيينه سوء الأعمال..)... أو تأكيده الآخر أثناء مروره ببيروت في طريقه من جبل عامل إلى دمشق «وكان ذلك قبيل حلول شهر محرّم لسنة ١٣٤٧ هـ حيث زاره أحد الصحفيين وسأله فيما يجري من الاحتفالات الحسينية الدامية ومواكب اللطم وما إلى ذلك، فكان جوابه صريحاً بأن هذا ليس من الدين بل إن فعله حرامٌ ومُخالف للدين وأنه هو نفسه قد منعه منعاً باتاً حين كان يَجري في مقام السيدة زينب في ضاحية دمشق»[٢].

أثارت هذه التصريحات بالتأكيد ردود فعل متباينة أكّد بعضها أن ما يجري في المواكب الحسينية واجب شرعي وديني وفنّد بعضهم آراء السيد الأمين تفنيداً دينياً مدلِّلاً (وفي كُتيب نُشر هو الآخر تحت عنوان «سيماء الصلحاء»[٣].

وهذا يعني أنّ المسالة كانت بين أخذٍ وردٍّ، وحسبنا ما قاله أصحاب هذا الرأي أو الرأي الآخر... ظانّين بأنهم اجتهدوا في إطار الزمان والمكان الذي يعتبر عاملاً

---

[1]- ثورة التنزيه ـ دار الجديد ـ الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص ١٢.

[2]- نفسه المصدر السابق ص ١٤، ويقصد باللطم هنا مواكب الرجال (اللطامة) الذين يقطعون الشوارع بصدور عارية وهم يلطمون وأمام عيون النساء والفتيات اللواتي يتفرّجن على تلك الصدور العاريات.

[3]- نفس المصدر السابق ص ١٤.

حاسماً في هذه المسألة أو تلك... وقدّر كل منهما تقديراً حسِبَ أنه بتقديره أصاب كبد الحقيقة وغيره أخطأها...

وما دامت الحقيقة غير قابلة للاحتكار كما يقولون، فإننا نؤكّد أن المسألة بقيت وستبقى في دائرة الرأي والرأي الآخر وخاضعة لظرفي الزمان والمكان، دون مصادرةٍ لهذا الرأي أو إلغاءٍ لذاك... فما قدّره السيد الأمين مثلاً أو اجتهد فيه في ظرفه، ربما اختلف عن تقدير الآخر واجتهاده في ظرف آخر أو زمان آخر...

ولا نريد هنا أن نُمسك العصا من الوسط، كما يفعل الكثيرون فلا يَطرحون رأياً قاطعاً أو لا يقطعون، وإنما سنترُك كلٌّ يتحدث عن نفسه وتقديره في نص «رسالة التنزيه» التي سنطّلع عليها بعد قليل، واثقين أن الجميع أرادوا من خلال اجتهاداتهم خدمة الدين والمذهب وإن كان بعضهم أقرب إلى الصواب من الآخر أو أنه أصحّ، وفي هذا الظرف الزماني والمكاني أو ذاك...

وبكلمة واحدة، وباختصار شديد، فما كان صحيحاً في فترة معيّنة ومكان معيّن ربما لم يكن صحيحاً في زمان ومكان آخرين وهنا تأتي مسألة الأحكام الثانوية في الذهن الفقهي ـ كما يقولون ـ وتأتي اجتهادات المجتهدين مغايرة لما تعارف عليه الناس وألفوه[1].

[1]– وإذا أردنا أن نضرب أمثلة على ذلك نذكّر بما قاله أو أفتى به السيد الخميني في جواز الصلاة على الملبوس في (الديار المقدسة) بل عدم جواز الصلاة على التربة الحسينية المعروفة في تلك الديار. وكذلك، جواز صلاة الجماعة خلف أئمة (السنّة) السعوديين (المعروفين)!!! وعدم جواز إعادتها... وهكذا رأي الشيخ (ناصر المكارم الشيرازي) (حفظه الله) في جواز ذبح الهدي (أي الأضحية) في غير بلد الحرمين لما رآه من تعسّفٍ وتبديد مُخجل للّحوم وعدم قدرة القائمين على الذبح في تلك البلاد لتصريف المسألة بشكل مقبولٍ ومرضٍ وقال: «إذْ لم نفهم من أيّة آية أو رواية أن تكون هناك موضوعية لمحض هدر دم الأضحية وليس ثمة آية أو رواية تدلّ على ذلك»... وأمثال ذلك الكثير مما لا نُريد إثارته في هذا العرض السريع، راجع مجلّة قضايا إسلامية العدد الرابع ١٩٩٧ م ص ٢٦.

فالمتغيّر إذن، هو ليس حُكم الشرع، وإنما موضوع الحكم، لأن الموضوع يتقوّم بمجموعة القيود المأخوذة فيه، فإذا انتفت هذه القيود أو بعضها، انتفى الموضوع، لأن «المقيّد عدم عند عدم قيده» كما يقول الذهن الأصولي، أي يتبدل الحكم تبعاً لتبدل الموضوع، وفق ظروف الزمان والمكان...

والآن وعوداً إلى صُلب الموضوع وإيثاراً للإيجاز والاختصار أيضاً، أي عوداً إلى رسالة التنزيه وبعيداً عن لغة التطرّف الجارحة التي دفعت أحدهم إلى القول المذكور آنفاً:

يا راكباً إمّا مررتَ بجلّق ... فابصق بوجه أمينها المتزندق

وقول الآخر: «لعن الله أناساً حرّموا ندْب الحسين»

وكيف ردّ عليهم آخرون مازحين جادين أو جادين مازحين: لا أدري:

أبعدَ الله أناساً ... قولهم كِذْبٌ مُبينْ

الصَقوا بالدين ممّا ... قد أتوه كلّ شين

أظهروا للدين حباً ... وهو حبّ الدرهمين

قطُّ ما سالت عليه ... منهمُ دمعةُ عين

أو الردّ الظريف الشعبي الآخر:

«يحسين يا عزّي ودلالي ... يَلْچَتلتَكْ عَيْشَتِ عيالي»

أي أنه ما حاز على عزّه ورزق عياله وأطفاله إلاّ بالقراءة على الحسين وإحياء ذكراه بالندب واللطم واستدرار الدموع واستحلاب الجيوب... وما إلى ذلك من مناوشات وهنات وقع فيها أو استُدرج إليها أنصار الرأيين مع الأسف الشديد.

من هو السيد محسن الأمين؟

بعيداً عن هذا وذاك وفي لغة الجدّ... لابدّ من القول إن الذكرى كعاطفة لابدّ لها من شعارات عاطفية قد تبدو ساذجة ومسطّحة في بعض الأحيان، ولكنها على أية حال تتناغم مع أصحاب العواطف البسيطة الذي تشدّهم الراية الحمراء والدمّام المدوّي والمواكب الحاشدة، والردّات الثائرة، والخيول المطهّمة، والسبايا الملطّخة جباههم بالتراب، أو بالدم، لتذكّرهم برايات الكفر التي رُفعت في وجه الإمام الحسين «ع». وكذلك طبول الحرب التي قُرعت لأمةٍ ظالمة أسرجت وألجمَت وتنقّبت لقتاله، فضلاً عن التذكير بخيول الظالمين التي داست ضلوعه (سلام الله عليه) ومشاهد السبايا والنساء والأطفال اللواتي فَرَرْنَ من نيران المعركة بعد حرق الخيام تحت سنابك خيل اللئام... وأمثال ذلك ممّا يُدمي القلب ويَحرق الفؤاد...

ولكن وكما قُلنا... فما يَصحّ التذكير به هنا ربّما لا يصحّ التذكير به هناك، وما يُستنزَف أو يُبذل من طاقات في هذا الظرف أو في هذا البلد ربّما يجب توفيره في جهدٍ وطاقاتٍ أخرى أكثر نفعاً وأمضى أثراً في ظرفٍ آخر أو بلدٍ آخر..

وهذا لا يمكن تحديده إلاّ بموازنة العقل مع العاطفة التي مرّ ذكرها ـ بين الموجّه الفكري والخطيب التعبوي ـ وفي الزمان والمكان المعيّنين..

وهذا لا يعني بأي شكل من الأشكال أن ينقسم المؤمنون في تحديد جدوائية أيٍّ من الاتجاهين أو الرؤيتين، إلى طائفتين، أو كما سمّوهم يوماً بل في يومٍ نحس إلى (أمويين وعلويين)... حيث حُسب أتباع السيد (محسن الأمين) من (الأمويين) وأتباع غيره من (العلويين)[1].

---

[1]- راجع التفاصيل المؤسفة في تلك القضية المؤلمة في كتاب ثورة التنزيه ـ إعداد محمد القاسم الحسيني النجفي ص ٥٩، وفي الجزء الأخير من أعيان الشيعة.

نقول بعيداً عن هذا وذاك، وتحاشياً للإفراط والتفريط، وانطلاقاً من حُسن الظنّ بالجميع وعدم الحكم على النوايا والأهداف المبيتة التي لا تخلو أصابع الأعداء أحياناً من الخروج من أكمامها، لابدّ من الإشارة إلى شخص صاحب رسالة التنزيه والتعرّف عليه، لا من باب التعريف به لأنه، كما قلنا، غني عن التعريف وإنما لكي لا يكون الحُكم على الرسالة مفصولاً عن شخصيّة الرجل واجتهاده وحرصِه على تشذيب هذه الشعائر.

كما لا نريد التفكير بعظمة مؤلفاته التي خَدَم بها الإسلام والمسلمين فإنها أكبر من أن تُعرّف هي الأخرى، وخاصةً كتابه الذي قرن باسمه أو قُرن إسمه به حتى صار يُسمى بصاحب (أعيان الشيعة) وهو موسوعة حضارية وفكرية ضخمة بأكثر من عشرة مجلدات اعتبرها الكثيرون مساهمة جليلة في إعادة كتابة التأريخ الإسلامي الذي أعاد الحقّ إلى نصابه وأعاد التذكير بالبحث العلمي والتحقيق الرصين، ولكننا نُريد أنْ ننقل بعض كلمات التعريف التي جاءت من قِبَل بعض الناس الذين لم يكن لديهم هدف خاص أو مصلحة خاصة في تعريفه أو ذكره أو الثناء عليه، وبعدها نقرأ نص الرسالة ـ كما جاءت بقلمه ـ لنحكُم للرجل أو عليه...

إذن، في ما يلي نُتفاً وعيّنات على سبيل المثال لا الحصر، مما قيل في هذا الرجل، وإلاّ فإن ما قيل فيه كان أكثر من ذلك بكثير، وهو أكبر من ذلك بكثير، فعلاً.

ففي كلمة رثاء له، ألقاها الشيخ المرحوم (محمد جواد مغنية) بحقه بعد أنْ وصفه بالعالِم الزاهد العابد قال:-

«... إنّ الفقيد اعتمد على العمل الصالح لا على الرياء والتضليل ولا على الأنساب والألقاب... وانتسب إلى حقيقة الدين وجوهره لا إلى اسمه ومظهره... وحين يكون معنى الإيمان هو إخضاع الإنسان حياته للشعور بالمسؤولية، وأن المسيح «ع»

مثلاً لا يُريد النصراني الماروني أو الرومي وإنما يُريد النصراني الإنسان، ومحمد «ص» والكلام ـ لمغنية طبعاً ـ لا يرجو المسلم السنّي أو الشيعي وإنما يريد المسلم الإنسان، فإن الفقيد كان هكذا، إنه فهم الإسلام والإيمان وأخضَعَ حياته لهذا الشعور، وبهذا كان عظيماً عند المسيحيين كافة والمحمديين كافةً... كما أن حياته التي كان يحياها وهي الحياة المتواضعة، والبساطة في مظاهره كلّها في مأكله وملبسه ومسكنه. فلا بوّاب ولا حُجّاب ولا سيارة فخمة ولا بناية ضخمة، وقد رايتُه وأنا جار له في الشيّاح واقفاً على دكان قصاب يشتري اللحم ويحمله بيده إلى أهله. ورأيتُه يمشي منفرداً متثاقلاً يدفع بجسمه المريض المتهدم يزور العمال البائسين في بيوتهم، فيجلس إليهم ويُطالبهم ويَسمع منهم... حتى ليكاد المرء يتساءل هل هذا حقاً هو الذي احتشدت الأمة بقضّها وقضيضها خلْف جُثمانه؟! هل حقّاً هو هذا الذي كان يمشي وحيداً في الشارع ويجلس على الحصير مع البائس والفقير؟!...»[١]

وهو السيد ـ والكلام هنا للأستاذ (وجيه بيضون) ـ الذي قال لمندوب المفوّض السامي الفرنسي حينما زاره في بيته وعَرَض عليه منصب رئاسة العلماء والإفتاء براتب كبير مشفوعاً بدار ضخمة للسكن وسيارة خاصة: «إنني موظّف عند الخالق العظيم وسيّد الأكوان، ومن كان كذلك لا يمكن أنْ يكون موظفاً عند المفوّض السامي، فاشكره بالنيابة عني على ثقته بي، واحمِل إليه أي قُلْ له أن المعاش الكبير والمركَز الخطير والدار المنيفة والسيارة الرفيهة، كل أولئك قد أغناني الله عنها بالقناعة...»[٢].

---

[1]- السيد محسن الأمين ـ سيرته بقلمه وأقلام آخرين طبعة عام ١٩٨٣ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

[2]- نفس المصدر السابق ـ بقلم الأستاذ (وجيه بيضون) ص ٢٠٧.

بل هو «الزعيم الديني الأوحد الذي لم يَعرف قطّ، وجه فرنسي واحد معرفة غيره لهاتيك الوجوه التي كانت تعنو لها وجوه القوم هنا وهناك من كلّ لون...»[١]

وهو السيد الذي رثاه الأستاذ (حامد يوسف) بقوله:

يـــا أميناً بـــعـهده لـــعليٍّ ووفيـــاً بحبـــه للآل

إيه لــــو صحّ يـــا جليل فداء لفديناك بالنفوس الغوالي[٢]

ورثاه السيد (أمين أحمد الحسيني) بقوله:

طأطئي يـــا أمة العُرْب أسىً واندبيه فعـــلى الدنيا العفا

ذلك المُحسن، والمـــولى الذي مثلـه هيهـــات تلفي خَلَفا

بصفات ومـــزايا لم يكـــن غيره في بعضها متّصفا[٣]

وأخيراً وليس آخراً ما ذكره أو كتبه عنه عالم الإجتماع العراقي المعروف الدكتور (علي الوردي) الذي قال:

«يُعجبني من المصلحين في هذا العصر رجلان هما: الشيخ محمد عبدة في مصر والسيد مُحسن الأمين في الشام، فالشيخ محمد عبدة قد نال في بدء دعوته الإصلاحية من الشتيمة قسطاً كبيراً حتى اعتبروه (الدجّال) الذي يظهر في آخر الزمان، ولكنه الآن خالد لا يُدانيه في مجده أرباب العمائم مجتمعين. وإني ـ والكلام للدكتور علي الوردي ـ لا أزال أتذكّر تلك الضجّة التي أُثيرت حول الدعوة الإصلاحية التي قام بها السيد (محسن الأمين) قبل ربع قرن، فقد أهانه الناس وشتموه وقالوا إنه زنديق، ولكنّه صمدَ لها وقاوَمها فلم يلِن ولم يتردّد، وقد مات السيد أخيراً ولكن ذكراه لم

---

[1]– نفس المصدر السابق ـ بقلم الأستاذ (حسين مروة) ص ١٩٥.

[2]– نفس المصدر السابق ـ ص ٢١١.

[3]– نفس المصدر السابق ص ٢١٧.

تَمت، ولن تموت، وستبقى دهراً طويلاً حتى تهدم هاتيك السخافات التي شوّهت الدين وجعلت منه أُضحوكة الضاحكين..» إلى أن يقول:

«لست أشك أن كثيراً من أمثال الشيخ (محمد عبده) والسيد (محسن الأمين) موجودون الآن بين رجال الدين، ولكنّهم ساكتون، بينما امتلأ الجو بأصوات رجالٍ يتظاهرون بالدين والدين منهم بريء... نعم ـ والكلام للوردي ـ لقد آن للساكتين أنْ يتكلموا فقد حان وقت الكلام»[1].

بعد هذا التعريف، وهذه المقدمة وهذا العرض السريع ومن موقع الحياد لا الانحياز هذه المرّة، آثرنا أن نترك القارئ الكريم مع نص (رسالة التنزيه) والهوامش التي وردتْ فيها، آملين أن يكون حكمه على الذي قيل فيها بعيداً عن قائلها، وانطلاقاً من مقولة «أُنظر إلى ما قيل، لا إلى من قال» وآملين كذلك أنْ يكون الحكم لها أو عليها، وليس لكاتبها أو عليه. وهذا لا يعني بطبيعة الحال فصل القول عن القائل، كما قلنا، وإنما لاجتثاث الأحكام القَبْلية والقَبَلية التي تحكمُ النفوس عادةً، رفضاً أو قبولاً من جهة، ولمناقشة الحجّة بالحجّة والفكرة بالفكرة من جهةٍ أخرى...

أما من جانبنا فإننا لسنا ممن وافق أو يوافق على كلّ كلمةٍ أو حرف جاء فيها ـ كما يَرى البعض ـ وإنما مع منهج صاحبها في الدعوة إلى تنقية الشعائر الحسينية مما لحق بها من شعارات سميت (شعائر)، وعواطف لا نرى ضرورة للتشبث بها في عصر انتشار الكتاب والتلفزيون والكمبيوتر وأجهزة الأقمار الصناعية والفضائيات التي حولّت الكرة الأرضية كلّها إلى قرية صغيرة، يطلَع فيها ابن أقصى الشرق على ما يقوم به أو يفعله ابن أقصى الغرب، وبالعكس.

---

[1] ـ مهزلة العقل البشري ـ د. علي الوردي ص ٢ لندن ١٩٩٤ ص ٢٩٩ ـ علماً بأن الطبعة الأولى لهذا الكتاب كانت سنة ١٩٥٦) أي قبل أكثر من أربعة عقود، وما أشبه الليلة بالبارحة ـ كما يقولون ـ

إذن نترك الرسالة تتحدث عن نفسها، كما جاءت على لسان صاحبها آملين أن لا نكون قد سجّلنا انحيازاً غير مقصود لهذا الطرف أو ذاك، وعلى أمل أن يجري النقاش في دائرة الدين الواحد بل المذهب الواحد، والأسرة الواحدة، وأن تكون الصيحة مهما كانت قاسية في دائرة الصف الواحدة، لتصحيح هذا الصف أو تقويمه أو تقييمه، ونيّة المرء في نهاية المطاف، خير من عمله ـ كما يقولون ـ

فإلى رسالة «التنزيه» وصيْحة «التنزيه» في دائرة النزاهة والإخلاص، وانطلاقاً من إيماننا بحق الجميع في طرح الرأي واحترام الرأي الآخر وكل ذلك من أجل الترويج للخطاب الهادئ المعتدل والبقاء في دائرة الحوار المؤدب بعيداً عن الخطاب التكفيري المتطرف والأجواء المريضة المتشنجة.

أما الاختلاف، فإنه ـ كما قلنا ـ ضرورة من ضرورات التكامل وعِبْره (أي عبر الاختلاف الإيجابي) يتكامل الإنسان وينضج.

وحتى إذا اختلفنا كثيراً فسوف ينبئنا الله تعالى في ما نحن فيه مختلفون، وليس هناك أي مبرر لتحويل الاختلاف إلى ميادين احتراب وساحات قتل وحمامات دم كما يفعل الإرهابيون والتكفيريون ومَنْ لا دين لهم ولا ذمّة ولا ضمير.

نص رسالة التنزيه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم،

فإن الله سبحانه وتعالى أوجب إنكار المنكَر بقدر الإمكان بالقلب أو اليد أو اللسان. ومن أعظم المنكرات: اتخاذ البدعة سنّة والسنّة بدعة، والدعاية إليها

وترويجها، ولما كان إبليس وأعوانه إنما يضلون الناس من قبل الأمر الذي يروج عندهم كانوا كثيراً ما يُضلّون أهل الدين، بل هذا من أضرّ طرق الإضلال، وقلّما تكون عبادة من العبادات أو سنّة من السنن لم يُدْخِل فيها إبليس وأعوانه ما يفسدها. فمن ذلك إقامة شعائر الحزن على سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين بن علي «عليه السلام» من يوم استشهاده إلى اليوم.

ولما رأي إبليس وأعوانه ما فيها من المنافع والفوائد وأنه لا يُمكنهم إبطالها بجميع ما عندهم من الحيل والمكائد توسّلوا إلى إغواء الناس بحملهم على أن يُدخلوا فيها البدع والمنكرات وممّا يُشينها عند الأغيار قصداً لإفساد منافعها وإبطال ثوابها فأدخلوا فيها أموراً أجمع المسلمون على تحريم أكثرها وأنها من المنكرات وبعضها من الكبائر التي هدّد الله فاعلها وذمّه في كتابه العزيز.

(١) فمنها: الكذب؛ بذكر الأمور المكذوبة المعلوم كذبها وعدم وجودها في خبر ولا نقلها في كتاب، وهي تُتلى على المنابر وفي المحافل بُكرة وعشيّا، ولا من مُنكِرٍ ولا رادِع.

وسنذكر طرفاً من ذلك في كلماتنا الآتية إن شاء الله، وهو من الكبائر بالإتّفاق، لا سيما إذا كان كذباً على الله أو رسوله أو أحد الأئمة ـ عليهم السلام ـ

(٢) ومنها: إيذاء النفس وإدخال الضرر عليها، بضرب الرؤوس وجرحها بالمدى والسيوف حتى يسيل دمها، وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى الإغماء بنزف الدم الكثير وإلى المرض أو الموت وطول برء الجرح. وبضرب الظهور بسلاسل الحديد وغير ذلك. وتحريم ذلك ثابت بالعقل والنقل وبما هو معلوم من سهولة الشريعة وسماحتها الذي تَمدح به رسول الله (صلى الله عليه وآله) بقوله: «جئتكم بالشريعة السهلة السمحة» من رفْع الحرج والمشقّة في الدين بقوله تعالى: ﴿**ما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾.

(٣) ومنها: استعمال آلات اللهو كالطبل والزمر (الدمام) والصنوج النحاسية وغير ذلك.[1]

(٤) ومنها: تشبّه الرجال بالنساء في وقت التمثيل.

(٥) ومنها: إركاب النساء الهوادج مكشّفات الوجوه وتشبيههن ببنات رسول الله (ﷺ) وهو في نفسه محرّم لما يتضمنه من الهتك والمُثلة فضلاً عما إذا اشتمل على قبحٍ وشناعة أخرى، مثلما جرى في العام الماضي في البصرة من تشبيه إمرأة خاطئة بزينب «ع» وإركابها الهودج حاسرة على ملأ من الناس.

(٦) ومنها: صياح النساء بمسمع من الرجال الأجانب ولو فرض عدم تحريمه فهو معيب شائن منافٍ للآداب والمروءة يجب تنزيه المآتم عنه.

(٧) ومنها الصياح والزعيق بالأصوات المنكرة القبيحة.

(٨) ومنها كل ما يوجب الهتك والشنعة مما لا يدخل تحت الحصر ويختلف الحال فيه بالنسبة إلى الأقطار والأصقاع، إلى غير ذلك.

فإدخال هذه الأشياء في إقامة شعائر الحزن على الحسين «عليه السلام» كلّها من تسويلات إبليس ومن المنكرات التي تُغضب الله ورسوله «ﷺ» وتُغضب الحسين «عليه السلام» فإنه قُتل لإحياء دين جده «ﷺ» ورفع المنكرات، فكيف يرضى بفعلها؟ لاسيما إذا فُعِلت بعنوان أنها طاعة وعبادة!!

---

[1] - ربما نتحفـّظ على هذه الملاحظة والتي بعدها لأنّ الطبل والصنوج النحاسية والتشابيه والمشاعل والدمامات لا تدخل في باب اللهو هنا، وإنما في إطار التذكير بطبول الحرب ومزامير الظالمين التي استُخدمت لتحشيد المقاتلين بوجه الحسين (عليه السلام)، مع جلّ احترامنا لصاحب الرسالة السيد الأمين.

وقد رأينا في هذه الأيام أوراقاً مطبوعة[1] ذكر فيها صاحبها أنه يردّ على ناشئة عصرية من صفتها كذا، فطائفة منها ازدلفت إلى مشاهدهم المقدسة ببقيع الغرقد فهدمتها، وطائفة منهم قد تألبت لإبطال إقامة العزاء للنبي وآله وعترته أيام وفياتهم المعلومة لاسيما يوم عاشوراء.

ثم ذكر حُسْن إقامة المآتم والبكاء على الحسين «ﷺ» بما كفيناه مؤونته في كتابنا (إقناع اللائم على إقامة المآتم) كما كفيناه مؤونة الأمر الثاني في كتابنا (كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب) وفي قصيدتنا (العقود الدرّية).

وحسَّن فيها (أي كاتب تلك الأوراق) ما يفعله بعض الناس أيام عاشوراء من لبس الأكفان وكشف الرؤوس وجرحها بالمدي والسيوف حتى تسيل منها الدماء وتلطخ بها تلك الأكفان ودق الطبول وضرب الصنوج والنفخ في البوقات (الدمام) وغير ذلك، والسير في الأزقة والأسواق والشوارع بتلك الحالة.

وعرّض بنا وببعض فضلاء السادة في البصرة بسوء القول لنَهْينا عن قراءة الأحاديث المكذوبة، وعن هذا الفعل الشائن للمذهب وأهله والمنفر عنه والملحق به العار عند الأغيار، والذي يفتح باب القدح فيه وفي أهله ونسبتهم إلى الجهل والجنون وسخافة العقول والبعد عن محاسن الشرع الإسلامي واستحلال ما حكم الشرع والعقل بتحريمه من إيذاء النفس وإدخال الضرر عليها، حتى أدى الحال إلى أن صارت صورهم الفوتوغرافية تُعرض في المسارح وعلى صفحات الجرائد. وقد قال لنا أئمتنا «ع» «كونوا زَيْناً لنا ولا تكونوا شَيْناً علينا» وأمرونا بأن نفعل ما يُقال لأجله، «رحم الله جعفر بن محمد ما أحسن ما أدّب به أصحابه». ولم ينقل عنهم أنهم

---

[1]- أي فيها دفاع عما يراه السيد الأمين بدع وممارسات خاطئة في الشعائر وجاءت هذه الرسالة ردّ عليها، أي على تلك الأوراق.

رخّصوا أحداً من شيعتهم في ذلك ولا أمروهم به ولا فُعل شيء من ذلك في عصرهم لا سرّاً ولا جهراً.

وقد كتب على ظهرها (أي على ظهر الأوراق) أنها للمصلح الكبير!! فهل هذا هو الإصلاح الذي يوصف صاحبه بالمصلح الكبير؟ وهو يحثّ على أمر لو فُرض محالاً أنه ليس محرماً فهو مما يُلصق العار بالمذهب وأهله ويُنفّر الناس عنه ويفتح باب القدح فيه!

أليس من الورع والاحتياط في الدين التحاشي عنه؟ أما يقتضي الإصلاح لو كان القصد الإصلاح تركه والتجافي عنه صيانةً للمذهب وأهله من إلصاق العيب بهم والتنفير عنهم؟ لو فرض إباحته فهو ليس من واجبات الدين التي يضرّ تركها.

وكتب على ظهرها أيضاً أنها طُبعت على نفقة «الجمعية الدينية في النبطية» (كذا).

وقد أفاض صاحبها في ذكر خرافات العرب قبل الإسلام مما لا مساس له بالموضوع. وفي أمور أخرى كثيرة من هذا القبيل بعبارات مطولة، ولسنا بصدد استقصاء جميع ما فيها مما يوجب الانتقاد لأن ذلك يطول به الكلام ولا يتعلق به غرض، بل نقتصر على شقّ الرؤوس واستعمال الطبول والزمور ونحوها ونذكر نموذجاً ممن كلامه في غيرها مما وقَع نظرنا عليه اتفاقاً ليكون مثالاً لغيره.

كقوله[1]: نعم كانت حال سيدنا الحسين «عليه السلام» ومن على شاكلته من آله وصحبه كما ذكر لا بغية لهم بتلك الوثبة الليثية إلا إرجاع الحق لنصابه وعودة الملك لأهله والخلافة الإسلامية لسيرتها الأولى، لا يتقمصها سوى قرشي جامع لشرائطها ضليع في العلم والحلم والورع والزهد والقضاء والحكم والشجاعة والبراعة فائقاً أقوى

---

[1] - صفحة، ٢٠ (إشارة طبعاً إلى النشريّة التي ورد فيها الموضوع المقصود).

المسلمين نهضة بأعباء الطاعة وأثقال خالص العبادة ونصرة الحق وخذلان الباطل. يقول فصلاً ويحكم قسطاً ويقسم عدلاً، لم يسدل بينه وبين أمته حِجاباً ولم يقم على أبوابه حُجّاباً. مواسياً أضعف المسلمين في خشونة الملبس وجشوبة المطعم قد ثقفته الحكمة الإلهية وهذبته السنّة النبوية فلا تأخذه في الله لومة لائم ولا تقعده عن قول الحق عذلة عاذل...الخ).

وجاء فيها (صفحة ٢٢) قوله: وعلماء الأمة الغير متهمين (كذا) بمبالغة ولا تشيع. وقد تكرر منه إضافة ما فيه (أل) إلى العاري منها كقوله (صفحة ٤٢) واللغة الغير عربية وقوله (صفحة ٧٩) الغير مشروع وفي موضع آخر (صفحة ٢٧) قال الإمام الصادق «ﷺ» إلى أبي الصقيل (كذا). وفي موضع آخر (صفحة ٢٨) ومن نسيج هذا البكاء وعلى طرزه وشاكلته بكاء اللعين ابن سعد الخصم الألد والعدو المبين إلى آل ياسين (كذا). وجاء فيها أيضاً (صفحة ٢٨).

من ذا الذي يجترئ من الأمة الإسلامية على رسول الله وعلى صحابته كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وفاطمة وعائشة وأم سلمة وابني عباس ومسعود وأضرابهم من حملة الكتاب ونقلة السنّة وخدمة العلم وأئمة المذهب، فيرمي الجميع بسخطهم على الله وتبرمهم من حكمه وقضائه وامتحانه وبلائه حين يلم على سيرتهم (كذا) ويسير صحائف تأريخهم فيراهم بأسرهم كانوا يبكون لفقد أعزائهم وأحبائهم.[1]

وجاء فيها (ما لفظه) (صفحة ٣٢): الحسن والقبح للأشياء وإن كانا ذاتيين لها لا بالوجوه والاعتبار على الأقوى، بيد أن كونها كذلك نريد به أن الأشياء من قبيل المقتضيات للحسن والقبح نظير النار للإحراق يؤثران حيث لا مانع أما مع وجوده فلا، كالصدق الذي فيه هلكة نبي، والكذب الذي فيه منجاته فيبطل تأثيرهما

---

[1] - يبدو أن هذه الأوراق جاءت بقلم أحد الأخوة السنّة من سياق كلامه واستطراد تحليلاته ولحن قلمه.

كالرطوبة في الحطب المبطلة لإحراق النار له (ولم ندر) ما وجه الإقوائية في كون حسن الأشياء وقبحها ذاتياً، وما بالذات لا يتغير فكيف يكون الكذب المنجي للنبي حسناً والصدق المهلك له قبيحاً إذا كان قبح الكذب وحسن الصدق ذاتياً، وكلامه يدل على أنه توهّم أن الأفعال هي التي اقتضت قبح نفسها وحسنها وأثرت فيه...

وجاء فيها (صفحة ٤٢) ومن فجائع الدهور وفظائع الأمور وقاصمات الظهور وموغرات الصدور ما نقلته بعض جرائد بيروت في هذا العام عمن نحترم أشخاصهم من المعاصرين الوطنيين من تحبيذ ترك المواكب الحسينية والاجتماعات العزائية بصورها المجسمة في النبطية وغيرها فما أدري أصدَق الناقل أم كذَب فإن كان صادقاً فالمصيبة على الدين جسيمة عظيمة لا ينوء بها ولا ينهض بعبئها عاتق المتدينين (إلى آخر ما هنالك).

ونقول: هذا التهويل وتكثير الاسجاع لا يفيد شيئاً ولو أضيف إليه أضعافه من قاطعات النحور ومجففات البحور ومفطرات الصخور ومبعثرات القبور ومهدمات القصور ومسقطات الطيور. بل إن من فجائع الدهور وفظائع الأمور وقاصمات الظهور وموغرات الصدور اتخاذ الطبول والزمور وشق الرؤوس على الوجه المشهور وإبراز شيعة أهل البيت وأتباعهم بمظهر الوحشية والسخرية أمام الجمهور مما لا يرضى به عاقل غيور، وعُد ذلك عبادة ونسبته إلى أهل البيت الطهور.[1]

بين الرخصة والعزيمة

ويواصل صاحب رسالة التنزيه ردّه على من يروّج للتطبير ويدافع عنه قائلاً:

---

[1] - وهنا يريد السيد محسن الأمين أن يحاكي الكاتب في سجعه ساخراً طبعاً.

والمواكب الحسينية والاجتماعات العزائية لا تحسن ولا تحلّ (من حلال) إلا بتنزيهها عما حرمه الله تعالى وعما يشين ويعيب وينسب فاعله إلى الجهل والهمجية، وقد بيّنا أن الطبل والزمر وإيذاء النفس والبروز بالهيئة المستبشعة مما حرمه الشرع ولم يرضه لأوليائه سواء وقع في النبطية أو القرشية أو مكة المكرمة.

وجاء فيها (صفحة ٤٦) قالوا إنا نجد قرّاء التعزية كثيراً ما يسردون على مسامع الجالسين أحاديثاً (كذا) مكذوبة وأجاب (صفحة ٤٩) بما لفظه: وكثير من أساطين العلماء يعملون بضعاف الأخبار في السنن، ومن المعلوم أن روايات التعزية من سنخ الرخص لا العزائم والله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه.

وإنا نسأله ما ربط عمل العلماء بالخبر الضعيف في السنن بأخبار التعزية التي هي أمور تأريخية لا أحكام شرعية وما ربط الخبر الضعيف بالمقام والقائل الموهوم إنما قال إنهم يوردون أحاديث مكذوبة ولم يقل ضعيفة الإسناد وما معنى أن روايات التعزية من سنخ الرخص لا العزائم، فالرخصة خاصة بالمباح والمستحب والمكروه والعزيمة بالحرام والواجب، فما معنى أن روايات التعزية من الرخص فهل تلك الروايات نفسها مباحة أو مكروهة أو مستحبة فإن كان المراد نفس الرواية فلا تتصف بشيء من ذلك وإن كان المراد نقلها فأي معنى لكون نقلها رخصة لا عزيمة مع أنها إن كانت كذباً كان نقلها محرماً وإن كان المراد مضمونها فهو قصة تأريخية لا تتصف برخصة ولا عزيمة.

ولو فرض أن مضمونها حكم شرعي فلابد أن يكون أحد الأحكام الخمسة التكليفية فكيف جعل رخصة فقط.

وقوله: إن الله يحب أن يخفف على عبده بترك المستحب مثلاً كما يحب أن يلتزم بفعل الواجب وترك المحرم فما ربط ذلك بإيراد الرواية المكذوبة في التعزية.

وجاء فيها (صفحة ٤٦) قالوا: وجلّهم، أي قراء التعزية، يتْلون الحديث ملحوناً (وأجاب) بما ملخصه على طوله أن المستمعين أمم عديدة ألسنتها شتى منهم عربي وفارسي وتركي وهندي وإلخ، ومنهم عوام فينقل لهم معنى الأحاديث بألفاظهم العامية، إلى أن قال وأي حاجة ماسّة للعربية الفصحى في قراءة التعزية على أمة أميّة كمعدان العراق وقروية الشام وسكان بادية نجد والحجاز واليمن المصطلحين فيما بينهم على وضع ألفاظ معلومة.

وأنت ترى أن الجواب غير منطبق على هذا المقال الموهوم فالقائل يقول الأحسن رفع اللحن من قراءة التعزية وهو يقول في جوابه إن المستمعين منهم عربي وفارسي وتركي وهندي، فما ربط الفارسي والتركي والهندي والجاوي بالمقام، فلم يقل القائل إنه لا ينبغي قراءة التعزية بالتركية للأتراك والفارسية للفرس وبالهندية للهنود بل يقول ينبغي لقرّاء التعزية بالعربية للعرب عدم اللحن، ولم يقل إنه لا ينبغي أن يقرأ الحديث بالمعنى حتى يجيبه بأن منهم عواماً فينقل لهم الحديث بالمعنى بألفاظهم العامية على أن ذلك أمر غير واقع، فليس في قراء التعزية من يقرأ بالألفاظ العامية بل كلهم يقرأون بالعربية الفصحى ولكن مع اللحن والقائل لم يأب عن قراءة التعزية بالألفاظ العامية كالنعي المتعارف، بل يقول إذا قرئ الشعر لا يحسن أن يكون ملحوناً وإذا نقل حديث أو خطبة ينبغي أن لا يكون فيه لحن. والقائل يقول لا ينبغي اللحن في قراءة التعزية وهو يقول في جوابه لا يلزم قراءتها بالعربية الفصحى.

ولو فرضنا أنه أراد من العربية الفصحى عدم اللحن فيقال له إذاً أي حاجة إلى ترك اللحن في جميع الكلام ولماذا وضع النحو وكتب العربية وهل قراءة الفاعل مخفوضاً والمفعول مرفوعاً تزيد في فهم المعاني لمعدان العراق وقروية الشام وسكان بادية نجد واليمن والنازلين بأرياف مصر والحالين في نواحي حضرموت والمتبوئين

صحراء أفريقيا وبلاد المغرب، وما الذي ضره من عدم اللحن في قراءة التعزية وما القارئ إلا خطيب.

وما الذي يدعوه إلى كل هذه المدافعة عن اللحن في القراءة؟ أهو حب الإصلاح أم أمر آخر؟ وهل إذا تلونا الحديث والشعر بدون لحن فاستجلبنا به قلب ذي المعرفة ولم تنفره بسماع الغلط وصنّا الحديث عن اللحن والغلط وعن الخطأ في فهم المعنى بسبب اللحن ولم نجعل تفاوتاً على غير ذي المعرفة الذي لا يضره رفع الفاعل ولا يزيد في فهمه خفضه يكون عملنا هذا مضراً وعكسه نافعاً، والمستمعون كما يوجد فيهم المعدان يوجد فيهم أهل العلم والمعرفة.

انتقاء الأحاديث

قال (صفحة ٥١): وممن طعن على القراء للتعزية بعض المعاصرين زعم أن الكثير منهم بين مخلق (كذا)[1] للأخبار وبين ماسخ لها وعنده هذا الطعن عليه (انتهى)

ومراد كاتب هذه السطور الذي بعدما ذكر في مقدمة (المجالس السنّية) حسن إقامة العزاء والبكاء على سيد الشهداء واستدل عليها بأوضح الأدلة وأمتنها قال ما لفظه:

هذا ولكن كثيراً من الذاكرين لمصابهم «ع» قد اختلقوا أحاديث في المصائب وغيرها لم يذكرها مؤرخ ولا مؤلف ومسخوا بعض الأحاديث الصحيحة وزادوا ونقصوا فيها لما يرونه من تأثيرها في نفوس المستمعين الجاهلين بصحة الأخبار وسقمها إلى آخر ما ذكرناه. و(المجالس السنّية) إنما ألفناها لتهذيب قراءة التعزية

---

[1] - صفحة الصواب المختلف.

وإصلاحها من العيوب الشائنة والمحرمات الموبقة من الكذب وغيره وانتقاء الأحاديث الصحيحة الجامعة لكل فائدة، فقام هذا الرجل يرمينا بأن هذا الطعن علينا بأننا نختلق الأحاديث ونمسخها، وجاء بعبارته هذه التي جمجم فيها وبترها وأبت نفسه إلا يذكرها والله تعالى يعلم وعباده يعلمون وهو نفسه يعلم أننا لسنا كذلك وأننا نسعى جهدنا ونصرف نفيس أوقاتنا وعزيز أموالنا في تأليف الكتب وطبعها ونشرها، لا نستجدي أحداً ولا نطلب معونة مخلوق قصداً لتهذيب الأحاديث التي تقرأ في إقامة العزاء من كل كذب وعيب وشين ليكون الذاكرون من الخطباء الذين تستجلب قراءتهم الأنظار وتستهوي إليها الأفئدة والأسماع وتستميل الطباع، وليكون أثرهم في النفوس بقدر ميلها إليها ولتكون مفخراً للشيعة لا عاراً عليهم، ولتكون قراءتهم عبادة خالصة من شوب الكذب الموجب لانقلابها معصية.

فإن إقامة شعائر الحزن بذكر صفات الحسين «ع» ومناقبه ومآثره ووصف شجاعته وإبائه للضيم وفظاعة ما جرى عليه وذكر المواعظ والخطب والآداب ومُستحسن أخبار السلف وغير ذلك والتخلص إلى فاجعة كربلاء على النهج المألوف مع تهذيبها عن المنافيات والمنكرات من أنفع المدارس وأقوى أسباب التبشير بالدين الإسلامي وطريقة أهل البيت «ع» وجلب القلوب إلى حبهم والسير على طريقتهم والاتصاف بكريم صفاتهم.

كما أن إقامتها على غير هذه الطريقة من أقوى أسباب التنفير عند دين الإسلام وطريقة أهل البيت «ع» يعرف ذلك كل منصف ونحن نذكر لك واقعة واحدة تكون نموذجاً لما نقوله وهي: أنه اتفق وجودنا في مدينة بعلبك في وفاة بعض آلاء السادة من آل مرتضى فقرأ رجل من قراء التعزية الذين عودناهم على عدم اللحن في القراءة وخطبة من النهج في صفة الأموات، وكان بعض عرفاء المسيحيين حاضراً فقال لجلسائه «إنني لم أعجب من بلاغة هذا الكلام الذي هو غاية في البلاغة ولا من

جري القارئ في قراءته كالسيل ولا من مضامين هذا الكلام الفائقة وإن كان ذلك كله موضع العجب وإنما عجبت من عدم لحن هذا القارئ فيما قرأه على طوله».

روايات ضعيفة

يقول: إننا نزعم أن الكثير منهم بين مختلق للأخبار ثم يشتمنا بهذا القول!! وما ندري ماالذي يزعمه هو؟ أيزعم أنهم كلهم ليسوا كذلك؟! كيف وغالبهم عوام يخلطون الحابل بالنابل ولا ننكر أن فيهم الفضلاء الكاملين الذين يُفتخر بأمثالهم وقليل ما هم وكأنّ الكثير منهم ليسوا كذلك كما هو مُشاهد بالعيان، ويجهل أو يتجاهل قراءتهم حديث «أين ضلت راحلتك يا حسان» الذي اختلقه بعض آل قفطان على سطح مسجد الكوفة، كما هو مشهور عند فضلاء النجف وغيرهم. أو حديث «خرجت أتفقد هذه التلاع مخافة أن تكون مظناً لهجوم الخيل على مخيمنا يوم يحملون وتحملون» وإلا فليدلنا في أي كتاب هذا الحديث؟ وأي رواية جاءت به ضعيفة أو صحيحة؟

أم حديث «أن البرد لا يزلزل الجبل الأصم ولفحة الهجير لا تجفف البحر الخضم» أو حديث «قول شمر للحسين «عليه السلام» بعدك حياً يا ابن الخارجي» أو حديث «أي جرح تشده لك زينب».

أو حديث «مخاطبة زينب للعباس حين عرض شمر عليه وعلى أخوته الأمان». أو حديث «مجيء زين العابدين لدفن أبيه مع بني أسد». أو حديث «درة الصدف التي حاربت مع الحسين «عليه السلام»» أو حديث «مجيء الطيور التي تمرغت بدم الحسين «عليه السلام» وذهبت إلى المدينة ومعرفة فاطمة الصغرى بقتل أبيها من تلك الطيور». أو غير هذه

من الأحاديث الكثيرة التي تُقرأ على المنابر وهي من الكذب الصراح والتي يطول الكلام بالإشارة إليها في هذه العجالة. أم يزعم أن قراءة الأحاديث المختلقة خير من قراءة الأحاديث الصحيحة المروية قصداً للإصلاح؟!!

وحاصل مقصود هذا (المصلح الكبير) أن لا ينبه أحد من قراء التعزية على ترك قراءة الأحاديث المكذوبة ولا على ترك اللحن ولا على قراءة بعض ما ينفر السامعين، بل يريد أن تبقى الأحاديث ممزوجاً صحيحاً بسقيمها وغثّها بسمينها وصدقها بكذبها وخطأها بصوابها وقشرها بلبابها ولحنها بإعرابها، فحبذا هذا الإصلاح!! وما ندري ما الذي يسوؤه من حمل القراء على قراءة الأحاديث الصحيحة وما الذي يعجبه من قراءة الأحاديث المكذوبة والملحونة وليس هو بقارئ تعزية ولا أقامه القرّاء محامياً ووكيلاً عنهم؟

الحجامة والتطبير

ومما قاله (صفحة ٧٩) في تحسين لبس الأكفان وكشف الرؤوس وشقها بالمدى والسيوف يوم عاشوراء: ما الذي نقموه على هذه الفئة وسفهوا لأجله أحلامها وأخرجوها به من دائرة الإنسانية؟ ألبسها لبس الموتى؟ فهذا عمل غير معيب عقلاً وهو مشروع ديناً في إحرام الحج ومندوب في كل آن تذكرة للآخرة وتأهباً للموت، وكفى به واعظاً ومن الغرور بالدنيا محذراً ومنذراً، أم كشفها عن رؤوسها، وهذا أيضاً مستحسن طباً مشروع بالإحرام ديناً أم بضعها رؤوسها بآلة جارحة، وهذا أيضاً مسنون شرعاً إذ هو ضرب من الحِجامة والحِجامة تلحقها الأحكام الخمسة التكليفية مباحة بالأصل والراجح منها مستحب والمرجوح مكروه والمضر محرم والحافظ للصحة واجب، فقد تمس الحاجة إلى عملية جراحية تفضي إلى بتر عضو أو أعضاء

رئيسية حفظاً لبقية البدن وسداً لرمق الحياة الدنيوية والحياة الدنيا بأسرها وشيكة الزوال والاضمحلال؟ أتباح هذه الجراحة الخطرة لفائدة ما دنيوية ولا تباح جراحة ما في إهاب الرأس لأعظمها فائدة وأجلها سعادة أخروية وحياة أبدية وفوز بمرافقة الأبرار في جنة الخلد (انتهى)

قوله: الحجامة مباحة بالأصل، بل هي محرمة بالأصل لأنها ضرر وإيذاء للنفس ولا تحل إلا مع الضرورة لدفع مرض أو ألم أعظم منها وإلا كانت كفعل حجام ساباط الذي ضرب به المثل فقيل: «افرغ من حجّام ساباط» وكان إذا لم يجد من يحجمه حجم زوجته وأولاده.

قوله: والمرجوح مكروه، فيه أنه يشمل المكروه والحرام ولم يبين متى يكون مرجوحاً. قوله: والراجح مستحب، فيه أنه يشمل الواجب والمستحب. قوله:

والحافظ للصحة واجب، فيه أنه لا يجب دائماً فمع الخوف على النفس يجب وبدونه يستحب. وحيث جعل شق الرؤوس نوعاً من الحجامة فهو إما واجب وذلك حينما يخشى الضارب على نفسه الهلاك لو لم يضرب نفسه، بأن يخبره الطبيب الحاذق أن في رأسه مرضاً مهلكاً لا يشفيه إلا جرْحُ رأسه وشقه، أو مستحب بأن يكون الضارب محموماً حمّى شديدة ويخبره الطبيب الحاذق أن دواءه في شق رأسه وإخراج الدم منه، ويشترط في هذين عدم التعرّض للشمس وشدة الحركة الذي قد يوجب شدّة مرضه أو هلاكه. وإمّا محرم وذلك حيث يكون إيذاءً صرفاً وضرراً بحتاً.

وحيث إن الذين يضربون رؤوسهم وليس في رؤوسهم داء ولا في أبدانهم حمى فانحصر فعلهم في الحرام. وإذا كان محرماً لم يكن مقرباً إلى الله ولا موجباً لثوابه بل موجباً لعقابه ومغضباً لله ولرسوله «ﷺ» وللحسين «عليه السلام» الذي قتل لإحياء شرع جده «ﷺ». **قوله:**

قد تمس الحاجة إلى عملية جراحية إلخ...، فيه أن العملية الجراحية المفضية إلى بتر العضو أو الأعضاء تباح بل تجب لأنها مقدمة لحفظ النفس الواجب، وتباح لأجل الضرورة فإن الضرورات تبيح المحذورات فيقدم الأهم وهو حفظ النفس على المهم وهو عدم الإيذاء والإضرار ويرتكب أخف الضررين ولكن الحرام لا يباح لإدراك المستحب فالاستحباب لا يعارض الحرمة ولا يُطاع الله من حيث يُعصى ولا يتقبل الله من المتقين. ومن ذلك تعلم أن قوله:

تباح هذه الجراحة الخطرة لفائدة ما دنيوية ولا تباح جراحة ما في إهاب الرأس لأعظمها فائدة وأجلها سعادة أخروية؟! كلام شعري فإن الفائدة الأخروية وهي الثواب لا تترتب على فعل المحرم فلا يكون في هذا الفعل إلا الضرر الدنيوي والأخروي.

اين هذه من تلك؟

ويواصل السيد الأمين ردّه على صاحبه ولكنْ هذه المرة بتندّر واستخفاف واضحين فيقول:

وما أشبه هذا الكلام الشعري بما يُحكى أن رجلاً صوفياً سرق تفاحة وتصدق بها فسأله الإمام الصادق «ع» عن سبب فعله ذلك، فقال إنه لما سرقها كُتبت عليه سيئة فلما تصدق بها كتبت له عشر حسنات لأن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، فإذا أسقطنا سيئة من عشر حسنات بقي تسع حسنات، فقال له الصادق «ع» إن هذا جهل؛ أوَما سمعت قوله تعالى: ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾إنك لما سرقت التفاحة كتبت عليك سيئة فلما تصدقت بها كتبت عليك سيئة أخرى لأنك تصدقت بغير مالك أو ما هذا معناه.

ثم قال(صفحة ٧٩) لا يقال إن السعادة والفوز غداً لا يترتبان على عمل ضروري غير مجعول في دين الله لأنا نقول أولاً الغير مشروع (كذا) في الإسلام من الأمور الضرورية هو ما خرج عن وسع المكلف ونطاق طاقته لقبح التكليف حينئذ بغير مقدور.

أما ما كان مقدوراً فلم يقم برهان عقلي ولا نقلي على منع جعله وكونه شاقاً ومؤذياً لا ينهض دليلاً على عدم جعله، إذ التكاليف كلها مشتقة من الكلفة وهي المشقة وبعضها أشد من بعضها وأفضلها أحمزها، وعلى قدر نشاط المرء يكون تكليفه وبزنة رياضة المرء نفسه وقوة صبره وعظمة معرفته يكلف بالأشقّ فالأشقّ زيادة الأجر وعلواً للرتبة ومزيداً للكرامة ومن هاهنا كانت تكاليف الأنبياء أشق من غيرها ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل.

وفي الخبر أن عظيم البلاء يكافئه عظيم الجزاء. وفي آخر أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل من المؤمنين وعباد الله الصالحين، وهكذا إلى الطبقة السفلى وهي طبقة المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فهم أخف تكليفاً من سائر الطبقات. انتهى.

قوله: لا يترتبان على عمل ضرري غير مجعول في دين الله، فيه أن الجعل للأحكام لا للأعمال فيقال هذا الحكم مجعول في دين الله أو غير مجعول بل يقال جائز أو غير جائز أو نحو ذلك. قوله: لأننا نقول أولاً الغير مشروع (كذا) في الإسلام إلخ...، فيه (أولاً) أن قوله الغير مشروع لحن غير مسموع تكرر وقوعه منه كما نبهنا عليه إذ لا يجوز دخول أل على المضاف إلا إذا دخلت على المضاف إليه كالجعد الشعر، (ثانياً) أنه ذكر أولاً ولم يذكر ثانياً. قوله:

أما ما كان مقدوراً فلم يقم برهان عقلي ولا نقلي على منع جعله فيه (أولاً) أن الكلام في العمل الذي فيه ضرر كما صرح به في قوله لا يترتبان على عمل ضرري

والجعل للحكم لا للعمل كما مر فكأنه اشتبه عليه ما سمعه من أن الله لم يجعل حكماً ضررياً بمقتضى قوله (ﷺ) (لا ضرر ولا ضرار) وما يريد أن يثبته من أن الله يجوز أن يكلف بما فيه ضرر كشف الرؤوس فخلط أحدهما بالآخر.

(ثانياً) قوله: لم يقم برهان عقلي ولا نقلي على منع جعله إن أراد به أنه لم يقم برهان على جواز أن يكلف الله بما فيه ضرر فأين قول الفقهاء: دفع الضرر المظنون واجب؟ وأين اكتفاؤهم باحتمال الضرر الموجب لصدق خوف الضرر في إسقاط التكليف؟ وأين قولهم بوجوب الإفطار لخائف الضرر من الصوم وببطلان غسل من يخاف الضرر لحرمة الغسل واقتضاء النهي الفساد في العبادة ووجوب التيمم حينئذ؟ وأين قولهم بوجوب الصيام وإتمام الصلاة على المسافر الذي يخاف الضرر على نفسه بالسفر لكون سفره معصية وقولهم بسقوط الحج عمن يكون عليه عسر وحرج في الركوب والسفر أو يخاف الضرر بسفره إلى غير ذلك من الأحكام المنتشرة في أبواب الفقه.

قوله: وكونه شاقاً ومؤذياً لا ينهض دليلاً على عدم جعله، فيه أنه أعاد لفظ الجعل وقد عرفت أنه ليس له هنا محل وجمع بين الشاق والمؤذي وهما غيران حكماً وموضوعاً فالمؤذي هو الضار يحرم فعله ولم يكلف الله به، والشاق الذي فيه عسر وحرج لم يكلف الله به لقوله تعالى: (ما جعل عليكم في الدين من حرج) إلا في موارد مخصوصة لكن ربما يجوز فعله إذا لم يكن مضراً.

ومن الطريف قوله: التكاليف كلها مشتقة من الكلفة فإن الكلفة إذا بلغت حد العسر أسقطت التكليف كما عرفت، وإذا بلغت إلى حد الضرر أوجبت حرمة الفعل. وأفضل الأعمال أحمزها إذا لم تصل إلى حد الضرر وإلا حرمت فضلاً عن أن تكون أفضل أو غير أفضل. قوله على قدر نشاط المرء يكون تكليفه...إلخ، فيه أن تكاليف الله لعباده واحدة لا تتفاوت بالنشاط والكسل وقوة الصبر وعظمة المعرفة فالواجبات

يكلف بها الجميع لا يسقط واجب عن أحد بكسله وضعف صبره وحقارة معرفته، ولا يباح محرم لأحد بشيء من ذلك ولا يجب مباح ولا يحرم على أحد بقوة صبره ونشاطه وعظمة معرفته، وكذا المستحبات والمكروهات. نعم الكسلان كثيراً ما يترك المستحب وقليل الصبر كثيراً ما يفعل المكروه والتكليف في الكل واحد، وليس في الشريعة تكليف لشخص بغير الشاق ولآخر بالشاق ولشخص بالشاق والآخر بالاشق بحسب تفاوت درجاتهم ومراتبهم في النشاط والرياضة والصبر والمعرفة.

ومن هنا تعلم فساد قوله: ومن ها هنا كانت تكاليف الأنبياء أشق من غيرها ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل؟ نعم كلف نبينا (ﷺ) دون غيره بأشياء خاصة مثل صلاة الليل فكانت واجبة عليه كما أبيح له أشياء خاصة دون غيره منها الزيادة على أربع أزواج وباقي التكاليف يتساوى فيها مع غيره وأين هذا مما نحن فيه.

بين الابتلاء والتكليف... مناقشة مهمة

قوله: وفي الخبر أن عظيم البلاء يكافئه عظيم الجزاء، هذا أجنبي عن المقام إذ المراد بالبلاء هو المصائب الدنيوية من موت الأولاد وذهاب الأموال والقتل وتسلط الظالم وأمثال ذلك وأي ربط لهذا بما نحن فيه من التكليف بالشاق أو ما فيه ضرر؟

وهكذا خبر أن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل، ليس معناه أشد الناس تكليفاً بل المراد بذلك المصائب والبلايا الدنيوية التي تصدر عليهم كما صدر على النبي (ص) وأهل بيته (ع) وأوليائهم. وفي أي لغة يصح تفسير البلاء بالتكليف. وهل الذين يشقون رؤوسهم من أمثل الطبقات حتى كلفوا بذلك والعلماء وخيار المؤمنين ليسوا كذلك فلم يكلفوا به ولم يفعلوه.

وأما المستضعفون فهم القاصرون في الإدراك الذين رفع الله عنهم بعض التكاليف التي لا يمكنهم معرفتها لقصور إدراكهم كما هو رفعْ التكاليف عن المجانين لحكم العقل بقبح تكليف الجميع فأين هذا مما نحن فيه؟

قال(في صفحة ٨٠) ولو كان الشاق وإن دخل تحت القدرة والطوق غير مشروع ما فعلته الأنبياء والأولياء، ألم يقم النبي (ﷺ) للصلاة حتى تورمت قدماه؟ ألم يضع حجر المجاعة على بطنه مع اقتداره على الشبع؟ ألم يحج الأئمة مشاة حتى تورمت أقدامهم مع تمكنهم من الركوب؟ الم يتخذ علي بن الحسين البكاء على أبيه دأباً والامتناع من تناول الطعام والشراب حتى يمزجهما بدموعه ويغمى عليه في كل يوم مرة أو مرتين؟

أيجوز للنبي وآله (ص) إدخال المشقة على أنفسهم طمعاً بمزيد الثواب ولا يجوز لغيرهم؟ أيباح لزين العابدين أن ينزل بنفسه ما ينزله من الآلام تأثراً وانفعالاً من مصيبة أبيه ولا يباح لوليه أن يؤلم نفسه لمصيبة إمامه؟ أينفض العباس الماء من يده وهو على ما هو عليه من شدّة الظمأ تأسياً بعطش أخيه ولا نقتصّ أثره؟ أيقرح الرضا (عليه السلام) جفون عينيه من البكاء والعين أعظم جارحة نفيسة ولا نتأسى به فنقرح على الأقل صدورنا ونجرح بعض رؤوسنا؟ أتبكي السماء والأرض تلك بالحمرة وتأتي بالدم العبيط ولا يبكي الشيعي بالدم المهراق من جميع أعضائه وجوارحه؟ ولعل الإذن من الله لسمائه وأرضه أن ينزف (كذا) على الحسين ما تشعر بترخيص الإنسان الشاعر لتلك المصيبة الراتبة أن ينزف من دمه ما استطاع نزفه إجلالاً وإعظاماً.

وهب أنه لا دليل على الندب فلا دليل على الحرمة مع أن الشيعي الجارح نفسه لا يعتقد بذلك الضرر ومن كان بهذه المثابة لا يلزم بالمنع من الجرح وإن حصل له منه الضرر اتفاقاً (انتهى).

وقد عرفت أن المشقة إذا وصلت إلى حد العسر والحرج أوجبت رفع التكليف بالإجماع. قال تعالى: (ما جعل عليكم في الدين من حرج) ولم توجب تحريم الفعل، وإذا وصلت إلى حد الضرر أوجبت رفع التكليف وحرمة الفعل.

أما استشهاده بقيام النبي (ﷺ) للصلاة حتى تورمت قدماه فإن صح فلا بد أن يكون من باب الاتفاق، أي ترتب الورم على القيام اتفاقاً ولم يكن النبي (ﷺ) يعلم بترتبه وإلا لم يجز القيام المعلوم أو المظنون أنه يؤدي إلى ذلك، لأنه ضرر يرفع التكليف ويوجب حرمة الفعل المؤدي إليه وإلا فأين ما اتفق عليه الفقهاء من أنه إذا خاف المكلف حصول الخشونة في الجلد وتشققه من استعمال الماء في الوضوء انتقل فرضه إلى التيمم ولم يجز له الوضوء مع أنه أقل ضرراً وإيذاء من شق الرؤوس بالمدى والسيوف إلى غير ذلك.

وأما وضعه (ﷺ) حجر المجاعة على بطنه مع اقتداره على الشبع فلو صحّ لحُمل على صورة عدم خوف الضرر الموجب لحرمة ذلك لكنْ من أين ثبت أنه (ﷺ) كان يتحمل الجوع المفرط الموجب لخوف الضرر اختياراً مع القدرة على الشبع، وكذا استشهاده بحج الأئمة (ع) مشاة هو من هذا القبيل.

أما بكاء علي بن الحسين (عليه السلام) على أبيه المؤدي إلى الإغماء وامتناعه عن الطعام والشراب فإن صح فهو أجنبي عن المقام فإن هذه أمور قهرية لا يتعلق بها تكليف وما كان منها اختيارياً فحاله حال ما مرّ.

وأما نفض العباس الماء من يده تأسياً بعطش أخيه فلو صح لم يكن حجة لعدم العصمة، وأما استشهاده بتقريح الرضا (عليه السلام) جفون عينيه من البكاء فإن صح فلابد أن يكون حصل ذلك قهراً واضطراراً لا قصداً اختياراً وإلا لحرُمَ. ومن يعلم أو يظن

أن البكاء يقرح عينيه فلا يجوز له البكاء إن قدر على تركه لوجوب دفع الضرر بالإجماع وحكم العقل.

أما قوله أتبكي السماء... إلخ فكلام شعري صرف لا يكون دليلاً ولا مؤيداً لحكم شرعي. أما قوله: وهب أنه لا دليل على الندب فلا دليل على الحرمة، فطريف لأن الأصل في المؤذي والمضر حرمة. ودفع الضرر واجب عقلاً ونقلاً. ومثله قوله: مع أن الشيعي الجارح لا يعتقد بذلك الضرر فإن الجرح نفسه ضرر وإيذاء محرم ولا يحتاج إلى اعتقاد أنه يترتب عليه ضرر أولاً، وذلك لا يتفاوت فيه الشيعي وغيره فالكل ذو لحم ودم لا دخل فيه للمذهب.

لم تقولون ما لا تفعلون

ثم نقول عطفاً على قوله: أيقرح الرضا جفون عينيه ولا نتأسى به فنقرح على الأقل صدورنا ونجرح بعض رؤوسنا: إنا لم نر كم مرة جرحتم بعض رؤوسكم ولا كلّها ولا قرحتم صدوركم من اللطم ولا فَعَلَ ذلك أحد من العلماء وإنما يفعله العوام والجهلة. ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾. ﴿**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون**﴾.

ونقول عطفاً على قوله: أتبكي السماء والأرض بالحمرة والدم ولا يبكي الشيعي بالدم المهراق من جميع أعضائه: إننا ما رأيناكم أهرقتم دماً طول عمركم للحزن من بعض أعضائكم ولا من جميعها فلماذا تركتم هذا المستحب المؤكد تركاً أبدياً وهجرتموه هجراً سرمدياً ولم يفعله أحد من العلماء في عمره بجرح صغير كبضعة الحجام ولماذا لم يلبسوا الأكفان ويحملوا الطبول والأبواق وتركوا هذه المستحبات تفوز بها العوام والجهلة دونهم؟!

قال(في صفحة ٨٢) ولعل إمساك النكير من علماء الشيعة عن هذه الفئة التي شعار حزنها على الإمام الشهيد بتبضيع رؤوسها وإهراق دمائها إنما لأنهم يرون أعمالها مستحبة تعظيماً لشعائر الدين الذي هو من تقوى القلوب.

ونقول لو كان الأمر كذلك لكان ينبغي للعلماء أن يبادروا إلى هذا الفعل ويكونوا هم المبتدئين به فيدقوا الطبول ويضربوا بالصنوج وينفخوا في الأبواق ويخرجوا حاسرين لابسي الأكفان ضاربين رؤوسهم وجباههم بالسيوف أمام الناس لنقتدي بهم كما اقتدت بهم في نصب مجالس العزاء وغيرها، فهم أحق الناس بتعظيم شعائر الدين لو كان هذا منها وإذا لم يفعل الجميع ذلك فعلى الأقل واحد أو إثنان أو ثلاثة من العلماء مع أنهم يُعدّون بالألوف.

ولم تكن هذه الأعمال معروفة في جبل عامل ولا نُقِلَ أن أحداً فعلها فيه وإنما أحدثها في هذا العصر بعض عوام الغرباء وساعد على ترويجها بعض من يرتزق بها، ولم يُنقل عن أحد من علماء جبل عامل أنه أذِن فيها أو أمر بها في عصر من الأعصار، حتى في الأعصار التي كان جبل عامل يتمتع فيها بحريته التامة في عهد أمرائه من الشيعة الذين كان لهم فيه الحول والطول من آل علي الصغير والصعبية والمناكرة كعصر الأمير العظيم الشيخ ناصيف النصار شيخ مشائخ جبل عامل والأمير الشيخ عباس صاحب صور وحمد البك والشيخ علي الفارس وعلي بك الأسعد وتامر بك وغيرهم رحمهم الله تعالى أجمعين، مع كثرة العلماء في عصرهم وشدة إطاعتهم لأوامرهم ولا في عصر أحد من علمائنا المتأخرين المعاصرين كالشيخ عبد الله نعمة والشيخ محمد علي عز الدين والسيد حسن إبراهيم والشيخ موسى شرارة الذي بذل جهده في نشر إقامة شعائر العزاء وأدخل فيها كثيراً من الإصلاح، والسيد علي محمود والسيد محمد محمود والسيد حسن يوسف وغيرهم من علماء جبل عامل الأعلام قدّس الله أرواحهم.

بل لم ينقل ناقل أن أحداً فعلها من عوام الشيعة ولا أن أحداً أجازها من علمائهم في الأعصار التي كانت ملوك البلاد الإسلامية فيها كلها شيعة وذلك في العصر البويهي الذي كان ملك فارس والعراق وغيرها فيه لآل بويه ولم يكن لخلفاء بني العباس معهم إلا الإسم، وملك الشامات والجزيرة لبني حمدان وملك مصر وأفريقيا والمغرب للفاطميين وكان في عصرهم من أجلاء علماء الشيعة وعظمائهم أمثال الشيخ المفيد والشريفين المرتضى والرضي مع ما كان عليه بنو بويه من التشدد في نشر إقامة العزاء حتى كانت في زمانهم تعطل الأسواق في بغداد يوم عاشوراء وتقام مراسم العزاء فيها وفي الطرقات ولم ينقل أحد أنّه وقع في زمانهم شيء من جرح الرؤوس بالسيوف والمدي.

قال(صفحة ٨٢): على أن جلّ أساطين علمائنا المتأخرين كشيخ الطائفة الشيخ جعفر في (كشف الغطاء) والميرزا القمي في (جامع الشتات) والحجة الكبرى الشيخ مرتضى الأنصاري في رسالته (سرور العباد) والفقيه المتبحر الشيخ زين العابدين الحائري في (ذخيرة المعاد) والعالم الناسك المتورع الشيخ خضر شلال في كتابه (الجنان) وحجة الإسلام الميرزا حسين النائيني في أجوبته لأهل البصرة وجميع علمائنا المعاصرين.

وقد جاءت عبارته: بدون خبر كما سمعت. أما نسبة ذلك إلى شيخ الطائفة في (كشف الغطاء) فنسبة باطلة فإنه لم يذكر جرح الرؤوس وظاهرة الاستشكال في غيره، بل في مطلق الشبيه.

أما نسبة ذلك إلى الميرزا القمي في جامع الشتات فنسبة باطلة أيضاً فإن الذي في الكتاب المذكور في باب المتفرقات مخصوص بالتشبيه بصورة الإمام علي (عليه السلام)

وأعداء أهل البيت ولبس الرجال لباس نساء أهل البيت أو غيرهن وليس فيه ذكر جرح الرؤوس ودق الطبول وضرب الطوس ونفخ البوقات.[١]

هذا ما أردنا إثباته في هذه العجالة والله ولي التوفيق وله الحمد والمنّة. تمّ تسويدها بمدينة بيروت في الثامن عشر من المحرم سنة ١٣٤٦ هـ على يد مؤلفها الفقير إلى عفو ربه محسن الأمين الحسيني العاملي غفر الله له ولوالديه والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

[1]- أكرر مرّة أخرى أنّ الدمامات وضرب الطوس ورفْع القامات (وهو غير الضرب بالقامات) وكذلك التشابيه (أي تمثيل الذكرى وعرضها فنياً) من قبيل رفع المشاعل والخيول وآلات الحرب كلها مشاهد للتذكير بميدان المعركة والتحشيد لها فلا نرى ـ من جانبنا ـ بأساً في عرضها أو الاستعراض بها. (المؤلف)

الفصل الخامس

الملحمة الحسينية

في فكر الشهيد المطهري

الشهيد المطهري والملحمة الحسينية

من هو الشهيد المطهري؟

يعتبر الأستاذ الشهيد مرتضى المطهّري رائداً كبيراً من روّاد الفكر الإسلامي الإصلاحي الحديث، وعلماً بارزاً من أعلام العمل الحركي والتجديدي الذي قاد حركة التغيير والثورة في المشروع الإسلامي النهضوي المعاصر...

ولعلّ السرّ الأول في نجاح هذا الرجل وخلوده هو مزاوجته الموفقة بين العمل الاجتماعي والعمل الحوزوي من جهة، وجمعه الموفّق بين العصرانية والأصالة من جهة أخرى، فضلاً عن كونه عالماً دينياً ربانياً وأستاذاً جامعياً مقتدراً، حمل فكراً متنوراً وعقلاً منفتحاً ساعده على نقد الواقع نقداً موضوعياً بعد أن استوعبه وراح يعالج أمراضه معالجةً رسالية هادفة...

عُدّ الرجل بحق، الأستاذ المعلم في إيران أو الفقيه المثقف أو المفكر الفقيه، واستطاع بصدقه وإخلاصه أن يُساهم في ردْم الهوّة المفتعلة بين الحوزة والجامعة، ويُشارك في إصلاحهما أو الدعوة لإصلاحهما وترميمهما، وأن يدفع بعجلة الثورة الإسلامية إلى الأمام ويُساهم في بناء ركائزها التحتية، وصولاً لإنشاء جيل واعٍ يجمع بين التراث والحداثة، وبين الدين والسياسة، وبين الغيب والواقع وبين (فقه المعاد) و (فقه المعاش) ـ كما يقولون ـ

ولا نريد في بحثنا هذا المرور على تراث هذا المفكر الكبير، وإحصاء ملامح هذا التراث الثّر المتشعب الأبعاد، الوافر الخصوبة، بقدر ما نريد التوقّف عند نقطة واحدة، وواحدة فقط أراد الرجل من خلالها تفعيل حركة الإصلاح في الأمة، وريادة مشروع

الصحوة الإسلامية المعاصر، وعبر المرور على حلقة واحدة من حلقات مشروعه الإصلاحي، المتمثّلة هنا بإصلاح الشعائر، وبالتحديد شعائر ذكر سيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام).

الشاخص الأول، ضمن مشروع الأستاذ المطهري التأسيسي التأصيلي هذا هو كتابه الأكثر شهرة والأكثر إثارة للجدل، الذي جاء تحت عنوان (الملحمة الحسينية) (حماسهء حسيني) والذي لخص فيه أهم متبنياته التأصيلية المتينة، ورؤاه الرائدة في إصلاح هذه الشعائر، وحيث قال ناشر الكتاب في تقديمه لهذه (الملحمة) أنه، أي الشيخ الشهيد:

«رفع صوت الغضب في وجه من يحتفلون بذكرى هذه الملحمة المجيدة احتفالاً خاوياً أجوف يخرج بها عن أصالتها وجوهرها، إذ لا غرض لهم سوى البكاء والنحيب، لمجرد البكاء والنحيب، متناسين ما تدعو إليه هذه الذكرى من سموّ قيم (ومعالم ثورة) تبعث على اليقظة والتحفّز، وتدعو إلى الوقوف بإباء وشمم في وجه العتاة الجبابرة، في كونها باعثاً على القيام في وجه كل مستعمر جائر، وباعثاً على بلورة الأصالة الشخصية للأمة واستنهاضها على رفض الذل والخنوع، وحيازة العزّة التي أرادها لنا إسلامنا العظيم...»[١].

---

[1]- من مقدمة كتاب (الملحمة الحسينية) ـ الطبعة الثانية ١٩٩٠ م ـ منشورات المركز العالمي للدراسات الإسلامية ـ الجزء الأول ـ صفحة ج.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الملحمة الحسينية

تحدث الشهيد المطهري في (ملحمته الحسينية) هذه ضمن ما تحدّث به أو عرضه، عن أهداف الملحمة الخالدة، وآثارها ونتائجها وأسبابها ودور الإصلاح فيها وشعار زعيمها وحاديها الخالد المعروف الداعي إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي جاء نصّه:

«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي... أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر...»

ويخصص الشهيد المطهري باباً مهماً في الجزء الثاني من (الملحمة) لتوضيح هذه الفريضة الإسلامية المغيبة التي نهض بعبء إحيائها سيد الشهداء وأبو الأحرار (عليه السلام)، ودفع ضريبة هذا الإحياء حياته الشريفة وحياة الصفوة من أهل بيت النبوة وحياة نخبة طاهرة من أصحابه وأبنائه وأنصاره وأهل بيته.. ويستدل أول ما يستدل على ضرورة إحياء هذه الفريضة الإسلامية السامية، بل أسمى الفرائض التي يعتبرها بعض المسلمين أصلاً من أصول الدين وليس فرعاً من فروعه، استظهاراً من الآية القرآنية الكريمة التي تقول:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾ (سورة آل عمران: ١١٠).

هذه الآية المباركة ـ كما نرى ـ التي تَقَدّم فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى على الإيمان بالله سبحانه، إنما جاءت لتؤكد أهمية هذه الفريضة ودورها في خلق الأمة الخيّرة، وأن المسلمين لولاها ما كانوا (خير أمة أخرجت للناس) أصلاً أو كما يقول الشيخ المطهري:

«ومن هنا لابد لنا أن نستنتج المفهوم النقيض لهذا المفهوم المطروح، كما يقول المناطقة أي: نحن لسنا بأمة الإسلام ولسنا بأفضل الأمم البشرية لأننا لا نأمر بالمعروف ولا ننهى عن المنكر، وبالتالي فإننا لا نستطيع إدّعاء الرفعة والعزة والشرف ولا يمكننا أن نتباهى بما عندنا...»[1].

ويقترب هذا الفهم عند الشهيد المطهري من فهم السيد الشهيد الصدر (ﷺ) الذي أشار في معرض تعليقه على هذه الآية الكريمة قائلاً:

«وقد جُعل الإيمان بالله الخصيصة الثالثة للأمة الإسلامية بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تأكيداً على أن المعنى الحقيقي للإيمان ليس هو العقيدة المحنّطة في القلب بل الشعلة التي تتّقد وتشعّ بضوئها على الآخرين، وإذا لم يكن المسلمون على مستوى هاتين المسؤوليتين، أي رغم وجود الاعتقاد، فلا أمة إسلامية بالمعنى الصحيح..»[2].

ويروح الأستاذ المطهري يُثير سؤالاً حساساً ودقيقاً جاء فيه:

«طبيعي أن يُطرح التساؤل التأريخي، ويتم التحقيق حول سبب تراجع موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العظيم والمهم هذا عن واجهة التأريخ الإسلامي، ولماذا لم ينل أهميته اللازمة من قِبَل المسلمين، ولماذا لم يُعَر له أي اهتمام حتى صار موضوعاً مهملاً في مجتمعاتنا الراهنة».

ويضيف:

«ينبغي أن نكون منصفين ونعترف بأن أهل السنّة بحثوا وحققوا من وجهة النظر العلمية حول هذا الموضوع أكثر مما بذل الشيعة، فإذا ما وضعنا كتب الشيعة

---

[1]- الملحمة الحسينية ج ٢ ص ٤٠.

[2]- مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن ـ السيد محمد باقر الصدر ـ بيروت ١٩٨٠ ص ٨٠.

الفقهية، ابتداءً من الكتب الواردة في (أبواب الصلاة) إلى الكتب التي تتحدث عن الديّات وغيرها، مقابل كتب فقه أهل السنّة، في هذا المجال، فإننا نستطيع القول، دون أدنى ريب، إن فقه الشيعة أكثر تفصيلاً، وأكثر دقة وأمتن وأعمق وأقوى استدلالاً من فقه أهل السنّة في كل الأبواب، وهذا ما أستطيع إثباته بالأدلة الراسخة، لكن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظل في كتبنا الفقهية، وللأسف الشديد، باباً صغيراً أمام سائر الأبواب الأخرى...»[1].

ويحاول الشهيد المطهري أن يلتمس العذر لهذا الانكفاء، كونه حصيلة المواجهات المستمرة للسلطات السياسية «إذ كان هذا الأمر يُقابَل بالمضايقة من قبل حكام كلّ زمان، وحيث مال أصحاب البحث من شيوخ المعتزلة وبقوة إلى الابتعاد عن ذكره في كتبهم، أو المرور عليه مرور الكرام، بالرغم من كونه يمثّل أصلاً من أصول دينهم الخمسة.»[2].

ثم يضيف:

«والحق يُقال هنا أيضاً، بأن هذا الباب قد أُهمل إهمالاً كبيراً في كتبنا وبحوثنا الدينية، نحن الشيعة، كذلك، حتى إنك يندر أن ترى بحثاً مكتوباً في القرون الأخيرة في رسائل المجتهدين العملية يتناول هذا الباب الديني الكبير.. وإلى الحدّ الذي أعرفه أنا، فإن آخر كتاب من كتب الرسائل العملية التي كُتب في هذا الموضوع هو كتاب «الجامع العباسي» للشيخ البهائي والذي يعود تأريخه إلى ثلاثة قرون ونصف تقريباً بل إنه صار يُحذف من كتب الرسائل العملية بعد ذلك تماماً...» علماً بأن مواضيع كثيرة لا أهمية لها، أو قل، أقل أهمية، «مثل الإماء والرقّ والعبيد التي انتفت ضرورة

1- الملحمة الحسينية ـ ج ٢ ص ٤٠-٤١.

2- المصدر السابق ص ٤١.

البحث حولها، ما زالت تناقش رغم أن البحث فيها أصبح عبثاً وغير مفيد بالمرّة...»[1].

من هذا المنطلق يبدأ الشيخ المطهري حديثه حول هذه الفريضة السامية، ويؤكّد كيف جاء الإمام الحسين (عليه السلام) ليُحييها في سنّة جدّه ويُعيد التذكير بها، لأنها **«ليس موضوعاً يمكن للمرء أن ينفيه، أو يغيّبه عن ساحة المجتمعات، بل إنه موضوع حاضر وحي، وعلى رأس الموضوعات الاجتماعية في كل عصر وزمان، ولابد من طرحه على الدوام لنتذكّر أهميته ولا ننساه أبداً»**[2].

فراح يؤكّد مرات عديدة شعار الإمام الحسين الخالد **«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً...»** ويؤكّد ما نشهد به في العديد من زيارات أئمتنا عليهم السلام حين نخاطب كلّ واحد منهم بالقول: **«ونشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين»**.

ويضيف:

«من خلال ما تقدم يتضح لنا أن النهضة الحسينية قد استقت قيمتها وأهميتها الأساسية من بُعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... هذا الأمر الذي يعتبر المبدأ الوحيد الذي يضمن بقاء الإسلام. وهو «العلّة المتبقية» كما يقول الفقهاء، بل يمكن القول إنه لا وجود للإسلام بدون هذا المبدأ»[3].

نعم، إنه الفريضة التي تقوم بها كافة الفرائض، ولولاها لضعُفت أو غابت.

---

[1]- المصدر السابق ص ٤٢.

[2]- المصدر السابق ص ٤٢.

[3]- المصدر السابق ص ٦٣.

المؤلم المؤسف فعلاً أن هذه الفريضة السامية التي تُقام بها بقية الفرائض ـ كما يقول الفقهاء ـ والتي وصفها الإمام علي «عليه السلام» بقوله: «...والأمر بالمعروف مصلحة للعوام والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاء» وذكرها القرآن الكريم في العشرات من آيات الله البيّنات، كادت تضمر أو تنتهي إلى الصفر، وهذا يعني تصفير عملية التغيير الاجتماعي والتنصّل من مسؤولية مواجهة الحكام الظلمة، وخاصة حين راح بعض الفقهاء ينظّرون لغيابها أو تغييبها تحت عناوين «التقية» حيناً، وعناوين «عدم إلقاء النفس بالتهلكة» حيناً آخر، وكذلك عناوين عدم وجوبها إلا بعد «حرز الأثر والأمن من الضرر»

أما العناوين الأخرى فمنها: عدم جواز الخروج على الحاكم (المسلم) حتى لو كان ظالماً أو فاسقاً، وطاعته ما دام يقيم الصلاة ولم يأمر بمعصية ولم يرتكب كفراً بواحاً، وما إلى ذلك من عناوين كادت ـ لفرط التساهل فيها ـ تطمس معالم هذه الفريضة العظيمة وتجتثّ نظرية التغيير الاجتماعي في الإسلام، من الأساس.

ويتألم الشهيد المطهري على إهمال هذا الأمر أو سيادة هذه العناوين في قضية الإمام الحسين «عليه السلام» بحيث تحولت أيام الذكرى **«والمجالس الحسينية إلى أيام فرح ونزهة ـ على حد تعبيره ـ واغتنامها فرصة من فرص الترفيه والسفر»!!** زاعمين أننا بهذا الإحياء للذكرى نصون الحسين ونرجو شفاعته، فيقول:

«وأقولها بصراحة، نحن لم نصن الحسين ولم نحافظ عليه. إن الحسين هو الذي صاننا وحافظ علينا حتى الآن، أو كما يقول الفيلسوف الكبير محمد إقبال اللاهوري: ((لم يحصل أبداً أن المسلمين قد صانوا الإسلام، بل الإسلام هو الذي كان دوماً يصون المسلمين...» [1].

---

[1]- المصدر السابق ص ٦٧.

ويضرب الشهيد المطهري مثالاً على هذه الصيانة فيقول:

«إن اللغة العربية ليست لغة قوم وشعب معيّن، إنها لغة الإسلام، فلو لم يكن القرآن، لما كان هذا اللسان موجوداً اليوم» ويروح يؤكّد على ضرورة حفظ هذه اللغة، وصيانتها ويقول:

«إن من أهم واجباتنا اليوم هو الدفاع عن هذه اللغة وصيانتها»[1] لأن هذه اللغة هي التي صانتنا، ولذا يجب أن تُصان، أي أننا لسنا الذين صنّا هذه اللغة، تماماً كما أننا لسنا الذين صنّا الإسلام وذكرى الحسين وإنما هما اللذان صانانا وحافظا على هويتنا وانتمائنا وعقائديتنا.

ثم يُعيد الشهيد المطهري بين فترة وأخرى في (ملحمته) التذكير بضرورة صيانة شعارات الحسين وحفظها وإبقائها شعارات إحياء وحماسة وبطولة، وليس فقط شعارات نواح ولطم وضرب بالسلاسل، وإنما عمل وحركة وفعل وتغيير ونداءات متكرّرة تستصرخ القيم وتستنهض الرجال، وعلى لسان أبي الضيم وسيد الشهداء:

«ألا ترون أن الحق لا يُعمل به، وأن الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله حقاً...»! و:«ألا إن الدعيّ ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله، والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حميّة ونفوس أبيّة...».

ثم يشير الشهيد المطهري إشارة دقيقة جداً إلى حرص الإمام الحسين (عليه السلام) على إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العظيمة، وكيف أنه (عليه السلام).. **«وبالضبط عندما استعد الناس إلى يوم (التروية) حيث تتجمع أعداد الحجيج الهائلة من أقصى بلاد الحرمين للتوجّه إلى (منى) و (عرفات) في اليوم الثامن**

---

[1] - المصدر السابق ص ٦٨.

من ذي الحجة لأداء مناسك الحج، هنا يُعلن الإمام الحسين (ﷺ) وبشكل مفاجئ، أنه يريد مغادرة (مكة) متوجهاً نحو (العراق) إلى الكوفة...

أي أنه ـ والكلام كلّه للمطهري ـ وفي مثل هذه الظروف يدير الإمام الحسين (ﷺ) ظهره للكعبة وللحج، بمعنى إنه يحتجّ، ويبيّن نقده وعدم رضاه بهذه الوسيلة وبهذا الشكل.. إنه يريد القول بأن (الكعبة) التي صارت مسخرة لبني أمية، وأن الحج الذي يديره ويشرف عليه (يزيد) لم تعُد فيه فائدة للمسلمين..

إن هذا الإعراض عن الكعبة، وعن أعمال الحج في مثل تلك المناسبة، والقول فيما بعد بأنه إنما أعرض عن الحج لأنه ذاهب إلى الجهاد في سبيل رضا الله، أو أنه أعرض عن الحج لأنه أراد التوجّه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لهو أمر مهم جداً وإشارة دقيقة جداً بل عملٌ بالغ الأهمية وليس بعمل بسيط أبداً...»[١]

الشهيد المطهري يتحرّش بالموروث المزيف

الأمر الآخر الذي أثار الجدل حول (ملحمة) الشيخ المطهري هذه هو جرأته في التحرّش بالموروث المزيّف الذي أُلصق بالثورة الحسينية والذي تحوّل فيه الشعر إلى شعارات وألبست الشعارات رداء الشعائر فاهتزت المقاييس وارتجت الثوابت وتعرّضت الشعائر الحسينية الحقيقية إلى الانحراف أو التحريف، وخاصة بعدما راح يتناقله بعض المسطحين والسذّج وما يضيفونه من أكاذيب وقصص وأساطير لم يتحدث بها الرواة ولا المؤرخون ولم تذكرها كُتب التأريخ ولم تدوّنها مصنفاته المعتبرة.

---

[1]- الملحمة الحسينية ج ١ ص ٢٠٨.

وهنا يقول المطهري:

«إن الحادثة، مع الأسف الشديد قد تعرضت للتحريف اللفظي كما تعرضت للتحريف المعنوي.. بحيث صار هذا التحريف ينسف أصل القضية ويمسخها تماماً ويُخرجها بشكل مضاد للأصل» ويضيف:

«وأقول بكل مرارة: إن التحريفات التي أصابت هذه القضية على أيدينا قادت كلها باتجاه التقليل من قيمتها ومسخها وتحويلها إلى حادثة لا طعم لها ولا معنى، والمسؤولية هنا تقع على الرواة والعلماء، كما تقع على عامة الناس... الواجب هو أن نقيم المآتم على الحسين (عليه السلام) أما المآتم التي تقام عليه اليوم فهي جديدة، ولم تكن هكذا فيما مضى وذلك بسبب تلك الأكاذيب التي أُلصقت بحادثة كربلاء دون أن يفضحها أحد. نعم، إننا يجب أن نبكي الحسين (عليه السلام) اليوم ولكن ليس بسبب السيوف والرماح التي استهدفت جسده الطاهر الشريف في ذلك اليوم التأريخي، بل بسبب الأكاذيب التي أُلصقت بالواقعة...»[1].

وهنا يريد الشيخ الشهيد المطهري القول، بأن ذكرى الحسين (عليه السلام) قُصرت على الجانب العاطفي والمأساوي فقط أي للعَبرة والبكاء، ولم يبق للفكر والعِبرة والموقف مساحة في هذا الضخّ العاطفي المثير للشجون والألم، فتراه يترحّم على الخطيب الحسيني (المسكين) الذي وجد نفسه محشوراً في جوّ عاطفي لا يسعه إلاّ أنْ يشبعه أو يتشبع به حتى ولو باختلاق الأكاذيب وافتعال البكاء، بل اصطناع النحيب أو الدعوة لاصطناعه..

يقول الأستاذ المطهري في هذا السياق:

1- الملحمة الحسينية ج١ ص ٦٢-٦٣.

«فالخطيب المسكين تراه أحياناً يقع في حيرة إذا ما تكلّم الصدق وقال الحقائق دون زيادة أو نقصان.. إذْ إن نتيجة ذلك ستكون نعْت مجلسه بالمجلس البارد وغير الحماسي وبالتالي فتور رغبة الناس بدعوة هذا الخطيب مجدّداً، مما يضطره إلى اختراع بعض القصص الخيالية لإدخال الحرارة إلى مجلسه. وبعبارة أخرى ـ والكلام للأستاذ المطهري ـ إنه من أجل شدّ الناس إلى صورة الفاجعة التأريخية وتصويرها المأساوي ودفع الناس إلى البكاء والنحيب ليس إلاّ، كان الواعظ على الدوام مضطراً للتزوير والاختلاق...»[1]

أمثلة على التحريف

١- مِنْ أينَ لي اليدان: ويروح الشيخ المطهري يضرب أمثلة على هذه الأكاذيب ويؤكّد أن بعضها وردت في بطون بعض الكتب، وبعضها الآخر كان هو شاهدها أو يشهد عليها، حيث صارت من كثرة تكرارها وكأنها حقائق لا جدال حولها ولا غبار..

وكان مما أشار إليه مثلاً حكاية مثيرة نقلها على لسان العلامة الشيخ نجف آبادي بعد أن أطْلعه أنه سمعها عدة مرات، فقال له العلامة «أجلس، إذن لكي أشرح لك أساس هذه الحكاية»...

ثم راح العلاّمة نجف آبادي يتحدث للشيخ المطهري قائلاً:-

«في أحد الأيام وبينما كنت حاضراً في أحد المجالس الحسينية في بازار أصفهان قرب مدرسة الصدر (القصة جرت قبل زمانه، وهو إنما ينقلها من مصادر موثّقة

---

[1]- الملحمة الحسينية ج١ ص ١٤، ١٦.

عنده) وقد كان هناك مجلس حسيني من الوزن الثقيل لا يحضره إلاّ كبار علماء أصفهان ومن بينهم العلامة الكبير المرحوم الحاج ملا إسماعيل الخاجوبي الذي كان حاضراً في ذلك المجلس، وإذا بواعظ حسيني معروف ينقل لنا هذه القصة حيث قال:

كنت أنتظر دوري ضمن قائمة الوعاظ المتعدّدين الذين ينبغي عليهم قراءة التعزية الحسينية على التوالي حين يحين موعد الظهر، وكنت أستمع إلى الوعاظ الذين سبقوني وأتابع باهتمام قدرتهم على إبكاء الناس وشدّهم إلى المنبر إلى أن حان دوري، وكنت أفكر بطريقة أنافس بها الوعّاظ، فلم يخطر على بالي شيء حتى جاءتني هذه الفكرة فاختلقتُ هذه القصة من عنديّاتي وبذلك كسرت الرقم القياسي في البكاء...

ويضيف هذا الواعظ:

لكنني عندما ذهبت عصر ذلك اليوم لأحضر مجلساً حسينياً آخر وبينما أنا أنتظر دوري رأيت أن الواعظ الذي سبقني ينقل هذه القصة وقد أغرق الناس بالبكاء أيضاً، وهكذا إلى أن صارت تُكتب شيئاً فشيئاً في كتب التعازي الحسينية بل وتُطبع أيضاً.»[1]

أما خلاصة هذه القصة فينقلها الشيخ المطهري بقوله:

«قبل حوالي خمسة عشر عاماً وأثناء زيارة لي لمدينة أصفهان، التقيت هناك بالعالم الكبير المرحوم الحاج الشيخ محمد حسن نجف آبادي (أعلى الله مقامه) ونقلت له آنذاك قصة التعزية الحسينية التي كنت سمعتها لتوّي في المدينة وكانت قد أثارت

---

[1]- الملحمة الحسينية ج١ ص ٣٩.

استغرابي بشكل مثير للغاية، لاسيما وأن قارئ التعزية كان من المدمنين على تعاطي الترياق[1].

شرحتُ لعالمنا المذكور قدرة ذلك القارئ على إبكاء الناس بكاءً شديداً وذلك من خلال نقْله لقصة امرأة عجوز عاشت في زمن المتوكل وكانت تريد زيارة قبر الإمام الحسين (عليه السلام) الأمر الذي كان محظوراً على الناس آنذاك، بل إن فاعلها كان يتعرض للقتل أو لقطع اليدين، إلى ما هنالك من التفاصيل، حتى وصل إلى الفقرة التي ذكر فيها بأن جند المتوكّل ألقوا بتلك العجوز بالبحر، الأمر الذي دفع بالعجوز في تلك الحالة إلى النداء بأعلى صوتها: يا أبا الفضل العباس (وا عباساه)، وفي تلك اللحظة التي كانت أوشكت فيها على الغرق ظهر لها فارس من وسط أمواج البحر وقال لها هيّا تمسّكي بركابي واقفزي ورائي، فقالت له العجوز ولماذا لا تمدّ إليّ يدك؟ فقال لها ومن أين لي اليدان حتى أمدّهما؟ فقد كانت يداه مقطوعتين، وهنا ضجّ الجمهور بالعويل والبكاء»[2] والنداء.. واعباساه، واحسيناه، واحيدراه.. وافاطمتاه...

٢- وهل هذا هو منطق الحسين في المعركة؟

مثل هذه القصص الخيالية (المسيلة للدموع) كثيرة وعديدة راح الشيخ الشهيد المطهري يستعرضها باختصار وإيجاز، مستنكراً سندها ومتنها، منددا بروا‌تها وقرائها ومروّجيها، منها مثلاً قصة (احتضان ليلى لابنها علي الأكبر في ساحة الوغى).. حتى إنني ـ والكلام للمطهري ـ «حضرت شخصياً في قم مجلساً حسينياً أقيم باسم آية الله

---

[1]- نوع من الحشيشة المخففة. تستخدم في إيران ولم يحرمه علماء الدين الإيرانيون.

[2]- الملحمة الحسينية ج ١ ص ٣٨.

البروجردي، دون أن يكون هو حاضراً بالطبع، وقد سمعتُ في هذا المجلس أن علياً الأكبر نزل إلى ساحة الوغى وإذا بالحسين يتوجه إلى أمه ليلى ويطلب منها الدخول إلى إحدى الخيم ونشْر شعرها والتوجّه إلى ربّها بالدعاء ليرجع ابنها سالماً إليها، فإني سمعتُ جدي رسول الله (ﷺ) يقول بأن دعاء الأم بحق أبنها مستجاب...» وهنا يستغرب الشيخ المطهري ويقول:

«فهل هناك تحريف أكثر من هذا؟

أولاً: ليس هناك ليلى في كربلاء حتى يُحدّثها الإمام الحسين (عليه السلام)

وثانياً: هل هذا هو منطق الحسين في المعركة؟ أبداً إن منطقه كان منطق التضحية والجهاد...»[1] وهو العالم علم اليقين بأنهم كانوا يسيرون والمنايا تسير من ورائهم... وعلي الأكبر نفسه القائل «والله يا أبه لا نبالي، ما دمنا على الحق، وقعنا على الموت أم وقع الموت علينا»

٣- تحريف القصص والشعر

الأنكى من ذلك (إن القارئ يتحدث عن ليلى وابنها علي الأكبر ولمّا وصل إلى المحل السابق حيث توجّهتْ هذه الـ (ليلى) إلى الخيمة ونثرت شعرها بناءً على طلب الحسين!! فإنها نذرت أيضاً زرع الطريق من كربلاء إلى المدينة بالريحان إذا ما استجاب الله دعاءها وأرجع لها ابنها سالماً من المعركة... حتى وصلت إلى بيت القصيد أو بيت الختام المعروف:

1- نفس المصدر ص ١٨.

نـذرٌ عليّ لئن عـــادوا وإنْ رجعوا لأزرعنّ طريق (التفتْ) ريحانـاً

وهنا المضحك المبكي، المرّ المؤلم، وشرّ البلية ما يضحك فعلاً. يقول الشيخ المطهري:

«لقد ذُهلت لما سمعتُ، وزاد عجبي من هذا البيت من الشعر العربي، وصرتُ أسأل نفسي من أين جاء وسط هذه التعزية؟ ثم ذهبتُ أبحث في بطون الكتب وإذا بي أجد بأن ـ التفتْ ـ هذه، هي منطقة غير منطقة كربلاء أولاً، ثم أن بيت الشعر كلّه لا علاقة له بحادث عاشوراء لا من قريب ولا من بعيد، بل أنه نُظم على لسان (مجنون ليلى العامري) المعروف وهو ينتظر ليلاه التي كانت تقيم في هذه الناحية، ولكن قرّاء التعزية صاروا يقرأونه على لسان ليلى أم علي الأكبر (التي يؤكّد المؤرّخون أنها لم تكون موجودة أصلاً في كربلاء) ثم حُرّفت كلمة (التفتْ) إلى (طف) كربلاء...»[1]. وصارت كذبة بيضاء ساطعة لامعة، مثيرة للسخرية حيث ستزرع أم الشهيد ثلاثة فراسخ بالورد إذا عاد ولدها حيّاً من ساحة الوغى. نعم إنّ أعذب الشعر أكذَبه ـ كما يقولون ـ فتحوّل بيت الشعر السابق إلى البيت التالي:

نـــذرٌ عليّ لئن عـــادوا وإنْ رجعوا لأزرعنّ طريق الـطف ريحانـــاً

---

[1]- المصدر السابق ص ١٨، ١٩ ونحن بدورنا لا نريد تأكيد أو نفي ـ كما هو معلوم ـ مثل هذه الحكايات، لأن ذلك من اختصاص المؤرخين وكتّاب التأريخ، ولا علاقة للبحث بذلك إلاّ بلحاظ التعريف بالتحريف الواضح والتزييف الواضح للموروث النظيف والأصيل لملحمة كربلاء.

٣- عرس القاسم:

ثم يشير الشهيد المطهري إلى (أسطورة) أخرى، أصبحت مسلّمة هي الأخرى من مسلّمات أحداث الطفوف وهي مسألة (عرس القاسم) حيث أراد الإمام الحسين (عليه السلام) تزويج إحدى بناته لابن أخيه القاسم، وهي الرغبة التي لا يُريد الأب أو العم، أي أب أو أي عمّ أن يحملها معه إلى القبر. نعم، هكذا أراد الإمام الحسين (عليه السلام) ـ كما تقول هذه الحكاية ـ

وهنا يقول مستنكراً ساخراً من هذه القصة:

«تصوّروا ـ بالله عليكم ـ هذا الكلام الذي كثيراً ما يتردّد على ألسنة البسطاء الذين يتمنون رؤية عرس ابنهم أو ابنتهم قبل موتهم، فينسبونه إلى شخصٍ كالحسين بن علي (عليه السلام) وهو في خضمّ المعارك وفي ذلك اليوم التأريخي الذي لا مجال فيه حتى لإقامة الصلاة بسهولة، وكأن (القاسم) لا همّ له إلاّ البحث عن زوجة ولا همّ لعمه إلاّ تزويجه»[1]

نعم... ـ والقول للشهيد المطهري ـ «إنهم يتقوّلون على الإمام الحسين لأن هذه الحكاية التي هي اختلاق محض لا وجود لأي أساس لها في كل الكتب المعتبرة، لكنه كما يكتب الحاج نوري، فإن أول من أدخل هذه القصّة في التأريخ الحسيني المزوّر هو الملاّ حسين الكاشف (روضة الشهداء)، فيما أصل القضية كذب واختلاق مئة بالمائة...»[2].

---

[1]- المصدر السابق ص ٢٤.

[2]- المصدر السابق ص ٢٤.

٤- أكاذيب أخرى:

بعد ذلك يروح الشهيد المطهري يسخر من أولئك الذين قالوا أن رمح سنان بن أنس الذي قطع رأس الحسين كان يبلغ ستين ذراعاً.. وأن الإمام الحسين قتل ثلاثمائة ألف شخص بيده، علماً بأن عدد قتلى قنبلة هيروشيما ـ والكلام هنا للشيخ الشهيد المطهري ـ بلغ ستين ألفاً، وأنّ ذلك لو صحّ وكان سيف الإمام يحصد حصداً كل ثانية رجلا لاحتاج بلغة الحساب إلى ثلاث وثمانين ساعة وعشرين دقيقة، وإنْ كان (المؤلفون) لم يفُتهم ذلك فقالوا أن يوم عاشوراء صار سبعين ساعة...[1]

وهكذا.. قصة الطير الذي أبلغ فاطمة الصغرى بخبر الفاجعة، وقصة الفتاة اليهودية التي كانت مصابة بالفلج ـ الشلل ـ وكيف أنها شُفيت بعد أن تمّ تزريق نقطة دم من دماء أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) في بدنها بواسطة الطير. وقصة طفل الحسين الذي مات في الشام بعد أن جيء له برأس أبيه (عليه السلام) هناك، وقصة زيارة الأسرى لقبر الحسين (عليه السلام) في كربلاء يوم الأربعين وملاقاة السجاد (عليه السلام) لجابر... وخرافات من قبيل حربة (هاشم المرقال) التي تحتوي ١٨ شقاً وكذلك حربة قاتل القاسم وحربة سنان (ذات الستين رأساً)[2].

وكذلك قصة (الأسد) التي وردت في كتاب (أسرار الشهادة) للدربندي، وكتاب (منتخب الطريحي) التي خلاصتها أن (أسداً) كان يأتي فضة في الليالي وقد تبيّن فيما بعد أنه علي بن أبي طالب (عليه السلام) ـ والعياذ بالله[3].

---

[1]- المصدر السابق ص ٢١.

[2]- الملحمة الحسينية ج٣ ص ٢٣٩.

[3]- نفس المصدر ص ٢٣٨.

ومثل هذه القصص والأساطير لا تختلف عن تلك التي حيكت أو نُسجت عن ضربة علي (عليه السلام) لمرحب الخيبري في معركة خيبر، وكيف أن الله تعالى أرسل جبريل ليحول بين سيف علي والكرة الأرضية لأنها لو وقعت على الأرض ـ كما تقول (الرواية) لقدتّها نصفين بعد أن قدّت مرحباً نصفين بل (نصفين متساويين) تماماً وأنه لو وُضع كل نصف في كفة ميزان لما اختلفا شعرة واحدة[1].

والأدهى من ذلك ـ والكلام ما زال للشهيد المطهري ـ بأن جبرائيل قد جُرح بسبب تلك الضربة مما أدّى إلى مرضه أربعين يوماً الأمر الذي أخّر صعوده إلى السماء كل تلك المدّة، ولما صعد إلى السماء وسأله ربه، أين أمضيت تلك الأيام الأربعين؟ قال: ربّي إنك أمرتني بالنزول تحت سيف علي وقد فعلت ولما كنت جُرحت من جراء تلك الضربة فإنني كنت أداوي جراحي كل تلك الفترة.

والأدهى والأمرّ من كل ذلك أن يُشتم الشهيد المطهري من على بعض المنابر بسبب تكذيبه لمثل هذه (الأساطير) وحرصه على تنزيه الثورة الحسينية وتهذيب شعائرها وإبقائها في دائرة الأهداف النبيلة والقيم العليا والواقعية العظيمة التي نال أبو الأحرار خلالها كل هذا المجد وهذا الشرف وهذا الخلود...

أما سبب اختلاق هذه الأساطير والقصص المأساوية، فهو كما يرى الشهيد المطهري، إبكاء المجلس وإدمائه من جانب، والإيحاء بأن البكاء على الإمام الحسين (عليه السلام) سيكون سبباً لدخول الجنّة، وإن «**دمعة واحدة إذا خرجت من مآقيهم كافية لمنحهم ذلك المقام الكبير...**» علماً بأن «**الدموع التي تخرج من خلال العرض**

---

[1]- المصدر السابق ص ٣٣.

المأساوي ووصف المجزرة وتشريح الذبح ورسم المذبحة، فلا تساوي شيئاً حتى لو كانت بحراً من الدموع...»[1].

ولم يَفُت الشيخ المطهري أن يُحيل موضوع البحث في مسألة الأساطير هذه وسبب اختلاقها إلى الأستاذ الدكتور علي شريعتي الذي أشار أنه أفضل من وضّح موضوع صناعة الأساطير هذه وقال:

«إن الدافع الذاتي (للتحريفات المعنوية) هو عادة صناعة الأساطير، وخلق الخرافات والأبطال لدى عامة البشر، والذي سبق لنا الإشارة إليه، وهو ـ والكلام للشهيد المطهري ـ ما تفضّل به وبيّنه على أحسن وجه الأستاذ الدكتور علي شريعتي في خطبة الغدير...»[2].

ولكنْ، ولترسيم الصحيح وعدم ترك الأمور معلّقة في الهواء، وقطْع الطريق أمام التفسيرات والتأويلات التي قد يُثيرها العوام أو الغوغاء وفقاً لأهوائهم، أو تحريض محرضيهم، يقول الشهيد المطهري:

«لقد أراد لنا أئمتنا الأطهار ـ عليهم السلام ـ أن نحيي مجالس العزاء الحسينية وهذا أمر صحيح. إن فلسفة إقامة مجالس العزاء فلسفة صحيحة ورفيعة المعاني للغاية، وكلّما بذلنا من الجهود في هذا السبيل كان أفضل، شرط أن نحدّد أهدافنا من وراء ذلك. إننا بذلك نكون قد مضينا على الطريق الصحيح، ولكن للأسف الشديد فإن البعض لم يُدرك هذا المعنى وصار يتصوّر بأن الاجتماع في تلك المجالس والبكاء على الحسين (عليه السلام) بحدّ ذاته دون التعرّف على أهداف المدرسة الحسينية، وفلسفة

---

[1]- المصدر السابق ص ١٥.

[2]- الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٤٢.

النهضة الحسينية ومعرفة شخصية الحسين التأريخية يكفي، ويكفّر عن الذنوب...»
ويضيف المطهري متأملاً:

«ويذكر الحاج نوري في كتابه (اللؤلؤ والمرجان) بأن البعض يقول بأن إقامة المجالس الحسينية والبكاء على الحسين فيه من الثواب الكثير، بحيث يمكن للمرء أن يستخدم هذه الوسيلة للتكفير عن كلّ ذنوبه..»[1]

ويروح المطهري يسخر من أولئك الذين ينتظرون غفران الذنوب عبر اللطم والبكاء فقط، ولا يفقهون الآثار السلبية التي تترتب على رفع بعض الشعارات والرّدات وخاصة تلك التي تتسم بالذّل والهزيمة والانكسار التي يرفعها البعض عن قصد خبيث أحياناً وعن عفوية وبراءة وغير قصدٍ أحياناً أخرى، فتراهم يردّدون مثلاً نداء الأم المفجوعة على لسان أم علي الأكبر (حاشاها طبعاً) وهي تولول مثبورةً على فقْد ولدها، وتنثر شعرها جزعاً عليه وتنادي (يا بُني يا علي الأكبر أين شبابك)![2]

يگلها طب للخيمة واكـــشفي الراس للمعبود
وارفعي چفوفچ وشوفچ بلچي ابنچ عليچ يعود
يقول الـوالدة جدي دعاها مـــــا يرد ردود[3]

[1]- الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٤٢.

[2]- الملحمة الحسينية ج ٢ ص ١٩٤.

[3]- ديوان سلوة الذاكرين ـ الشيخ عبد الأمير الفتلاوي. أي ادخلي إلى الخيمة وارفعي كفيك وبصرك إلى السماء لعل الله يستجيب دعاءك فيعيد ولدك إليك، لأن دعاء الوالدة لا يردّ.

ومثل ذلك ما نسمعه من قصائد منسوبة لهذا أو ذاك ينقل فيها الشاعر البسيط بعض الجمل على لسان حال بنات الرسالة ومخدرات النبوة وبطلات الطف وبلهجة هزيمة وانكسار، وكأن (ليلى) تصرخ بالويل والثبور ولسان حالها يقول:

أنا ردتك ... لاردْت دنيا ولا مال

تحضرني لـــو وگع حملي ولو مال

منّك خـابت ظنوني والآمـــــال

يمّه.. وقت الضيق ليش گطعت بيّه [١]

أو قولها الآخر:

إسمع يــــا علي أمــك تحاچيك

يـــــا رجواي بيك ارباي ما فاد

يبني ضـاع بيـك التـــعب ورباي

عيني ســـــــاهرة وانت بالمهاد [٢]

وكأنه ليس القائل:

[1]- أي أنا يا ولدي، أردتّكَ ولم أرد مالاً أو دنيا، أردتكَ أن تحضرني أثناء المهمات والشدائد، ولكنك مع الأسف الشديد خيّبت آمالي والظنون وقطعت بي عند الشدائد والمحن...

[2]- ديوان سلوة الذاكرين ـ الشيخ عبد الأمير الفتلاوي. أي ألا تسمع يا ولدي رجاءي فيك أم ضاع فيك تعبي وتربيتي حينما كنتُ ساهرة عليك وأنت في المهد؟

وكأنه ليس هو الذي قال فيه نفس الشاعر:

شب حسين جاب الروس ذبهن ابسيفه أرواح من عدهن سلبهن

عـلي هالمرجلة الــــــعنده أبــــــوه حسين والكرار جدّه

أي أنه شبل الحسين الذي راح يحزّ رؤوس الأعداء ويسلبهم أرواحهم وأن رجولته هذه ورثها من جدّه حيدر الكرار الإمام علي (عليه السلام).

أنـــا علي بـــن الحسين بـــن عـلـي　　　نحن وأيـــم الله أولى بـالنبي

أطعنكـــم بـــالرمـــح حتى يـــنثني　　　أضربكم بـالسيف أحمي عن أبي

ضربَ غـــلامٍ علـــــويّ هاشمي　　　والله لا يحـــكم فينا بن الدّعي

أو على لسان الفتى البطل (القاسم بن الحسن) الذي راح الشاعر المنكسر يصوّره يقول:

يمّه اذكريني مـــن تمرّ زفّة شباب　　　من العرس محروم حنّتي دم الخضاب

وكأنه ليس هو ذاك البطل المغوار الذي يذكر التأريخ أنه راح يشد شسع نعله أمام حشود الأعداء غير عابئ بكثرتهم وغوغائهم وهو يقول:

إن تنكروني فـــأنا نجـــل الحســـين　　　سبـــط النبي المـــصطفى والمؤتمن

هـــذا حسينٌ كـــالأسير المرتهن　　　بين أنـــاس لا سُقوا صـــوب المزن

حتى يصل الأمر بشعارات المنكسرين أن ينقل أحدهم على لسان الحوراء زينب بطلة الطف خطابها لأخيها، بل شعرها المهزوم القائل:

أنـــا اتبعْتك عـــلى ريحة الخوّة　　　ذبّيتني على العدو يـــا خوي[1]

شـــوف الشـــمر بيّه شسوّه　　　سوطـــه عـــلى متـــوني تلوّه[2]

إلى أن يقول زوراً وإفكاً:

«يا خوية وين العهد وين المروّة..» أي «أين العهد وأين المروءة؟».

وأمثال ذلك مما يمكن التماس العذر فيه أنه يأتي أحياناً عواطف مفجوعة ونفوساً محزوزة تناشد الضمائر وتستنهض الوجدان وربما يُلتمس لها العذر أنها

---

[1] - أي أنا اتبعتك على منهج الأخوّة وتركتني قسراً بيد الأعداء.

[2] - أي لاحظ ماذا فعل بي شمر بن ذي الجوشن (أحد أزلام العدو) وكيف راح يضربني بالسوط...

جاءت بعد المعركة وفي لحظات عتاب دفينة جريحة وليس في ساعة مواجهة ولحظات تعبئة يُفترض أن تتفجر فيها الحميّة والشهامة وهذا ما لاحظناه في بطلة الطف حين شمت بها أحد الأجلاف قائلاً:

«أرأيتم فعل الله بكم؟» فكان جوابها المُسكت «والله ما رأينا إلاّ جميلاً... قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم..»!!

وهذا كلّه يمكن توجيهه أيضاً بلحاظ العواطف الجريحة والنفوس المكلومة التي آلمتها شماتة الأعداء، وإنها تأتي طوفاناً من الأحاسيس الذبيحة التي لا يمكن السيطرة عليها، فتنفجر لوعةً وألماً، مبرَّراً أحياناً، ولكن المؤلم المؤسف هو أن يبدأ التنظير لمثل هذه الأحاسيس عبر اختلاق القصص والأساطير وجعلها نوافذ شرعية أو مشروعة لغفران الذنوب وتبرير الهزيمة والانكسار.

فهناك مثلاً أسطورة ينقلها الشهيد المطهري تؤكّد أن أحد سرّاق قوافل الحسين، رأى في رؤياه يوماً أنه جيء به يوم القيامة إلى جهنم، وكاد أن يُحشر فيها لجرائم السرقة الكثيرة التي ارتكبها، ولكن النار رفضته فتمّ إرجاعه إلى الجنّة، والسبب هو أنه أصابه بعض غبار زوار الإمام الحسين (عليه السلام) أثناء سرقته لهم، وعلى هذه الأسطورة البائسة الخائبة أو غيرها نظم الشعراء البسطاء شعرهم:

فــإن شئت النجاة فــــزر حسينــاً لـكي تلقى الإلـه قرير عين

فـــــإن النـــــار لـــيس تمسّ جسماً عـــليه غبار زوّار الحسين

وما بقيتَ وسمعتَ أراك الدهر عجباً.. ويتناسى هؤلاء أن الأئمة (ع) «أرادوا من إحياء المجالس أن يطلّ علينا الحسين (عليه السلام)، كل عام بنداءاته الحلوة البليغة والحماسية وينادينا بأعلى صوته»[1]:

---

[1]- الملحمة الحسينية ج ١ ص ٣٦.

«ألا ترون أن الحقّ لا يُعمل به. وأن الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً»[1].

وينادي بنا «الموت أولى من ركوب العار»[2].

و«لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما»[3]

وأمثال ذلك الكثير من هذه «النداءات الحيّة التي ستبقى خالدة إلى الأبد»... على حد تعبير الشيخ المطهري ـ رحمه الله ـ

ويصرخ الشهيد المطهري بأعلى صوته أيضاً في وجه القائلين بأن مجرّد البكاء سيكون سبباً لغفران الذنوب ودخول الجنّة بالقول:

«إن الحسين (عليه السلام) إنما قام لمقارعة الذنوب وإذا بنا جئنا لنجعل منه متراساً لارتكاب الذنوب ودرعاً واقياً للمذنبين. وتمادينا كثيراً في هذا الاتجاه عندما قلنا بأن الحسين قد أسس شركة الضمان، وأي ضمان؟! ضمان الذنوب، وصرنا ندعو الناس للتسجيل في هذه الشركة مقابل أقساط من الدموع»... ويضيف:

«تصوّروا الحسين (عليه السلام) وهو يقول لأبناء أمته: (أسكبوا الدموع في سبيلي وأنا أكفل لكم مقابل ذلك غفران الذنوب. ليس مهماً من تكونوا!؟ ابن زياد أو عمر بن سعد أو سنان بن انس أو غيرهم!! ومن خلال شركة الضمان هذه.. قال: أيها الناس كونوا سيئين ما شئتم فأنا ضامنكم وغافر لكم ذنوبكم»[4].

إلى أن يصرخ المطهري غاضباً:

---

[1]- بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٨١. تحف العقول ص ٣٣.

[2]- بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٠ . اللهوف ص ٥٠، كشف الغمة ج٢ ص ٣٢.

[3]- البحار ج ٤٤ ص ٣٨١، اللهوف ص ٣٣، تحف العقول ص ١٧٦.

[4]- الملحمة الحسينية ج ١ ص ٦٠.

«والله لو أن أحدنا كان صائماً في شهر رمضان وتقوّل على الحسين بن علي بمثل هذه الأقاويل أو نسب مثل هذه الأقوال إليه لكل صيامه باطلاً، لأن ذلك كذب محض..»[١]

من يتحمّل المسؤولية؟

ويشير الشهيد المطهري إلى نقطة مهمة أخرى في هذا السياق حيث يُحمّل علماء الأمة وعامة الناس هذا الانحراف أو التحريف في إحياء ذكرى سيّد الشهداء.. وخاصة حين يكون همّ المؤسسين لمجالس الحسين هو «فقط ازدحام الناس وكثرة توافدهم على مجلس العزاء! فإذا ما حصل ذلك الازدحام والتوافد فيها ونعمت، وإلا فإنهم سوف لن يرضوا عن ذلك المجلس «إن المجالس والكلام للمطهري ـ لم تُقرَّر من أجل ازدحام الناس فيها! فهل نحن أمام استعراض عضلات أو عرض مسرحي؟!»[٢]،

وعن مسؤولية الناس أيضاً وإصرارهم على إقامة (الاحتفالات الاستعراضية) يشدّد الشهيد المطهّري النكير عليهم ويقول:

«إن مسألة التمثيل قد أصبحت هدفاً بحد ذاته، ولم يعد الموضوع موضوع الإمام الحسين وعرض قصّة كربلاء وتمثيل الواقعة» وخاصة إذا كانت إحدى الممثلات مثلاً ـ من صاحبات الشهرة [٣]ـ كما مرّ آنفاً ـ ويضيف:

---

[1]- نفس المصدر السابق ص ٦٠.

[2]- المصدر السابق ص ٨١.

[3]- أو ما يسمى حديثاً بـ (النجمات السينمائيات) الساقطات، وليس الشريفات المهذبات بطبيعة الحال ، وحيث تقوم احداهن بتمثيل دور زينب مثلاً .

«إنني أتذكّر تلك السنوات التي عشتها في (قم)، وكم من هذه المسرحيات المبتذلة كانت تُعرض على الناس آنذاك في السنين الأولى لمرجعية المرحوم (آية الله البروجردي) ـ ﷺ ـ حيث كان في أوج نفوذه وجاء إليه البعض وشرح له وضع هذه المسرحيات، والوضع العام المبتذل الذي يرافقها، فدعا سماحته في حينها جميع رؤساء الهيئات الحسينية إلى اجتماع في منزله وسألهم يومها: أي المراجع تقلّدون؟! فقالوا له جميعاً: نقلّدك طوال العام ما عدا هذه الأيام الثلاثة أو الأربعة فنحن لسنا مقلّديك...

نعم، إذْ لم يعتنوا بحديثه وفتواه، وفعلوا ما كانوا يريدون فعله.. إن هذا ـ والكلام كلّه للشهيد المطهري ـ يُبيّن بوضوح أن الهدف ليس الإمام الحسين (ع) وليس الإسلام.. الهدف هو المسرحية والتمثيل وما تُخفيه هذه من فوائد، أو قل من لذّات واستمتاع رخيص..»[1].

هذا هو واجب الناس ومسؤولي الهيئات إذن، أي إن على هؤلاء مواجهة هذا الانحراف وعدم الانجرار معه، أما العالم فإنه سيواجه حالتين: ـ كما يقول المطهري ـ :

إما أن يكافح نقاط الضعف هذه، وفي أغلب الأحيان ستكون الناس غير راضية عنه، وإما أن يرى عملية مكافحة نقاط ضعف المجتمع عملية صعبة ومهمّة شاقة وإنها ستجلب له الضرر، وليس فيها أية منفعة شخصية، (فيتخلّى عن مسؤوليته) وهنا يصحّ عليه مصداق «الفقيه الفاجر» في الحديث الشريف القائل:

«آفة الدين ثلاثة: فقيه فاجر، وإمام جائر، ومجتهد جاهل»[2]

وهكذا تتأرجح المسؤولية، مسؤولية تغييب الإحياء الواعي لذكرى الإمام الحسين (ع) بين آراء العوام، وتنصّل العلماء «فالعلماء يلقون باللائمة بهذا

---

[1]- نفس المصدر السابق ص ١٦٢- ١٦٣.

[2]- جامع الصغير ج ١ ص ٤ ـ الملحمة ١ ص ٧٩ ، ٨٠.

الخصوص على عامة الناس، ويعتبرون جهل العامة وتقصيرهم هو الأساس، وفي المقابل فإن العوام يلقون باللائمة على العلماء ويقولون: إن السمك إنما يفسد من رأسه وليس من ذيله.. ولكن الحقيقة هنا ـ والكلام كلّه للشهيد المطهري ـ هي أن الطرفين مسؤولان عمّا وصلنا إليه فهذه السمكة فاسدة من الرأس ومن الذنب أيضاً»[1].

«**فعلى العالِم أن يُظهر علمه، إذا ظهرت البدع، وإلاّ فعليه لعنة الله**» كما يقول الحديث الشريف.

وعلى العوام الذين هم «الطرف المستهلِك لهذه الأقوال والحكايات المحرّفة، واجبهم أن يتجنبوا الاستماع إلى مثل هذه الخرافات ويرفضوها وعند ذلك سترى الذي يعرض مثل هذه البضاعة مضطراً للتراجع عنها» ولكن المشكلة ـ والكلام للمطهري طبعاً ـ هي أن العامة يشجّعون مثل هذه الأمور. وترى جمهور العامة بدلاً من محاربته لمثل هذه الظواهر، ينهض بقوة لحمايتها والدفاع عنها، فتراه يواجهك بالسؤال: وما المانع أن يكون عرس القاسم صحيحاً؟ وإذا قلت أنّ هذا الخبر لا وجود له في المصادر التاريخية القديمة لا بسند موثّق ولا شبه موثّق، يقول لك: وحتى إذا افترضنا عدم وجود سند تأريخي بشأنه، فما المانع أن يكون مثل هذا الأمر قد حصل؟!»[2].

وهكذا يبدأ المراء ويتعالى صخب الجدل والمماحكات، وتدور حلقة النقاش بعدئذ عن الكتب التأريخية وسندها ومسانيدها ورجالها ورواتها حتى يضيع الهدف من الذكرى وتضيع المبادئ والقيم التي من أجلها انطلقت ثورة الحسين ولأجلها

1- الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٧٠.

2- نفس المصدر ص ٢٧٦.

داست خيول الكافرين صدره وصدور الصفوة من آل المصطفى، وقيدت حرائر الرسالة سبايا إلى بلاد المنافقين. ويصبح الكلام فقط عن (الشعائر) والشعارات والشعر والقصص والحكايات حتى تتحول الذكرى إلى مجرّد ذكرى ما دامت تأتي على ذكر الحسين (عليه السلام)، وذكر عياله وأطفاله وعطشه وغربته، تماماً كما تُزيف شعائر الدين وأصوله ما دام الذي ينادي بها عنده لحية، ويحمل مسبحة ويتشهّد الشهادتين، ولكنه بعد أداء الصلاة يقتل العباس (عليه السلام)!![1]

وهنا يتألم المطهري ويروح يطلق زفرة ساخنة فيقول:

«إن مجتمعاً يملك تأريخاً مثل تأريخ الحسين بن علي، وهو تأريخ مليء بالمفاخر وآيات الحماس، والعظمة والجمال، والتجارب الغنيّة والملهمة فيبدّله بتأريخ مليء بالحكايات، والخرافات الوهمية من جعبة (روضة الشهداء) و (أسرار الشهادة)، لهو مجتمع سفيه حقاً، وليس رشيداً، ونحن اليوم مطالبون بالحفاظ على تأريخنا، كما نقوم بصيانة آثارنا التاريخية والوطنية»[2].

للذكرى وجهان

ويستدرك الشهيد المطهري كلامه هذا خشية أن يُساء تفسيره أو يؤوّل خلاف ما يريد، فيقول:

---

[1]- وهذا ما فعله (شبث بن ربعي) في فاجعة الطف حيث صلّى الظهر على شاطئ الفرات وجاء بعدها ليقتل العباس ـ عليه السلام ـ .

[2]- المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٣.

«إنني لستُ مخالفاً للرثاء وقراءة التعزية لكنني أقول: إن علينا أن نرثي الحسين ونقرأ التعازي بشكل نستطيع معه أيضاً تحريك حسّ البطولة والشجاعة الحسينية وإحياء روح الحماس الحسيني في صفوف الأمة»[١].

وهذا يعني أن مأساة الحسين، ذات وجهين.. وجه المصيبة والدموع والرثاء والبكاء.. ووجه البطولة والشجاعة والإباء.. «إن علينا إبكاء الناس على المصيبة باستمرار ولكن في رثاء البطل.. أي يجب أن نرثي بطلاً ـ وبطلاً أبياً صار فخراً للإسلام والمسلمين على امتداد التأريخ وإلاّ فإن رثاء رجل مسكين مستكين مظلوم لا حول له ولا طول، لا قيمة له..»

«نعم، إبكوا البطل وأقيموا مجالس الرثاء والعزاء للبطل، حتى تولّدوا إحساساً بالبطولة والشجاعة.. يجب أن تنعكس ظلال روح البطل على أرواحكم وتزداد غيرتكم تجاه الحق والحقيقة وتنذروا أنفسكم للعدالة وتصبحوا من المقاتلين ضد الظلم والظالمين، وتصبحوا أحراراً وتقدّروا الحرية. إجلسوا في رثاء البطل حتى تعرفوا معنى عزّة النفس، ومعنى الشرف والإنسانية والكرامة»[٢].

«إن اسم الحسين وتأريخه ومرثيته كانت أسلحة تعبوية، بل حتى قبره الشريف كان كذلك، لذلك قرروا هدمه ومحو آثاره وتسوية الأرض التي دُفن فيها.. إن الرثاء الحسيني يجب أن يأتي ممزوجاً بالحماس ويجب أن يخلد»[٣].

ولكن في صورة البطل وتمجيد البطولة أي تحت شعار أو شعائر:

---

[1]- المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٣.

[2]- نفس المصدر السابق ص ١٠٠.

[3]- الملحمة الحسينية ج ١ ص ٩٩.

سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى

إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً

وواسى الرجال الصـــالحين بنفسه

وفارق مثبوراً وخـــالف مجرما

أقدّم نفسي لا أريـــد بقاءهـــا

لتلقى خميساً في الهياج عرموماً

فإن عشتُ لم أنـــدم وإن متُّ لم ألَم

كفى بك ذلاً أن تعيش وتُرغما

وباختصار شديد: ـ والكلام للشهيد المطهري ـ أن نرفع شعار أو شعارات الإمام الحسين البطولية الخالدة:-

المـــوت أولى من ركـــوب العار والعـــار أولى مـــن دخول النـــار

أو «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ لكم إقرار العبيد».

نعم، أن تبقى هذه الشعارات هي الأساس، وأن لا تجري مشاغلة الناس أو إلهائهم بإحلال شعارات (الذنب المغفور والسعي المشكور) الوافدَيْن مجاناً وبلا جهد أو تضحية أو عناء، أي بتفريغ الأهداف العظيمة التي استشهد الإمام الحسين من أجلها، وإبقاء شعار البكاء والتباكي فقط دون العمل والكفاح والجهاد. ونعم أيضاً لأنْ تبقى شعارات الثورة ورفض الضيم هذه هي الأساس، ولكن لا بملء وقت الناس بالقصص والخرافات والأكاذيب، وتحويل الذكرى إلى شركة (ضمان) لغفران الذنوب، أو مسرح استعراض للأهواء وترسيخ الذات و(الاستمتاع الهابط) على حد تعبير الشيخ المطهري.. المار الذكر..

بين البكاء والتباكي

ومرة أخرى، نعم، البكاء على مصيبة سيّد الشهداء حق ولكن تجلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ثورته العظيمة واجب أو أحق، وإذا افترضنا أن التباكي على فاجعة كربلاء (مستحب) فإنّ رفض الظلم ومقارعة الظالمين أكثر استحباباً.. ولئن كان للبكاء والحزن وجه وجيه ـ كما يقولون ـ أو يقول البعض وهو قول حق، فالتصدّي لأعداء الدين ومواجهتهم أكثر وجاهةً وأجدر بالاهتمام.

وهكذا حتى يمتزج الحق مع الواجب والوجيه مع الأكثر وجاهةً، والدمعة مع الرسالة، والعِبْرة مع العَبْرة، ويبقى الشعار الأكثر دويّاً والأحقّ بالاعتزاز هو:

«إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما..» و«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مُفسداً، ولكني خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي.. أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر..»

وليس الآخر المرفوع على عواهنه وبلا شروط:

فإن النار ليس تمسّ جسماً عليه غبار زوار الحسين

أو صاحبه المؤول المبتسر: (من بكى أو تباكى وجبت له الجنّة).

نعم، كمدخل ومدخل فقط، وليس كثقافة أو وعي جماهيري أو تبنّي أو تنظير، يجعل من الهدف وسيلة، ومن الوسيلة هدفاً وتختلط فيه الغاية مع السبب والسبب مع الغاية وربما نخسر السلّة والعنب، أو الخيط والعصفور ـ كما يقولون ـ

وهنا إشارة جديرة بالذكر لا نرى بأساً من تعميقها:

يكتب الشهيد المطهري مميّزاً بين الدين (كأفيون) والدين (كثورة) فيقول: «يتساءل أحد الكتاب العرب قائلاً: أي مفهوم للدين صحيح؟ هل الدين بمعنى

الأفيون والمخدّر؟ أم الدين بمعنى الثورة والحركة؟ ثم يجيب: كلاهما صحيح. فالدين حياة وحركة وحيوية، ولكن أي دين؟ إنه الدين الذي جاء به الأنبياء.

وفي الوقت نفسه يمكن أن يكون الدين أفيوناً مخدّراً للمجتمع، ولكن أي دين؟ إنه هذا الخليط الذي صنعناه اليوم بأنفسنا..»[1].

الغرض، وخلاصة الذي نريد قوله في تحليل رؤية الأستاذ المطهري في إصلاح الشعائر، هو أن ذكرى سيّد الشهداء، عصيّة على الطمس والتغييب، كالدين تماماً الذي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأنها ستظل تغلي وتفور في قلوب الأحرار والشرفاء، وتتكرر وتتجدّد كل عام حيث يغلي في مرجلها الثوار وأباة الضيم لمواجهة كل ألوان التعسّف والظلم والاستبداد.. أي أنها التصقت بالدين تماماً، أو صارت هكذا، باعتبار «**الإسلام محمدي الوجود، علوي الحدود، حسيني الخلود**» كما قال أحد المفكرين.

وأخيراً وحين لم يستطع أعداء الدين إلغاء الدين أو اجتثاثه من نفوس الناس، راحوا يفسرونه أو يغلّفونه بالأساطير والقصص وحكايات التسطيح التي أرادوا من خلالها أن يصيّروه (أفيوناً) أو مخدراً، أي أنه بدل أن يكون دستوراً لضمان حق الأحياء في العدل جعلوه، أو حاولوا جعله وصفة فقهية للأموات عند الحشر...

وهكذا وحين وجد أعداء الدين، والمقاولون، أن هذه الذكرى عصيّة على الإلغاء أو الحذف من الوجدان الشعبي الحسيني بل من وجدان كل الأحرار والثوار والشرفاء، راحوا يضيفون عليها من عندياتهم وإبداعاتهم بل (بدعهم) ما يُراد بها أن تكون أفيوناً هي الأخرى، ولكن هيهات أن يكون لهم ذلك، لأن شعارات سيّد

---

[1]- مجلة التوحيد ـ العدد ٨٩ ـ سنة ١٩٩٧ م ص ١٩١ ـ عن محاضرة (إحياء الفكر الديني) في كتاب (عشرة أحاديث) ص ١٣١.

الشهداء هي شعارات الدين، وكما فشل أدعياء الدين وأعداؤه في القضاء عليه بتسطيحه أو تزويره أو تعويم مبادئه فإنهم عجزوا عن تزييف أو تشويه هذه الذكرى العظيمة ومبادئها السامية..

نعم، قد يأتي تساؤل وجواب ذلك الكاتب العربي منطقياً في سياق هذا التوظيف أي توظيف الذكرى فقط، ولكن (الحق) يبقى أسطع من (الحقيقة)، و(العقيدة) أرسخ من (الأيديولوجية)، وما كان لله ينمو رغم التوظيف والتزييف والتسطيح والتزوير، لأن وعد الله حق، وهو سبحانه القائل، وقوله الحق:

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾[١] بل:

﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون﴾[٢].

---

[1] – التوبة: ٣٢.

[2] – الصف: ٨.

الفصل السادس

التطبير وبعض الممارسات

الخاطئة في الزيارات

خطاب مهم للسيد علي الخامنئي

اعتُبر خطاب السيد علي خامنئي حول الشعائر الحسينية والتطبير، الأكثر دوياً وتأثيراً في الوسط الإعلامي الشيعي المعاصر باعتباره حاكماً مسلماً أولاً، وباعتباره عالماً في الحوزة العلمية أو المؤسسة الدينية الشيعية في العصر الحديث ثانياً.

وحين يحذّر السيد الخامنئي مثلاً من خطر التحجّر في الحوزة وعدم قدرتها على مواكبة متطلبات العصر كما مرّ سابقاً تأتي كلماته حول الشعائر قوية ومؤثرة ومعبّرة للاعتبارين المذكورين... ولعلّ مِنْ أهم ما أشار إليه السيد الخامنئي في هذا السياق قوله المشهور:

«إن خطر التحجّر والرجعية بين العلماء أو توجههم إلى منافعهم الشخصية، وتعلّق قلوبهم بالدنيا وبهارجها المادية، واستغلال المكانة الاجتماعية... هذا الخطر لا يقلّ عن الخطر الآتي من الأعداء بل يزيد عليه أضعافاً...»[1]

ولعل ما جاء في خطابه عام ١٤١٥ هـ حول إصلاح الشعائر الحسينية الذي مرّت الإشارة إليه وتنديده بظاهرة (التطبير) كان الأكثر إثارة للجدل وخاصة حين أكّد أنّ لا تتحول مجالس العزاء التي تُقام على الإمام الحسين (عليه السلام) إلى **«مجرد منبر لخطابات غير هادفة»** ـ كما جاء في نص بيانه الذي سنورد فقرات منه بعد قليل ـ وكيف قال إنه على العلماء الأفاضل أن يسعوا إلى تكريس **«المعرفة الدينية والإيمان الديني»** في هذه المجالس وأضاف:

---

[1]- من بيان السيد الخامنئي في الذكرى السنوية الأولى لرحيل الإمام الخميني ـ سلسلة في رحاب الولاية رقم (١١) ـ إصدار دار الولاية للثقافة والإعلام... ولا علاقة لهذا الحديث مع مواقف الرجل السياسية وقدرته أو عدم قدرته في إدارة دفّة البلاد بعد رحيل الخميني.

«يجب أن لا يكون الأمر بأن يرتقي المنبر خطيب ويتحدث بدون رؤية وبكلام غير هادف، أو يتطرق في النعي إلى مواضيع هشّة من حيث الفحوى، ليس فقط لا تؤدي إلى تعزيز الإيمان وتقويته وإنما إلى إضعافه أو تقليصه».

ويمكن القول أن كلام خامنئي هذا في إصلاح الشعائر، إنما جاء لتقديره أجواء الغزو الفكري والثقافي الذي كان يستهدف الإسلام حينها، وفي إطار معركة حضارية شرسة يشنّها الأعداء لمواجهة الصحوة الإسلامية، مؤكداً أن العصر كان **«عصر الحكومة الإسلامية وعصر تجلّي الإسلام، وينبغي أنْ لا نقوم بأعمال تشوّه سمعة الإسلام أو المجتمع الإسلامي...»**

أي إن الرجل فرّق بين العصر في زمانه والعصور السابقة التي لم تكن المعركة فيها محتدمة بهذا الشكل حيث **«كان في زمن ما يجتمع عدد من الناس في مكان محدود وليس أمام الآخرين ويشجّون رؤوسهم دون أن يتظاهروا بهذا المعنى، ولا شأن لأحد بهم سواء صحّ هذا العمل أم لم يصحّ...»**

أما اليوم وحيث تحوّل العالم ـ كما قلنا ـ إلى قرية صغيرة، وإن كل ما يجري على هذه البقعة من الأرض يمكن عرضه على بقعة أخرى، إذ لم تعد المسألة محصورة في زاوية معينة لإملاء غرض شخصي أو تحقيق هدف معيّن، وإن كان الهدف مقدساً في أصله، ولكنه ربما يسيء إلى الهدف الأساس الذي تُعرض الذكرى من أجله وهو وجه الإسلام وسمعة الإسلام وقيم الإسلام.

هذا هو الذي سميناه، أو سماه الفقهاء (الحُكم الثانوي) الذي من خلاله قد يجتهد الفقيه لإصدار حُكم ربما يظهر متناقضاً مع حكم صادر في مرحلة سابقة[1] ولكنه على

[1] - (فالمسألة التي كان لها حكم سابق قد تأخذ حكماً جديداً في إطار علاقة الحاكم بالسياسة والمجتمع والاقتصاد... وقد يحتاج الموضوع الجديد إلى حكم جديد...) ـ راجع بيان الإمام الخميني إلى العلماء في ١٥ رجب هـ ١٤٠٩ هـ ـ مرّ ذكره ـ

أية حال، قد يصبح غير جائز في هذه الفترة وإن كان مستحباً مثلاً في فترة سبقت وهو عين ما أشار إليه السيد الخامنئي، في معرض تذكيره بفتوى العلامة المرحوم السيد البروجردي الكبير الذي حرّم تقبيل العتبة مثلاً أثناء زيارة العتبات المقدسة لكي لا يصوّر أنه نوع من السجود لغير الله في وقت اعتَبرت بعض الروايات هذا العمل مُستحباً ـ كما جاء في كتب الأدعية.

ومن هنا وبافتراض حُسن الظن بأولئك الذين يقومون بأفعال تبدو في ظاهرها مستحبة، ولكنها ومن هذا المنطلق، ربما تُسيء إلى الإسلام أكثر مما تنفع.

وبلحاظ الظرفين الزماني والمكاني المذكورين، يأتي التأكيد على أنّ (النوايا الطيبة) وحدها لا تسوّغ القيام بأفعال ربما تسيء إلى الإسلام ككلّ رغم طيبة وصفاء وطهارة نوايا القائمين بها فعلاً.

ومما قاله السيد علي الخامنئي حول عاشوراء ما يلي:

«فذكرى عاشوراء ليست مجرّد ذكر لبعض الخواطر والأحداث فقط، وإنّما هي تبيان لحادثة في غاية الأهمية ولها عدد غير محدود من الأبعاد والجوانب التي تركت أعمق الآثار في حياة الأمة الإسلامية على مرّ التأريخ». مضيفاً:

«فالتذكير بهذه الفاجعة هو موضوع يمكن أن يتبلور عن كثير من الخيرات والبركات لأبناء هذه الأمة، لذا تلاحظون أن قضيّة البكاء والإبكاء على الإمام الحسين (ع) كانت تحتلّ مكانة مميزة في زمن الأئمة (ع). فلا يتصوّر أحدٌ أنه مع وجود المنطق والاستدلال، فما هي الحاجة للبكاء وما هي الحاجة للبحث في قضايا قديمة من هذا القبيل؟

إنّ هذا النوع من التفكير بيّن البطلان لأنّ لكلٍّ من هذه الأمور دوراً في بناء شخصية الإنسان وتكامله. فالعواطف لها دورها المهم والمنطق والبرهان لهما دورهما المهم أيضاً.

نعم، العاطفة لها دور في حلّ كثير من المشاكل والمعضلات التي يعجز المنطق والإستدلال عن حلّها. ولذلك حينما نراجع تأريخ الأنبياء سوف نرى أنه في أوائل بعثتهم كان يلتفّ حولهم أُناس لم يكن المنطق والبرهان هما الدافع الأساسي لإيمانهم والتفافهم حول أولئك الأنبياء فلا تجدون في تأريخ نبينا (ﷺ).. وهو تأريخ مدوّن وواضح ـ بأنّ الرسول اجتمع في أوّل البعثة مع مجموعة من الكفّار وبرهن لهم بالأدلة العقلية على وجود الله ووحدانيته، أو بطلان عبادة الأصنام ـ مثلاً ـ فالاستدلالات العقلية للنبي (ﷺ) جاءت بعد أن تقدمت الدعوة وانتشر أمرها، أمّا في المرحلة الأولى ـ والكلام كله للسيد الخامنئي ـ فقد كان عمل الدعوة يقوم على أساس كسب المشاعر والعواطف الصادقة لدى الناس.

ففي هذه المرحلة كان النبي (ﷺ) يقول للكفار: إنّ هذه الأصنام التي تعبدونها ما هي إلاّ أحجار لا تضرّ ولا تنفع. من دون الحاجة إلى ذكر الدليل العقلي والمنطقي على بطلان عبادتهم لتلك الأصنام. ولم يكن يستدلّ للناس بالأدلة العقلية والفلسفية على وجود الله ووحدانيته، بل كان يكتفي بالقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». فلم يبرهن للناس عقلياً أو فلسفياً بأنّ الاعتقاد بـ «لا إله إلا الله» يؤدّي إلى فلاح الإنسان وسعادته، بل إنّ هذه العبادة تخاطب مشاعر الإنسان وأحاسيسه الصادقة.

طبعاً إنّ كلّ المشاعر والأحاسيس الصادقة والسليمة تنطوي على برهان فلسفي واستدلال عقلي. لكن المسألة هي أنّ كلّ نبي عندما كان يُريد البدء بالدعوة لم يكن يطرح الدليل العقلي والفلسفي من أجل هداية الناس، بل أنّه كان يبدأ بتحريك العواطف والأحاسيس الصادقة والسليمة التي تحْمل المنطق والاستدلال في ذاتها. وهذه الأحاسيس والعواطف توجّه أنظار الإنسان على ما يعيشه المجتمع من ظلم واضطهاد وتمايز طبقي، وما يمارسه أنداد الله من البشر (شياطين الانس) من ضغط

وإرهاب ضدّ أبناء ذلك المجتمع. أما طرح البراهين العقلية والمنطقية فكان يبدأ حينما تستقر الدعوة وتأخذ مجراها الطبيعي.

فمن كانت له القابلية العقلية والفكرية ـ في هذه المرحلة ـ فسوف يستوعب بعض الاستدلالات العقلية والفلسفية الميسّرة التي كان يطرحها النبي (ﷺ) أمّا الذي لم يكن يمتلك تلك القابلية، فيبقى في المرحلة العقلية الابتدائية التي يعيشها.

طبعاً ليس شرطاً أن يكون الإنسان الذي يمتلك قوة استدلال أكبر أو أعلى شأناً من غيره من الناحية المعنوية. فقد تكون عواطف بعض أصحاب المستوى الفكري المتواضع أصدق وأسلم، وارتباطهم وتعلّقهم بالنبي وبمبدأ الغيب أقوى وحبّهم أصدق وأعمق. وهذا من شأنه أن يكسبهم مكانة معنوية أعلى ومرتبة أسمى عند الله سبحانه وتعالى. فلكلٍّ من العاطفة والاستدلال دوره ومكانته، فلا العاطفة تستطيع أن تحتل مكان الاستدلال العقلي، ولا الاستدلال العقلي بإمكانه احتلال مكان العاطفة.

وحادثة عاشوراء تنطوي في طبيعتها وذاتها على بحر زاخر من العواطف الصادقة. فهذه الفاجعة جاءت نتيجة لثورة إنسان عظيم ومعصوم، إنسان لا يمكن التشكيك بمقدار ذرّة في شخصيّته المتسامية، ويقرّ جميع المنصفين في العالم بتعالي هدفه وهو (**إنقاذ المجتمع من براثن الظلم والاستعباد**). وقد أعلن عن هذا الهدف بوضوح عندما قال: «**أيها الناس إنّ رسول الله (ﷺ) قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحُرم الله ناكثاً لعهد الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ولم يغيّر عليه بقول لا بفعل كان حقاً على الله أنْ يُدخِله مدخله**». إذن فالهدف من الثورة هو الوقوف بوجه الظلم والطغيان.

وقد تحمّل الإمام الحسين (عليه السلام) من أجل هذا الهدف المقدّس أشقّ أشكال الجهاد والصراع من أعداء الله، لأنّ أشقّ أشكال الكفاح هو الكفاح في الغربة،

فالاستشهاد والقتل بين الأهل والأحبّة ووسط تشجيع عامة الناس ليس بالأمر المستصعب جداً.

ففي صدر الإسلام حينما كانت تحدث مواجهة بين الحقّ والباطل وكان على رأس الجيش الإسلامي النبي الأكرم (ﷺ) أو أمير المؤمنين (ع) كان الجميع يتبارى للذهاب إلى ساحة الحرب إستجابةً لأمر النبي (ﷺ)، وكان النبي (ﷺ) والمسلمون يودّعونهم ويدعون لهم، فكانوا يقاتلون العدو ويُقتلون وهم بين أهلهم وأحبّتهم. فليس من الصعب جداً أن يقوم الإنسان بمثل هذا العمل. ولكن الصعب هو القسم الآخر من أشكال الكفاح وهو الكفاح الشاقّ والمليء بالمتاعب والعقبات، حيث ينزل الإنسان إلى ساحة الحرب وهو يرى أنّ جميع أفراد المجتمع يقفون ضدّه، أو يتغافلون عن نصرته، أو يحاولون الابتعاد عنه، وحتّى الذين يؤيّدونه في قرارة أنفسهم لا يجرأون على إعلان هذا التأييد بألسنتهم.

ففي فاجعة كربلاء لم يجرؤ حتى أمثال عبد الله بن عباس أو عبد الله بن جعفر ـ اللذين كانا من بني هاشم ومن تلك الشجرة الطيبة ـ على إظهار تأييدهما للإمام الحسين (ع) في مكة والمدينة.

إذن فجهاد الغرباء من أشقّ وأصعب أشكال الجهاد في سبيل الله. فالجميع يقف بوجه ذلك الإنسان المجاهد ويَعرِض عنه حتى الأصدقاء. حتى إنّ الإمام الحسين (ع) حينما دعا أحدهم إلى نصرته رفض نصرة ابن رسول الله (ﷺ) وعَرَض فرسه على الحسين (ع) بدلاً من ذلك. فهل توجد غربة أعظم من هذه الغربة؟ وهل يوجد كفاح في الغربة أشقّ من هذا الكفاح؟

وفي خوضه لهذا الصراع رأى الإمام الحسين (عليه السلام) بأمّ عينيه مقتل أولاده وإخوانه، وأبناء أخوته، وأبناء عمومته، وجميع بني هاشم، حتى أنّه شاهد مقتل طفله الرضيع الذي كان له من العمر ستة أشهر فقط.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان (عليه السلام) يعلم أنه بعد استشهاده سوف تقوم تلك الذئاب الكاسرة بالهجوم على عياله وأطفاله لإخافتهم وإرعابهم ونهب أموالهم وبالتالي أسرهم وتوجيه الإهانة لهم والاعتداء على بنت أمير المؤمنين (عليه السلام) زينب الكبرى (ع) التي كانت من الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي.

وقد واصل أبو عبد الله كفاحه المرير على الرغم من علمه بجميع تلك الأمور تفصيلاً. فلاحِظوا كم كان ذلك الجهاد الذي خاضه أبو عبد الله شاقاً ومريراً. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يعاني هو وأهل بيته وأصحابه من شدّة العطش نتيجة لمنعهم من الوصول إلى ماء الفرات، فقد كان الأطفال والصبيان والشيوخ وحتى الأطفال الرضع يتلظّون من شدّة العطش! حيث لم يكونوا قد ذاقوا قطرة من الماء منذ مدة طويلة.

فلكم أن تتخيّلوا الآن كم كان شاقاً وعظيماً ذلك الجهاد الذي خاضه إمامنا الحسين (عليه السلام). فأيّ إنسان لا تهتزّ عواطفه من فاجعة استشهاد مثل هذا الإنسان العظيم الطاهر المعصوم الذي كانت الملائكة تتسابق لرؤية وجهه الكريم والذي كان يتمنى الأنبياء والأولياء أن يكونوا في منزلته؟

وأيٌّ إنسان حرٍّ يعرف مغزى تلك الفاجعة ويفهم أهدافها ثمّ لا يشعر بالارتباط القلبي والعاطفي معها؟

فهذا النبع المعنوي والعاطفي بدأ بالتدفّق وما زال. وكان عصر يوم عاشوراء حينما وقفت زينب ـ على ما ورد في النقل ـ على التلّ الزينبي وراحت تخاطب جدّها رسول الله (ﷺ) قائلة:

«يا رسول الله صلى الله عليك مليك السماء، هذا حسينك مرمَّل بالدماء مقطَّع الأعضاء مسلوب العمامة والرداء» وبدأت بقراءة عزاء الإمام الحسين بصوتٍ عالٍ، وبعد ذلك قامت بإفشاء ما أرادوا كتمانه من خلال خطبها وكلماتها المدوّية في كربلاء والكوفة والشام والمدينة المنوَّرة.

هذه هي فاجعة عاشوراء وهذه هي أبعادها وأهدافها إذن.

والحقيقة التي لا ريب فيها هي أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يسأل الإنسان يوم القيامة عن جميع النعم التي منَّ بها عليه، وإنّ من أعظم النعم الإلهية علينا هي مجالس العزاء التي تُقام إحياءً لذكرى فاجعة عاشوراء الإمام الحسين (عليه السلام).

وللأسف فإنّ إخواننا من المسلمين غير الشيعة قد حرموا أنفسهم من هذه النعمة العظيمة التي بإمكانهم استثمارها إذا أرادوا[1]. طبعاً هناك القليل منهم من يُقيم مراسم العزاء لأبي عبد الله (عليه السلام) لكنّه ليس رائجاً عندهم كما هو رائج عند الشيعة بهذا الشكل الواسع الذي يعرفه الجميع.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هي الفائدة التي يجب أن تُجنى من هذه الذكرى ومن هذه المجالس؟ وما هو الطريق لشكر هذه النعمة؟

---

[1] ـ أي استثمارها لترسيخ القيم والمبادئ التي ثار من أجلها سيد الشهداء ورفْضه للشرعية المزيفة التي يتلفّع بها أدعياء الدين في كل زمان ومكان. (راجع كتابنا: سب الصحابة والفتنة الطائفية ـ الطبعة الثانية المنقحة، الفصل الأخير).

دور أبناء الشعب

بالنسبة لأبناء الشعب فيتمثل استثمارهم لهذه النعمة في إقامة مجالس العزاء وتوسيعها على أكبر نطاق ممكن والمشاركة الفعّالة والجادّة فيها.

ويجب أن تكون تلك المشاركة بقصد الاستفادة الحقيقية وليس مجرّد إتلاف للوقت أو محاولة الحصول على الثواب الأُخروي ـ بالشكل الذي يتصوّره بعض السذّج من الناس ـ فمن المؤكّد أنّ المشاركة والحضور في هذه المجالس يستتبعه الثواب الأخروي. ولكنّ السؤال المهم هو: ما هو السبب في الحصول على الثواب من خلال المشاركة في مجالس عزاء الإمام الحسين (عليه السلام)؟

من المسلّم أنّ هذا الثواب يُكسب نتيجة لسببٍ من الأسباب وما لم يتحقق ذلك فإنّ الثواب سوف لا يحصل قطعاً. ولكن البعض يغفل ـ وللأسف ـ عن هذه النقطة ويتصوّر أنّ مجرّد الجلوس في المجالس الحسينية كافٍ في الحصول على الثواب الأخروي.

إذن يجب على أبناء الأمّة معرفة القيمة الحقيقيّة والأهمية البالغة لتلك المجالس والمشاركة الجادّة فيها وجعلها وسيلة لتعميق الارتباط القلبي والنفسي بينهم وبين الحسين (ع) وآل النبي (ع) واتّخاذها ـ أي اتّخاذ تلك المجالس ـ للتواصل بينهم وبين روح الإسلام والقرآن.

هذا ما يتعلق بالناس حول الإستفادة من هذه المجالس والاستفادة منها.

دور علماء الدين

وأمّا ما يرتبط بعلماء الدين ـ والكلام كلّه للسيد الخامنئي طبعاً ـ فإن القضية أكثر تعقيداً، لأن مجالس العزاء تقوم على أساس اجتماع عدد من الناس ومشاركة أحد الخطباء الذي يتولّى إقامة العزاء حتى يستفيد الآخرون. ولكن كيف يجب أن تُقام مراسم العزاء؟ إنه سؤال موجّه إلى جميع من يشعر بالمسؤولية في هذه القضية، وباعتقادي أن هذه المجالس يجب أن تتميز بثلاثة أمور:

الأمر الأول: هو تكريس محبة أهل البيت ومودّتهم في القلوب، لأن الارتباط العاطفي ارتباط قيّم ووثيق، وعليكم أن تعملوا في هذه المجالس على تكريس مودّة الحسين بن علي (عليه السلام) وأهل بيت النبوة في قلوب المشاركين وتوثيق ارتباطهم بمصادر المعرفة الإلهية أكثر فأكثر. وأمّا إذا وجدتم وضعاً في هذه المجالس لم يؤدّ ـ لا سمح الله ـ إلى تكريس مودّة أهل البيت في قلوب المستمعين أو مَنْ هم خارج المجلس وإنما يؤدّي ـ لا سمح الله ـ إلى ابتعادهم واشمئزازهم من مجالس العزاء، فإن هذه المجالس تفقد عندئذ واحدة من أهم فوائدها وأهدافها، بل تصبح مُضرّة في بعض الأحيان، فانظروا ماذا ستفعلون أنتم الذين تؤسسون هذه المجالس وأنتم الذين تَخطبون فيها حتى تتعزّز العلاقة العاطفية للناس بالحسين بن علي (عليه السلام) وأهل بيت النبوة يوماً بعد يوم نتيجة المشاركة فيها أو إقامتها.

الأمر الثاني: الذي يجب أن تتميز به المجالس الحسينية هو إعطاء صورة واضحة عن أصل قضية عاشوراء للناس وتبياناً لهم، وإنّ مجالس العزاء على الحسين بن علي (عليه السلام) يجب أنْ لا تكون مجرّد منبر لخطابات غير هادفة، لأن هناك في هذه المجالس أُناساً يتميزون بالتفكّر والتعقّل والتأمّل في الأمور وما أكثرهم في مجتمعنا ببركة الثورة الإسلامية سواء من الشباب والشيوخ والنساء والرجال الذين يتساءلون مع أنفسهم

لماذا جئنا إلى هذا المجلس وبكينا على الحسين (عليه السلام)؟ ما هو أصل القضية؟ لماذا يجب البكاء على الإمام الحسين؟ لماذا جاء الإمام الحسين إلى كربلاء وأوجد قضية عاشوراء؟ هذه الأسئلة يجب أن يُجاب عنها في المجالس الحسينية حتى تتعزّز معرفة المستمع بأصل قضية عاشوراء، وإذا لم تتطرقوا في منابركم وخطبكم ونعْيكم إلى هذا المعنى ولو بالتنويه والإشارة، فإن هذه المجالس ستفقد ركناً من الأركان الثلاثة التي أشرت إليها، ومن الممكن أن لا تُستحصل الفائدة المتوخّاة من المجلس أو قد تؤدي ـ فرضاً إلى الضرر لا سمح الله .

المنبر والشبهات

وعن المنبر والخطيب:

«أقول لكم: قد تُشاهِد ـ وللأسف ـ الخطيب أحياناً يتطرّق إلى أُمور ضعيفة من حيث الاستدلال والإسناد العقلي والنقلي، إنّ ذلك يُعتبر هدّاماً من حيث التأثير في ذهن المستمع خاصة إذا كان من أهل المنطق والاستدلال العقلي.

هناك بعض الأمور المدوّنة في كتاب ما وليس لدينا دليل على صحّة هذه الأمور بل سقمها، ولكن عندما تتطرّقون إليها من على المنبر، فإنها بالرغم من عدم ثبوت صحتها إنما تثير أسئلة وإشكالات حول الدين لدى المستمع الذي قد يكون طالباً جامعياً أو تلميذاً أو شاباً أو مقاتلاً أو ثورياً ممن تفتّحت أذهانهم وأفكارهم. نعم، من الأفضل أن لا تتطرقوا إلى هذه الأمور والمواضيع حتى لو كانت صحيحة السند، لأنها تؤدي إلى الضلال والانحراف، دعْ عنك إنها تَفتقد في معظمها إلى السند الصحيح الموثّق.

قد يكون هناك موضوع أو أمر سمعه شخص من شخص آخر بغضّ النظر عن صحة أو عدم صحة السند، أو استشفّه من قصيدة وبادَر إلى نقل هذا الموضوع من كتاب يمكن تسويقه أو تبريره إلى المستمع، وخاصةً إذا كان هذا المستمع ممن يتميّز بالوعي والذكاء والبحث في دقائق الأمور، لأنه ليس واجباً أنْ نقول كلّ ما نعلم أو ننقل كلّ ما دُوِّن في الكتب.

فنحن لا نقول بأن جميع المنابر يجب أن تستوعب كل هذه الأمور.

يكفي أن ينقل الخطيب حديثاً معتبر السند ويُبادر إلى تفسيره ويبيّن معانيه للمستمع دون أية إضافات من التي لا داعي لها وتبعد المستمع عن المعنى الحقيقي للحديث، أو أن يبادر الخطيب إلى تفسير آية شريفة من المصادر المعتبرة بعد التدقيق والتأمّل فيها حتى يتحقّق الهدف المنشود.

ولذكر المصاب مثلاً تكفي الاستفادة من كتاب (نفَس المهموم) للمرحوم المحدّث القمّي، فإنه يُبكي المستمع ويثير تلك العواطف والمشاعر الجيّاشة التي نتوخاها، ولا داعي للتعرّض إلى أمور تبعد المجالس الحسينية عن الفلسفة الحقيقية لإقامتها، وإنني أخشى من أن لا نتمكن من القيام بواجبنا ومسؤولياتنا ـ لا سمح الله ـ وخاصة في هذا العصر الذي هو عصر إحياء الإسلام وتجلّيه وتجلّي أفكار أهل بيت النبوة (ع).

أعمال غير مقبولة في عاشوراء

وهنا راح السيد الخامنئي يتحدث عن بعض الممارسات غير المقبولة في مراسم العزاء الحسيني فقال:

«هناك أمور تُقرّب الناس إلى الله وتعزّز تمسّكهم بتعاليم الدين، ومن هذه الأمور هي مراسم العزاء التقليدية، وأنّ ما أوصانا الإمام ـ رضوان الله تعالى عليه ـ بإقامة مراسم العزاء التقليدية هو المشاركة في المجالس الحسينية ونعي الإمام الحسين (عليه السلام) والبكاء عليه واللطم على الصدور في مواكب العزاء، وهي من الأمور التي تعزّز المشاعر الجيّاشة إزاء أهل البيت.

غير أن هناك أموراً خلاف ذلك وتُبعد البعض عن الدين حيث شُوهدت ـ وللأسف ـ خلال الأعوام الثلاثة أو الأربعة الماضية أعمال تروّجها بعض الأيادي على ما يبدو، أنهم يروّجون في مجتمعنا بعض الأعمال التي تثير علامات استفهام في أذهان المشاهدين.

لقد جرت العادة ـ والكلام للسيد الخامنئي طبعاً ـ في قديم الأيام وبين عوام الناس أن يعلّقوا أقفالاً بأجسامهم في مراسم العزاء، فانبرى لها كبار العلماء واندثرت هذه العادة، غير أنها ظهرت مجدداً في الآونة الأخيرة، وسمعت أن البعض يعلّقون الأقفال بأجسامهم في مواكب العزاء، أنه عمل خاطئ يقوم به هذا البعض، وكذلك الأمر بالنسبة لشجّ الرؤوس بالسيوف أي ما يصطلح عليه بـ (التطبير) الذي يعتبر عملاً مخالفاً هو الآخر».

ويواصل خامنئي حديثه بتحسّس واضح حول هذه النقطة فيقول:

«أنا أعلم بأن البعض يقول بأن الحق كان مع الإمام (أي الإمام الخميني)[1] الذي لم يتطرّق إلى موضوع شجّ الرؤوس فما الذي دعاك إلى الحديث في هذا الموضوع؟!

---

[1]- يذكر المتابعون لسيرة الإمام الخميني وخطاباته بأنه سُئل يوماً عن موضوع التطبير بالتحديد، فكان جوابه بالنص (صَلاح نيست) أي لا صلاح فيه ـ كما ستقرأ ـ نعم، إنه (رحمه الله) لم يتطرّق إليه بالتفصيل كما يتطرق إليه الآن السيد الخامنئي.

كلا، ليس الأمر بهذا الشكل، فلو كان الإمام (رضوان الله عليه) حيّاً لتصدّى لظاهرة شجّ الرؤوس بالسيوف على الصورة التي رُوّجت خلال السنوات الأربع أو الخمس بعد انتهاء الحرب، إنّه عمل خاطئ أن يشجّ البعض رؤوسهم بالسيوف، وما هو الحاصل من إراقة دمائهم بهذه الصورة؟ كيف يُمكن اعتبار هذا العمل من مراسم العزاء؟ أجلْ من مراسم العزاء: اللطم على الرؤوس والصدور، ولكن ليس من العزاء: أن يشجّ الإنسان رأسه بالسيف ويريق دمه حتى لو كانت المصيبة قد حلّت بأعزّ أعزائه، إنها بدعة وليست من الدين، ولا شك في أن الله لا يرضى عن ذلك.

إن علماء السلف الذين لم يتصدّوا لهذه القضية إنما كانت يدهم مغلولة في هذا المجال، أمّا اليوم فإنه عصر الحكومة الإسلامية وعصر تجلّي الإسلام، وينبغي أن لا نقوم بأعمال تشوّه سمعة المجتمع الإسلامي الذي يتميّز بمودّة أهل البيت (ع) ويفخر بأنه يتبرك بالإسم القدسي لوليّ العصر ـ أرواحنا له الفداء ـ وباسم الإمام الحسين (عليه السلام) واسم أمير المؤمنين (عليه السلام).

كيف؟. ينبغي أن لا نقوم بأعمال تصوّر أبناء هذا المجتمع بأنهم أناس خرافيون وغير منطقيين أمام المسلمين وغير المسلمين في العالم، وفي الحقيقة أنني وجدتُ بأنه لابدّ أن أحذّر أبناء شعبنا العزيز من هذه الظاهرة التي هي في الواقع بدعة وخلاف لتعاليم الدين ليكفّوا عن هذا العمل. فأنا لست راضياً عمن يتظاهرن بشجّ الرؤوس، وأعرب هنا أنه كان في زمن ما يجتمع عدد من الناس في مكان محدود وليس أمام الآخرين ويشجّون رؤوسهم دون أن يتظاهروا بهذا المعنى، ولا شأن لأحد بهم سواء صحّ هذا العمل أو لم يصحّ، فإنه كان محدوداً وليس تظاهراً أمام الآخرين، أمّا أن ينطلق عدة آلاف من الأشخاص فجأة في أحد شوارع مدينة قم أو طهران أو إحدى مدن خراسان وآذربيجان وهم يحملون السيوف ليشجّوا بها رؤوسهم، فإن هذا العمل

يعتبره خلافاً بلا ريب ولا يَرضى عنه الإمام الحسين (عليه السلام)، ولا أدري من أين نشات هذه الأعمال التي جاؤوا بها إلى مجتمعاتنا الإسلامية».

بدعة أخرى تدخل أثناء زيارة العتبات المقدسة

بعد ذلك راح الخامنئي يتحدث عن بدعة أخرى يقوم بها بعض زوار العتبات المقدسة، فقال:

«وهنا بدعة غريبة ابتدعوها مؤخراً في كيفية الزيارات. أنتم تعلمون أن جميع أئمة الهدى (ع) كانوا يزورون المرقد الطاهر للرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) والمراقد المطهرة لأئمة أهل البيت (ع) في المدينة المنورة والعراق وإيران، ولكن هل سمعتم أن أحداً من الأئمة أو من العلماء كان يزحف على صدره من باب الحرم إلى الضريح أثناء الزيارة، فلو كان هذا العمل مستحبّاً أو مستحسناً لقام به علماؤنا الكبار، إلاّ أنهم لم يقوموا بمثل هذه الأعمال، حتى أنه نُقل بأن المرحوم آية الله العظمى البروجردي ـ رضوان الله عليه ـ ذلك العالم الورع والمجتهد البارز وذو الأفكار النيّرة مَنَعَ حتى تقبيل العتبة لدى دخول الحرم المطهر لأيٍّ من الأئمة (ع). ورغم أن هذا العمل قد يكون من المستحبات كما جاء في كتب الأدعية، وأتذكر أن هناك رواية باستحباب تقبيل العتبة، ولعل المرحوم البروجردي إنما منع ذلك حتى لا يُتصوّر أنه نوع من السجود يتبجّح به الأعداء لتوجيه الإتهامات إلى الشيعة.[1]

---

[1]- ناهيك عما يُحدثه هذا التقبيل من ازدحام وإرباك في صفوف الوافدين للزيارة وخاصة في الأيام التي تكثر فيها جموع المندفعين نحو العتبة القريبة من الضريح الشريف.

ليس صحيحاً أن يدخل فجأة عدد من الناس إلى الحرم المطهر للإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) ويزحفون على صدورهم مسافة مائتي متر نحو المرقد. كلاّ إنه عمل خاطئ، إنه استهانة بالدين وبحرمة الزيارة، لا أدري من يروّج هذه الأمور بين الناس؟ ليكُفّوا عن ذلك، إنه من عمل الأعداء.

عليكم أن تبيّنوا هذه الحقائق للناس حتى تتفتّح أذهانهم. الإسلام دين منطقي، والفهم الشيعي للإسلام هو الأكثر منطقية من غيره. ولا أحد يتمكن من أن يتّهم الشيعة بضعف منطقهم، لأنّ علماء الكلام من الشيعة كانوا كالشموس الساطعة في عهدهم، سواء الذين عاصروا حياة الأئمة كمؤمن الطاق وهشام بن الحكم وسواءٌ الذين جاؤوا بعد الأئمة كبني نوبخت والشيخ المفيد وغيرهما من المتأخرين من علماء الكلام الشيعة كالمرحوم العلامة الحلّي وغيرهم.

فنحن الشيعة أهل المنطق وأهل الاستدلال المنطقي، وإن الكتب الخاصة بالشيعة مفعمة بالاستدلالات المنطقية القوية ككتب المرحوم شرف الدين وكتاب الغدير للمرحوم العلامة الأميني في عصرنا الحاضر التي تستند إلى أدلة أقوى من الإسمنت المسلّح.

هذا هو التشيّع وليس تلك الأعمال التي لا تستند إلى أي دليل وهي أشبه بالخرافات، فلماذا يروّجون هذه الأعمال؟ إنها من الأخطاء الكبرى التي يجب على علماء الدين وحماة العقيدة أن ينتبهوا إليها ويحذّروا الناس من ممارستها.

فقهاء وعلماء آخرون تحدّثوا عن التطبير

نوجز هنا آراء عدد من الفقهاء العلماء ومراجع الدين حول مسألة التطبير كما وردت في كتاب (الشعائر الحسينية بين الوعي والخرافة) والتي كان الأخ (السيد محمود الغريفي) معدّ الكتاب قد وثّقها من مصادرها الخاصة، (علماً بأن جميع هذه الآراء جاءت بعد بيان السيد الخامنئي، المارّ الذكر (حول الشعائر) في محرم الحرام ١٤١٥ هـ باستثناء رأي الإمام الخميني وعدد قليل من العلماء الماضين (رحمة الله عليهم أجمعين).

رأي السيد أبو الحسن الأصفهاني

في معرض تعليقه على الشعائر الحسينية وتدافع آراء العلماء حولها كتب السيد (جعفر الخليلي) في كتابه المعروف (هكذا عرفتهم) المطبوع عام ١٩٣٦م ـ الجزء الأول ـ وبالتحديد على الصفحات ١٠٦، ١٠٨، ٢٠٧، ٢١٢، ما نصّه:

«... وأتّجه الجميع إلى كبار العلماء يستفتونهم في أمر الضرب بالسيف كمظهر من مظاهر الحزن على أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) فأفتى السيد (أبو الحسن الاصفهاني) بحرمة الضرب بالسيف وقال ما مضمونه:

«إن استعمال السيوف والسلاسل والطبول والأبواق وما يجري اليوم من أمثالها في مواكب العزاء بيوم عاشوراء باسم الحزن على الحسين إنما هو محرم وغير شرعي» وأحال السيد الخليلي هذا المضمون إلى رسالة السيد أبو الحسن الفارسية ـ الطبعة الأولى ـ وأضاف:

(إن السيد أبو الحسن هو الذي تجرأ فحرّم ضرب الرؤوس بالسيوف ولطم الصدر وضرب الظهور بالسلاسل ودقّ الطبول والصنوج والمزامير[1]... ولكن النجف وسائر المدن الأخرى قابلت دعوة السيد محسن الأمين (في تحريم التطبير) وفتوى السيد أبي الحسن بردّ فعل قوي وشديد أظهر أثره في أول شهر محرم من تلك السنة، فقد ازداد عدد الضاربين بالسيوف والسلاسل... وكثرت الأهازيج والأناشيد التي تتضمن النقمة والتحدّي لتلك الحركة الإصلاحية...».

ومن ردود الفعل هذه ما ذكّر به السيد جعفر الخليلي قائلاً:

«وقد انتهز السيد صالح الحلّي فرصة تحريم السيد أبي الحسن شجّ الرؤوس بالسيوف والضرب على الظهور والصدور بالسلاسل فشنّ على السيد أبي الحسن غارة عنيفة بكل معنى العنف ولم يترك لوناً من ألوان الزراية بالكناية والتصريح إلاّ وصبغَ بها السيد أبا الحسن من فوق المنابر التي كان يرقاها، فكان يتصرّف من فوقها بعقول المستمعين تصرّف المالك، ويميل بها أنّا شاء بما كان يملك من مقدرَة وموهبة وجرأة، رفعته إلى أعلى الدرجات في سماء الخطابة والبلاغة...».

ومما كتبه الخليلي عن هذا الخطيب المفوّه قوله:

«إنّه حاضرَ عشرة أيام لهيئة عزاء (المكّارين) الذين يؤجرون حميرهم وبغالهم للمسافرين بين النجف والمدن المتّصلة بها، وإنه لم يخرج طيلة تلك الأيام العشرة عن حديث الحمير والبغال والقوافل وأخبارها القديمة والحديثة وقصصها، وكان الناس

---

[1]- ذكرنا من جانبنا سابقاً أننا نتحفّظ على شجّ الرؤوس (أي التطبير) الدامي المؤلم المقرف الذي يشوّه صورة المسلم الشيعي اليوم ويصمه بالدموية والعنف، ولا نرى بأساً في الاستعراض بالقامات باعتبارها سلاح ذلك الزمان، كما نتحفّظ على اللطم الاستعراضي على الصدور العارية الذي تنقله الفضائيات اليوم ونتصوره خلاف الذوق العام.

بمختلف طبقاتهم يعافون أشغالهم ويحضرون تلك المحاضرات التي ظلّت مدة طويلة موضوع أحاديث الناس وتفكّههم ومثال إعجابهم وغبطتهم له على هذه الموهبة...».

رأي السيد الإمام الخميني

في جواب له على سؤال ورد مكتب سماحته وردّه عليه، يقول السائل:

«ما هو نظر الإمام الخميني في مسألة التطبير والشبيه التعزية والمواكب؟»

فكان الجواب: «في الوقت الحاضر لا تتطبروا، وأما الشبيه فإذا لم يكن مشتملاً على المحرمات ولم يكن موجباً لتضعيف المذهب فلا مانع منه بالرغم من أن التعزية ـ أفضل، وإقامة المآتم على سيد المظلومين من أفضل القربات.»

نقلاً عن (٣٨٠) استفتاء جديد لإمام الأمة ص ٩٢.

هذا وللإمام الخميني رأي معروف في هذا الموضوع مفاده أن التطبير «مسألة لا صلاح فيها»ـ كما ذكرنا سابقاًـ

رأي آية الله العظمى الشيخ الأراكي

«أن طاعة أمر ولي أمر المسلمين بشأن عدم جواز مثل هذه الأفعال (التطبير) واجب على الجميع»

من بيان للمرحوم الأراكي

رأي آية الله العظمى السيد محسن الحكيم

«إن هذه الممارسات (التطبير) ليست فقط مجرد ممارسات هي ليست من الدين وليست من الأمور المستحبّة، بل إنّ هذه الممارسات أيضاً مضرّة بالمسلمين وفي فهم الإسلام الأصيل وفي فهم أهل البيت (عليهم السلام)، ولم أرَ أي واحد من العلماء عندما راجعت النصوص والفتاوى يقول بأن هذا العمل مستحب يمكن أن نتقرّب به إلى الله سبحانه وتعالى. إنّ قضية التطبير هي غصّة في حلقومنا»

نقلاً عن نجله المرحوم السيد محمد باقر الحكيم

إذْ لم يُعرف رأي المرجع الكبير هذا من قبل

رأي آية الله الشهيد مرتضى المطهري

«إن التطبير والطبل عادات ومراسيم جاءتنا من أرثوذكس القفقاز وسرت في مجتمعنا كالنار في الهشيم».

من كتاب الجذب والدفع في شخصية الإمام علي (عليه السلام) الأصل الفارسي

رأي آية الله الشيخ محمد جواد مغنية

«إن العادات والتقاليد المتّبعة عند العوام لا يصحّ أن تكون مصدراً للعقيدة لأن الكثير منها لا يقرّه الدين الذي ينتمون إليه حتى ولو أيّدها وساندها شيوخ

يتّسمون بسمة الدين، ومنها ما يفعله بعض عوام الشيعة في لبنان والعراق وإيران كلبس الأكفان وضرب الرؤوس والجباه بالسيوف في اليوم العاشر من المحرم...

إن هذه العادة المشينة بدعة في الدين والمذهب وقد أحدثها لأنفسهم أهل الجهالة دون أن يأذن بها إمام أو عالم كبير، كما هو الشأن في كل دين ومذهب حيث توجد به عادات لا تقرّها العقيدة التي ينتسبون إليها. ويسكت عنها من يسكت خوف الإهانة والضرر...»

عن كتاب (تجارب محمد جواد مغنية) بقلمه

رأي آية الشيخ محمد فاضل اللنكراني

«نظراً لتوجّه الناس في أكثر نقاط العالم إلى الإسلام والتشيّع بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران... وفي هذا الصدد تكون مسألة (التطبير) ليست عديمة التأثير فحسب، بل وبسبب عدم مقبوليتها، وعدم وجود الملاك الكافي لها، موجبة لترتّب النتائج السيئة عليها، لذا من اللازم على الشيعة الموالين لمذهب سيد الشهداء (عليه السلام) الإمتناع عن ذلك، حتى لو كان في ذمّتهم نذور في هذا المورد...»

من بيان له في ٤ محرم الحرام ١٤١٥ هـ

رأي آية الله الشيخ جوادي الآملي

«لا يجوز القيام بالأمور التي تؤدي إلى تضعيف الإسلام وهتك حرمة مراسم العزاء، فالمطلوب اجتناب التطبير وأمثال ذلك»

من بيان له في ٤ محرم الحرام ١٤١٥ هـ

رأي آية الله الشيخ الأحمد الميناجي

«بعد صدور حكم القائد المعظم آية الله الخامنئي لا يجوز التطبير ونظائره».

رأي آية الله الشيخ الآذري القمّي

«التطبير اليوم يؤدي إلى تضيف الإسلام، فيجب اجتنابه».

رأي آية الله الشيخ حسين المظاهري

«بما أن القائد المعظم (آية الله السيد الخامنئي) قال لا ينبغي التطبير وشد القفل في البدن وأمثال ذلك، فيجب على الجميع اتّباع أوامره.»

٦ محرم الحرام ١٤١٥ هـ

رأي آية الله الشيخ ناصر مكارم شيرازي

«على المؤمنين الأخوة والأخوات السعي إلى إقامة مراسم العزاء بإخلاص واجتناب الأمور المخالفة للشريعة الإسلامية وأوامر الأئمة (ع)، ويتركوا جميع الأعمال التي تكون وسيلة بيد الأعداء ضد الإسلام، إذْ عليهم اجتناب التطبير وشدّ القفل في البدن وأمثال ذلك، التي أشار إليها قائد الثورة المعظم في بياناته الحكيمة،

لأن هذه الأعمال تكون ذريعة بيد الأعداء لكي يتّهموا سائر المراسم العظيمة والبنّاءة...»

رأي آية الله المشكيني (رئيس مجلس خبراء الجمهورية الإسلامية الإيرانية).

«إن خطاب قائد الثورة كان كخطاب الإمام الراحل، وأنا أوصي الجهات المعنية بالالتزام بتوجيهات وأوامر قائد الثورة».

عن جريدة بدر العدد ٩٩٩

رأي المجلس التوجيهي لأئمة الجمعة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية

«يجب نبذ الخرافات والبدع وكلّ ما يُسيء إلى الوجه الناصع للإسلام الحنيف ومنها بدعة (التطبير) التي تسيء إلى ملحمة عاشوراء العظيمة.»

رأي آية الله العظمى السيد كاظم الحائري

«إن تضمين الشعائر الحسينية لبعض الخرافات من أمثال التطبير يوجب وصم الإسلام والتشيّع بالذات بوصمة الخرافات، خاصة في هذه الأيام التي أصبح إعلام

الكفر العالمي مسخّراً لذلك، ولهذا فممارسة أمثال هذه الخرافات باسم شعائر الحسين (عليه السلام) من أعظم المحرمات. ومن صلاحيات ولي أمر المسلمين (دام ظله) أن يتّخذ قراراً بهذا الصدد وفق ما يراه من المصالح، وقد اتخذ القرار، ويجب على الجميع إتّباعه حتى لغير مقلّدية وذلك بوصفه وليّاً للأمر...»

رأي آية الله السيد محمود الهاشمي (رئيس السلطة القضائية في إيران)

«مما لا شك فيه أن إقامة المواكب الحسينية والعزاء على أهل البيت (عليهم السلام) وخاصة أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) مسألة في غاية الأهمية، ولكن يجب أن تُراعى بعض المسائل في طريقة إقامة هذه المجالس، فالقضايا التي تُسيء للدين والمدرسة الشيعية والمجتمع الإسلامي ونظام الجمهورية الإسلامية المقدّس تعتبر من أكبر المحرمات... فإذا رأى ولي أمر المسلمين أن هناك طريقة معينة لإقامة المواكب تعارض مصلحة المجتمع الإسلامي أو تسيء للدين ونظام الجمهورية الإسلامية، ومنعها فيجب على الجميع إطاعته في ذلك».

رأي آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله

«إن ما جاء في حديث وتوجيهات (آية الله السيد الخامنئي) يتناسب بشكل دقيق مع المفاهيم والمعاني السماوية في إقامة مجالس العزاء. إن بعض هذه الشعائر التي

يقوم بها الناس فيما يتعلق بالشعائر الحسينية خالية من المحتوى وليس لها ضرورة، والأجدر بالسائرين على درب الحسين (ع) أن يبذلوا دماءهم في مقاومة ظلم أعوان يزيد بدلاً من التطبير...»

عن جريدة الجهاد العدد ٦٤٩

رأي آية الله السيد الشهيد محمد باقر الحكيم

«إني أنصح جميع المؤمنين والحسينيين من أصحاب الشعائر الحسينية الإلتزام بأمر ولي أمر المسلمين وتشخيصه الشرعي، وكذلك تحديده للموقف الإسلامي تجاه موضوع التطبير والعمل على ممارسة الشعائر الحسينية التي ورد فيها النص الصريح والسنّة الصحيحة عن النبي الأكرم (ص) وأهل البيت الكرام (عليهم السلام) فإن ذلك يقرّبهم إلى الله تعالى، كما إن العبادات والمستحبات لابدّ لنا أن نأخذها عن الإسلام ولا نعمل فيها آراءنا وأذواقنا...»

رأي آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي

«لقد دخلت في الشعائر الحسينية بعض الأعمال والطقوس، فكان لها دور سلبي في عطاء الثورة الحسينية، وأصبحت مبعثاً للاستخفاف بهذه الشعائر مثل ضرب القامات...».

عن كيهان العربي ٣ محرم الحرام ١٤١٥ هـ

رأي آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين

«لقد أُبلغنا إنّ سماحة السيد علي الخامنئي أعلن موقفه من هذه القضية (ضرب الرؤوس) وأمثالها، وأعلن تضامني ودعمي المطلق مع قائد الثورة، وأطلب من أخواني العلماء التأييد والمساندة لأنها دعوة إلى الخير والتقوى ولنشترك معاً ونتعاون جميعاً لإنجاحها لأنّ ضرب الرؤوس خطأً، وأدعو إلى الكفّ عن هذا العمل..»

من كلام له في المجمع الثقافي بمنطقة الغبيري

رأي العلامة المرحوم الشيخ الدكتور أحمد الوائلي (عميد المنبر الحسيني)

«... لا تجعلوا الناس يرمون أهداف الثورة الحسينية بالخرافة والتفاهة إن هذه الخرافات وراءها أياد أثيمة تلعب دورها...»

نقلاً عن شريط كاسيت مسجل له

رأي العلامة المرحوم السيد مرتضى العسكري

«إن ما تفضّل به قائد الثورة الإسلامية مؤخراً حول الشعائر الحسينية دفعت بعالم التشيع إلى الأمام لفترة ألف عام. وإنّ واجبنا الشرعي يحتّم علينا دعم ومساندة ما تفضّل به قائد الثورة الإسلامية حول الشعائر الحسينية، وعلى العلماء توضيح ذلك لأبناء الشعب وتصحيح الأفكار الخاطئة عند البعض. على كل مسلم أن يعلم

أن أفضل خدمة يقدّمها للإسلام هي تخليصه من البدع والله سبحانه وتعالى يعلم بأن البدع هي السدّ الذي يحول دون نشر الإسلام في الخارج.»

كيهان العربي ٥ محرم ١٤١٥ هـ

وعلماء آخرون في نفس الاتجاه

هذا وفي نفس الاتجاه عبّر عشرات آخرون من العلماء وآيات الله وأبرقوا إلى السيد الخامنئي مؤيدين داعمين، بمن فيهم آية الله الشيخ محمد المؤمن (مدير الحوزة العلمية في قم)، والسيد محمد أبطحي (عضو جامعة المدرسين في إيران)، وآية الله الشيخ حسين النوري الهمداني (أحد كبار المجتهدين في الحوزة العلمية بقم)، والشيخ محمد باقر الناصري (أمين عام جماعة العلماء في العراق)، والسيد محسن الخرازي (عضو جامعة المدرسين)، والشيخ إبراهيم الأميني (إمام جمعة قم المؤقت)، والسيد مهدي الروحاني (عضو مجلس الخبراء في إيران)، والسيد حسن الطاهري الخرم آبادي (عضو جامعة المدرسين)، والشيخ محمد إبراهيم الجناتي (أستاذ الفقه المقارن في الحوزة العلمية)، الذي قال:

«إن هذه الأعمال غير صحيحة وموهنة للدين وخرافية وليست لها أصول ولا مبانٍ فقهية في أحكام الشريعة وتشوّه سمعة الدين والتشيّع...».

وكذلك جاءت آراء الآيات الآخرين مثل، الشيخ مرتضى بني فضل (عضو جامعة المدرسين)، وآية الله ملكوتي، وآية الله جعفر كريمي، وآية الله العظمى السيّد علي السيستاني، نقلاً عن مكتب سماحته بقم الذي قال:

«(حكم الحاكم الشرعي) نافذ ويجب امتثاله».

وكذلك آية الله الشيخ محمد اليزدي (رئيس القوى القضائية)، وآية الله الشيخ حسين راستي، وآية الله الشيخ إسماعيل الصالحي المازندراني، والشيخ حسن الطهراني (عضو جماعة المدرسين)، وأسماء كثيرة أخرى أكّدت جميعها على ضرورة التخلي عن هذه الظاهرة المؤسفة التي دخلت أو أُدخلت إلى الشعائر الحسينية.

المفارقة مع صدام حسين والتطبير وبريطانيا

الشيء المعبّر والجدير بالذكر هنا ـ كما يذكر السيد الغريفي معدّ كتاب الشعائر الحسينية المذكور ـ أن رئيس النظام العراقي صدام ـ كما جاء عن تلفزيون هذا النظام ـ دعا الشعب العراقي إلى الخروج في مواكب التطبير وأعلن عن تأييده لها، نكايةً بنداء السيد علي خامنئي المار الذكر، لأن صدام هذا عُرف عنه بما لا يَقبل الشك أنه ضد شعائر الحسين بكل تفاصيلها الفكرية والعاطفية وعلى امتداد ربع قرن من حكمه البغيض، اللهم، إلاّ ما يخدم مصلحته ويروّج له، ويُشغل الناس عنه وعن حكمه، وهو ما كان يدعوه لدعم بعض المواكب في محافظة ديالى مثلاً أو يغضّ الطرف عنها لذرّ الرماد في العيون.

الملاحظة الأخرى الجديرة بالذكر هنا أيضاً أن الحكومة البريطانية، سمحت في ذلك العام للأجانب المسلمين على أراضيها بالخروج في مواكب للتطبير بعد أن كانت قد منعتهم في الأعوام الماضية، وإن كانت تقدّم لهم الأكفان بين عام وآخر كلما عنّ لها تحويل المسألة إلى هدف سياسي، إما لتهوين الشعائر في نفوس بقية المسلمين عبر

الترويج لهذه المظاهر أو إذكاء الفتنة بين الشيعة أنفسهم[1]، وهكذا حصل في مناطق أخرى من العالم حيث يقع بعض (البسطاء) من الشيعة ضحيّة هذه الأحابيل والمخطّطات والنوايا المبيتة...

ملاحظة أخيرة مهمة:

الملاحظة الأخرى المهمة التي يجدر ذكرها في هذا السياق أن هناك العديد من علماء ومراجع الدين العظام كانوا إما سكتوا عن مسألة التطبير هذه أو أيّدوها على مضض لأنها كانت تمثّل حينها تحدّيا للسلطات الظالمة فعلاً، وأنها حافظت على بقاء الشعائر حيّة في نفوس الناس بعد أن حاول الطغاة طمسها واجتثاث جَذْريْها أي بُعديها الفكري والعاطفي معاً، وهذا يعني أننا نحترم آراءهم جميعاً انطلاقاً من إيماننا بصدق نواياهم وحرصهم على إبقاء هذه (الشعيرة) المقدسة نافذةً كريمة لترويج الإسلام وشدّ المسلمين بقيم سيد الشهداء التي ما استشهد (سلام الله عليه) إلاّ من أجل ترسيخها لمواجهة هؤلاء الظلمة والطواغيت وانتزاع شرعيتهم المزيّفة التي حكموا بها المسلمين قروناً طويلة باسم الدين وشعارات الدين.

أي أننا لا نريد محاكمتهم على نواياهم الطيّبة هذه وإنّما نتحدث معهم من منطلق فهم الزمان والمكان، وتشخيصنا، أي تشخيص أصحاب الرأي الآخر، للأحكام الأولية والثانويّة، وكذلك مصلحة الإسلام العليا التي نشترك جميعاً في تقديرنا لها والحرص عليها.

---

[1] ـ نذكّر مرّة أخرى بقصة السفارة البريطانية في طهران ودورها في تمويل المجلس الحسيني المجاور للسفارة التركية في أيام الحرب الصفوية ـ العثمانية ـ مرّ ذكرها ـ

الخاتمة والخلاصة

كلمات ساخنة في قلب الذكرى

سيظل ذكرك يا حسين — يهزّ منا القلبَ هزّاً
وكذا ندانا يا حسين — يزيدنا شرَفاً وعزّاً
لا تطلبوا قبر الحسين — أرضٍ أو بغربٍ
فدعوا الجميع وعرّجوا — فمشهده بقلبي

يمكن القول أنّه ليس هناك في تأريخ العالم ظاهرة أو ذكرى يجتمع حولها الناس ويتفاعلون معها وينفعلون بها كذكرى سيد الشهداء (عليه السلام) ولم يُحدّثنا التأريخ عن يوم يَحتشد فيه الملايين تحشداً طوعياً من كلّ حدبٍ وصوب وتتوقّف فيه عقارب الزمن ليذرف الناس الدموع دماً ويندبون فيه الشهداء أسىً ولوعةً مثل يوم عاشوراء.

ومن هنا حرص وما زال يحرص كلّ المعنيين بالأمة والناس، سياسيين أو علماء، حكام أو سلاطين، خطباء أو مثقفين، سلاطين أو وعّاظ سلاطين، شعراء أو أدباء، صفويين أم علويين تجّار أو مقاولين أو (بقالين)[1] لاحتواء أو توظيف هذه الذكرى كلٍّ حسب مذهبه ومشربه، أو مصلحته واتّجاهه... فبعضهم لترسيخ قيم الدين وترويجه، والدعوة له، وبعضهم لتوظيفه واستخدامه لمصالح سياسية أو حزبية أو فئوية بل حتى عشائرية أو وجاهتية أو تجارية...

وما دمنا قلنا، إنّ هذه الشعائر امتزجت بأرواح ودماء عُشاق الحسين (عليه السلام) وسرت في عروقهم، فإنه من غير الممكن، بل المستحيل، اجتثاثها أو إلغاؤها أو

---

[1] - إشارة إلى (بقالي الكوفة)، السيئي الصيت الذي كان بعضهم يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً.

تذويبها، مهما بذل أو تعاون الجهلة والأعداء لتحقيق ذلك، لأن «أغبى الغباء ـ كما يقولون ـ مواجهة عواطف الجماهير، والأكثر غباءً الوقوف في وجه العادة عند الملايين»[١].

ولئن كان للطواغيت والحكام الظلمة القدرة على احتواء الفكر وتطويقه وقتْل دعاته وتصفية رجاله وأنصاره، وإبادة حَمَلَة مشاعله وروّاده، ولكنهم غير قادرين على اجتثاث أو استئصال العواطف الحارّة الصادقة، التي تفور في قلوب (العشاق) وتغلي في أفئدة وضمائر المحبّين والسالكين، خاصة إذا اكتسح هذا الحب أو هذا العشق بحار الملايين من البشر وغمرهم بفيض الدموع وحرارة البكاء وهيبة الحزن وجلال الذكرى، وكذلك عظيم الإجلال والتقدير، إن لم نقل عظيم الولاء وعظيم التقديس لهذه الذكرى العطرة ورائدها الكبير.

وحين أدرك الحكام الظلمة هذه الحقيقة، وعجزوا عن تطويق الذكرى أو احتوائها أو إلغائها في (الوجدان الشعبي) ـ على حد تعبير (الشيخ محمد مهدي شمس الدين)[٢] رغم محاولاتهم المتكررة والمتواصلة لإلغائها ومنذ قرون مديدة، وبدءاً بحفر قبر الحسين ودرسه وقتل أنصاره وشيعته وزوّاره من قِبَل المتوكل العباسي ورهطه، مروراً بمحاربة أفكاره ومبادئه وتشويه ثورته من قبل الوهابيين وكتّابهم وفقهائهم الذين قال بعضهم إن الحسين (قُتل بسيف جدّه) لأنه خرج على خليفة المسلمين يزيد ـ حسب زعمهم ـ[٣] وانتهاءً بحملات البغي المسعورة لإلغاء الذكرى وشعائرها وشنّ

---

[1]- تُنسب هذه العبارة إلى (لينين) وينسبها آخرون إلى غيره.

[2]- نسبةً إلى كتابه المعروف (ثورة الحسين في الوجدان الشعبي)

[3]- راجع كتابات (ابن تيمية) في منهاج السنّة ٣/ ١٩٠ حول هذا الموضوع، وكذلك (ابن العربي) في (العواصم والقواصم) وغيرهما ـ ناهيك عما كتبه ابن خلدون في مقدمته ص ٢١٧.

حرب إبادة لا هوادة فيها على كل من يحاول ذكرها أو الترويج لإحيائها أو التذكير بها، كما فعل طاغية العراق صدام حسين ويفعله أزلامه وأيتامه ومَنْ لفّ لفّهم من القاعدة و الإرهابيين والتكفيريين، وممّا لا حصر له ولا عدّ من ممارسات وإجراءات سيظل يذكرها التأريخ ضدّ الحسين وأصحاب الحسين الذين كانوا وما زالوا يهتفون داخل العراق وخارجه «**لو قطّعوا أرجلنا واليدين نأتيك زحفاً سيّدي يا حسين**».

نقول، حين عجز الحكام الظلمة عن تحقيق أهدافهم اللئيمة في طمس ذكرى أبيّ الضيم، وإخفات دويّ صيحاته الخالدة لمواجهة حكام الجور المبرقعين بالشرعية المزيّفة من أمثال يزيد، والدعوة إلى الإطاحة به وبأمثاله ومقارعتهم بالسيف، راحوا يبذلون كل ما في وسعهم لتشويه الذكرى وحصرها في الجانب العاطفي، بل في أضعف نقطة فيه، وقصرها على الندب واللطم والتباكي والنواح والعويل، وهذه هي في معناها الأعمق طبعاً غير الحزن والبكاء والعاطفة النبيلة والغضب المقدس.

تشويه الشعائر وتحريف الهدف

ولعلّ أول مَعْلم من معالم التشويه ـ كما قلنا ـ هو تضخيم الإطار على حساب المضمون، والشكل على حساب المحتوى، وإبقاء الذكرى (بكائيةً) حولية يستذكرها الإنسان الشيعي ليُقيم أو يحضر مأتماً حزيناً مُفجعاً على مصيبة سيد الشهداء وذبيح كربلاء، علّه يدّخر في هذا المأتم، ثواباً لآخرته، وأجراً في يوم الجزاء، واعتبار ذلك عملاً عظيماً من أعمال العبادة، يأمل فيه كذلك وساطة الحسين أي شفاعته (عليه السلام) في يوم لا ينفع فيه (مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم).

وهذا يعني أنْ تحوّلت الذكرى لدى هذا الشيعي إلى يوم مشهود يعتقد أنه سينال فيه جزيل الثواب من الباري تعالى، بصرف النظر عن تفعيل هذه الذكرى وتحويلها إلى أسلوب من أساليب العمل لتوعية الأمة وتحريك طاقاتها الكامنة لمواجهة الظلم والظالمين، أو الثأر للضيم والبؤس الذي يعاني منه الناس، وإعادة تحكيم المضيّع من حدود الله ـ (كما فعل الحسين (عليه السلام) أو أراد)، والاكتفاء بتحويل اللعن على بني أمية ورمزهم الملعون (يزيد) خصيم الحسين (عليه السلام) إلى هدف بحدّ ذاته يُرتجى منه، أي من هذا اللعن «عملاً أخروياً محضاً، وليس براءة من النهج الأموي بدلالاته السياسية والاجتماعية» ـ كما يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين ويُضيف:

«إن الذكرى الحسينية ـ في الكثير من الأحيان ـ تحوّلت إلى مأتم حسيني فَقَدتْ فيه دلالاتها السياسية والاجتماعية ومغزاها العميق في التزام موقف حياتي أو وجودي ـ أي واقعي ـ إزاء تحديات الواقع البائس... ـ بل ـ غدتْ الذكرى (في هذه المآتم) دعوة إلى الزهد في الدنيا، و(تحوّلت) إلى وعظ سلبي يدعو (الشيعي) إلى الانصراف عن العمل الحياتي ـ الواقعي هذا...»[1] بعيداً عن هموم الناس وآلامهم ومعاناتهم وتطلّعاتهم أو كما ذكر أحد الكتاب إنها تحوّلت إلى هدف بدل أنْ تكون وسيلة وقال:

«إنّ الأمر يتطلب تكثيف الرأي العام الإسلامي حول قضية الثأر المنسية، لا أن يُصار إلى تذويب الهدف في الوسيلة بحيث يصل الأمر إلى اتّهام العالَم الشيعي

---

[1]- ثورة الحسين في الوجدان الشعبي ـ محمد مهدي شمس الدين ـ الطبعة الأولى عام ١٩٨٠ ص ٢٨٦.

وشعائره الحسينية بأنها تعابير عن عُقَد نفسية شوفينية أو ماسوشية ـ أو ساديه ـ»[١]
ويُضيف (أي هذا الكاتب):

«إن مراسم عاشوراء لا يمكن، بل لا يجوز اختزالها إلى مراسم عويل وبكاء، أو تمييعها إلى مجالس رثاء (تزدهر) في الأيام الأولى من محرم وتشتد جذوتها في العاشر منه، وتنتهي حرارتها وربما تموت في الساعة الثالثة من بعد ظهر نفس ذلك اليوم».
أي بعد انتهاء المراسم مباشرة)[٢].

وهو عين ما أشار إليه الدكتور (علي الوردي) في كتابه المعروف (وعاظ السلاطين) حينما قال : «أما الشيعة المعاصرون، فإنهم قد نسوا المبادئ التي ثار في سبيلها الحسين، واهتموا باللطم والبكاء، وكأن ذلك هو الهدف الأكبر الذي قُتل من أجله إمامهم الثائر» وأضاف:

«يزور الشيعة قبر الحسين بمئات الألوف كل عام، ثم يرجعون من الزيارة كما ذهبوا، أي لم يفعلوا شيئاً غير النواح واللطم» ولكنه يقول مستدركاً ومعلّقاً:

«إنهم اليوم ثوار خامدون (أي كالبركان الخامد) خدّرهم السلاطين وحوّلوا السيوف التي كانوا يقاتلون بها الحكام قديماً إلى سلاسل يضربون بها ظهورهم، وحراب يجرحون بها رؤوسهم، ومن يدري ـ والكلام (للوردي) طبعاً ـ فقد يأتي عليهم يوم تتحول فيه هذه السلاسل والحراب إلى سيوف صارمة من جديد. نعم

---

[1]- إشارة إلى مشاهد الدم وإيذاء النفس عبر اللطم الموجع والضرب بالسلاسل المدببة على الظهر ـ

[2]- راجع صحيفة (بدر) العدد ٢٣٩ محرم الحرام ١٤١٨ هـ وهذا ما لا نعتقده يحصل دائماً، إذْ أن لوعة هذا اليوم وشجونه وآلامه تستمر وكأن الحسين قتل في ذلك اليوم وليس قبل ألف ومئات من السنين والأعوام.

والكلام ما زال للدكتور الوردي ـ أنهم لا يحتاجون في ذلك إلاّ إلى فردٍ (مشاغب) من طراز (اللعين) بن سبأ!!»[1]

أي أنهم لا يحتاجون إلا إلى قائد ثائر يقودهم لمواجهة الطاغية الحاكم، وهذا ما حصل فعلاً بعد حوالي ثلاثين عاماً، حيث قاد الإمام الخميني جماهير شعبه الحسيني ضد الحاكم الظالم وتحت راية مفادها «إن الدم ينتصر على السيف» وأنّ «كلّ يوم عاشوراء وكل أرضٍ كربلاء» وهو ما يفعله الثوار الشيعة في كل زمان ومكان يظهر فيه طاغية متفرعن كيزيد.

وبكلمة أخرى إن الأعداء أو الجهلة على حد سواء أرادوا تحويل الذكرى إلى وسيلة (هروب) وانتظار سلبي وتخدير فقط وباعتبار (حب أهل البيت حسنة لا تضرّ معها سيئة)!![2] ـ كما يقول البعض، وتماماً كما فعلوا بالدين حين حاولوا بل يحاولون تحويله إلى مخدّر ومهدئ و(أفيون) بدل أنْ يحوّلوه إلى أداة استنهاض ووسيلة تحدٍّ وثقافة عزيمة، وشاهد إرادة، وبدل أن يحوّلوه إلى ثورة مظلومين ضد ظالمين، أو صيحة مستعبَدين ضد مستعبِدين.

---

[1] ـ وعاظ السلاطين ـ الدكتور علي الوردي ـ ط ٢ لندن ١٩٩٥ م ص ٢٥٥ ـ علماً بأن هذا الكلام كتبه الوردي عام ١٩٥٤ م أي قبل أكثر من أربعة عقود من الزمن وأنّ تلك السيوف قد تحولت فعلاً ضد السلطة في العراق في انتفاضتي صفر وشعبان المعروفتين أي بعد عقدين من السنين... وأن كلمتي (مشاغب) و (لعين) جاءتا استطراداً واستخفافاً بقائليها طبعاً وعلى طريقة الوردي الساخرة في الاستخفاف بخصومه، ولعلّه يقصد بالمشاغب هنا (أبو ذر الغفاري رض) وبابن سبأ (عمار بن ياسر) لأنهما هما اللذان قادا الثورة ضد الشرعية المزيفة أيّام زمان.

[2] ـ ناسين شرط هذا الحبّ وشروطه ومتناسين أن هذه العبارة ربما كانت تكلّف حياة قائلها في يوم من الأيام، تماماً كما كانت عبارة (أشهد أنّ علياً ولي الله) تكلف قائلها حياته أيضاً.

يعلق (روجيه غارودي) المفكر الفرنسي المعروف على عملية تسطيح الوعي الديني هذه ويضرب مثالاً على التثقيف الذي تقوم به السعودية لما يُسميه (إسلام النفط) وإنّ هذا التثقيف هو مجرّد انكماش على الذات وإنه عملية فجّة لتحويل الدين إلى (عبادات بلا روح) ويضيف:

(مما يلاحظ في بلدان مثل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا، حيث تُثار ألف عقبة أمام الإتحادات الإسلامية الواعية عندما ترغب في بناء مصلّى متواضع على نفقتها، ولكن الموافقة تأتي بسهولة كبيرة على إنشاء الجوامع العملاقة التي تموّلها السعودية...) والسبب ـ كما يرى (غارودي) طبعاً ـ (إن إسلام السعودية لا يحسب حساباً إلا لعدد (حالات اعتناق الإسلام) والتي تمنح امتيازات ماديّة للـ (داخلين في الدين)، وحيث يجري توزيع كميات هائلة من النشرات التي تتناول (أحكام الصلاة)، دون المرور لحظة واحدة على ذكر روحانية العلاقة بالله... فضلاً عن قيام السلطات السعودية بنشر وتوزيع كتابات (ابن تيمية) التي تؤكّد على (أن ستين عاماً من حكم والٍ جائر أفضل من ليلة فوضى...)[1].

وانطلاقاً من تغلغل هذه الروح (الإنهزامية) أو (الزهدية السلبية) حسب تعبير الشيخ شمس الدين، أي الروح (الصوفية، الرهبانية) أو التخديرية بتعبير آخر، صارت مأساة أبي عبد الله (ع) مُرادفاً لرفض الدنيا والتخلّي عنها وتفسيرها تفسيراً صوفياً (زهدوياً)، تماماً كما فُسّر تعسّفاً فصل الدين عن السياسة أو السياسة عن الدين، فبتنا ندفع ضريبة هذا (الفصام النكد) منذ قرون وقرون، حكومات متفرعنة وسُلطات

---

[1] ـ راجع كتاب (الأصوليات المعاصرة) ـــ روجيه غارودي الطبعة الأولى ١٩٩٢ م ص ٧٣-٧٤-٧٨ وهو فعلاً ما يراه (ابن تيمية) هذا ويؤكّده في كتابه المعروف (السياسية الشرعية) ص ١٦١ حيث أورد فيه ما نصه : (إنّ ستين سنة تحت إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان). ولا ندري، لعل الرجل (أي شيخ الإسلام) قد غيّر رأيه في أيام عمره الأخيرة ـ كما يقول البعض ـ

غاشمة، استأنست لترويج هذه الثقافة وتحت شعارٍ باهتٍ، مؤوّل التفسير، موجّه المقصد، موظّف الهدف:

أترجو الخير من دنيا أهانت حسين السبط واختارت يزيدا

أي تحويل الدين إلى (مورفين) مخدّر بانتظار الحلّ السهل، بل الانتظار السلبي السهل، وتحت شعار باهتٍ آخر خلاصته أو مفاده: انتظار الحجّة المنتظر (عج) دون دراسة شروط هذا الانتظار، والاكتفاء بتحديد أو تجديد علامات الظهور كلما ضغط الزمن وازدادت المحن، وبالتالي الدوران مع قول القائل:

غيبتـــك طالـــت علينه وصـــارت الوادم بريبة

والهضـــمُ والـــذلّ علانه والطفـــل بيّـــن مشيبة

... يمته يلمحجوب تبدي من الغروب...(أي متى الظهور من ناحية الغرب؟)

يستغيث الدين بـــــاسمك وأنت يلمحجوب نايم

شكثر عـــلْ الضيم صبرك يلـــمغيّب والهضايم..

سيـــــدي والله لظهورك بيّنتْ كثـــره العلايم

وأنت يلمحجوب نايم[1]

يـــغايب غيبتـــك غيبه يحايـر هجرتك هجرة

احنـــــا الشرك[2] ذَلتنه وأنت روضة الخضرة

---

[1]- راجع كتاب (منهل الشرع) السيد عبد الحسين الشرع ـ الجزء الثاني ص ٢١٢ وأمثال ذلك كثير في الشعر الشعبي الدارج وحيث يتجاوز العتاب حدوده إلى ما لا يليق بالشعر ولا بالشاعر وخاصة إذا كان محسوباً على مذهب أهل البيت (عليهم السلام).

[2]- أي أهل الشرك.

عنـــدك لامـــــة الكرّار　　بـــعد إلمن مخلّيها[1]

يـــــــا عتبة المليك تهون　　يـا دم الذي تهدره[2]

وأقسى من ذلك وأشنع:

بالطف واحـــد وسبـــعين غير حسين

لـــــيش دمومهم للـــيوم مغدورة

مغدورة يبـــــو صـــالح ولا تهتم

وهَلَك[3] خلصوا چتل غير السقوه بالسم

جسم حسين جدك غسّلـــوه بـــالدم

عـــاري وذاري التربـــان كــــافورة

كافـــورة التراب وظل ثلث تيـــــام[4]

ونته شلون مغفي ولا تشد حـــــــزام[5]

وأمثال ذلك ما راح يشير إليه بل يؤكّد عليه الكثيرون من روّاد الشعر الذين جنحوا إلى شواطئ غير كريمة وغير مسؤولة أحياناً وخاصة في قول من قال:

يـــــا صاحب العصر أدركنا فليس لنا　　وردٌ هنيٌّ ولا عيشٌ لنــــــا رغَدُ

فاكحل بطلعتك الغرّا لنــــــا مُقَلاً　　يكاد يـــــأتي على إنسانها الرمَدُ

---

[1]- أي لمن تدعُها أو تتركها.

[2]- ديوان (سلوة الذاكرين) ـ الشيخ عبد الأمير الفتلاوي ص ٢٤٢.

[3]- أي أن أهلك يا أبا صالح قضوا بين قتل وسم وأنت لا تهتم!

[4]- ثلاثة أيام.

[5]- نفس المصدر السابق ص ٢٣٧.

هـــــــــب أن جندك معدودٌ فجدّك قد لاقى بسبعين جيشاً ما له عدد[١]

وأمثال ذلك من المقايسات الباهتة التي تنمّ عن إتّكالية مؤسفة أو زهدٍ (متماوت) كما يسميه الشهيد المطهري يريد من خلالها هذا النموذج الشيعي المفجوع أن يأتيه النصر على طبق من ذهب وبالتالي فعلى صاحب العصر كما يرى صاحبنا أن يخرج ولو بسبعين كما خرج جدّه لإنقاذ هذا (الوادي الغارق في الدموع).

وأقسى، أو أبسط من ذلك طبعاً ما راح يُنظّر له بعض الكتّاب في كتب كثيرة تروّج لظاهرة (الزهد السلبي) المذكورة خطأً واشتباهاً طبعاً كما جاء في كتاب (المنتخب للطريحي) مثلاً وكيفية ترسيخه للموقف الزهدي عبر هذا المفهوم الخاطئ، حيث اندمج هذا الموقف في وعي الإنسان الشيعي وصار إحياء الذكرى والبكاء على الإمام الحسين (عليه السلام) باباً من أبواب الجنة فقط، وعملاً أخروياً عظيماً لا يُضاهيه آخر.

يشرح الشيخ المطهري (رحمه الله) التوكل السلبي هذا بقوله : (يُطرح التوكّل في آيات القرآن الكريم على شكل مفهوم إحيائي وحماسي بيد أنكم حين تبحثون عن وضع هذا التوكّل بين أفكار المسلمين اليوم ترونه مفهوماً ميتاً، فحينما نريد أن نركن إلى السكوت والانزواء وعدم التحرك، وعندما نريد التنصل من المسؤولية وإلقائها وراء ظهورنا نتشبث بالتوكّل بقوة حتى انقلب مفهوم التوكّل في تصوّرنا رأساً على عقب، ودخل في أذهاننا بعكس ما ورد في القرآن الكريم...) وهكذا في مسألة الزهد

---

[1]- لاحظ المقارنة المتعسفة والمقايسة الشاعرية الشعرية الجانحة للمرحوم (السيد الهندي)، التي تُنسب له هذه الأبيات الشهيرة والتي يردّدها بعض الناس من دون تأمّل أو توقّف أحياناً.

الذي يُسمّيه الشهيد المطهري (التماوت) فيما هو (يختزن طاقة عظيمة نحو الإحياء والحماسة والحركة) ـ على حد تعبيره ـ [١]

يقول صاحب (المنتخب) في نفس السياق:

«**ولا شيء لعمري أدْعى لحصول الثواب العظيم وإزالة العذاب الأليم من إظهار شعائر الأحزان، وإجراء الدموع الهتان على ما أصاب أهل البيت في ذلك الزمان من أهل الغدر والخذلان... فيا أخواني ـ والكلام لصاحب المنتخب ـ إن رغبتم في المنزل الكريم والثواب العظيم الجسيم فأديموا الحزن عليهم والجزع والكآبة لديهم...**» [٢].

نعم تحولت الذكرى إلى حالة (فلوكلورية) ـ كما يصفها البعض ـ في بعض مقاطعها طبعاً وحيث يُطلب فيها غفران الذنوب السهل ولو (بالتباكي إن لم يتوفّر البكاء)، وهنا تحجّر مغزاها الثوري التغييري العظيم، إلى ما يشبه بعض حالات الإحياء السطحي لليلة القدر مثلاً، حيث يطلب (المتضرعون) (المغفرة السهلة) من الباري تعالى، كما يطلب المهزومون (الانتصارات السهلة) عبر التضرّع والدعاء فقط، وينسون أو يتناسون «**إن النصر ليس حقاً لكم، وإنما النصر حقّ طبيعي لكم بمقدار ما**

---

[1]- راجع (الالتقاط الفكري والتحجر العقائدي في نظر العلامة المطهري) ترجمة رعد هادي جبارة ص ١٥٠ و ص ١٥١... وهذا طبعاً لا يعني شطب حالة الانتظار الإيجابي لصاحب العصر (عج) الذي يعتبر وقوداً يزوّد الإنسان الحركي المؤمن بطاقة كامنة لمواجهة الصعوبات والأزمات التي تعصف بهذا الإنسان أحياناً.

[2]- المنتخب ص ٣٤، ٦٨ وعشرات النصوص المماثلة التي لم تفصل بين الزهد السلبي والزهد الإيجابي أو قُل بين الترفّع عن حطام الدنيا أو طلبها وبين طلب الدنيا، لمقارعة الظالمين والانتصار للمظلومين وليس للتحكم والرئاسة والسلطة وحبّ المال والجاه كما لم تفصل بين التباكي والبكاء كهدف أخروي فقط، أو بين البكاء والتباكي من أجل تأجيج الثورة وتفعيل مرجل الغضب المقدس في قلوب البكّائين والمتباكين ضد حكّام الجور في كل زمان ومكان.

يمكن أن توفروا الشروط الموضوعية لهذا النصر»[1] ـ كما يقول السيد الشهيد الصدر الأول، وأنه لا يأتي إلا عبر الجهاد والكدح والمكابدة وإعداد العدّة، وأن هذا التباكي، يتحول في الكثير من الأحيان إلى مجرّد (رياء) لا يُسمن ولا يغني ولا يوفّر ثواباً ولا يأتي بأجر، إن لم نقل أنه في معظم أحيانه (بكاءً لله حدوثاً ولكنه للشيطان بقاءً) على حد تعبير الإمام الخميني (رحمه الله).

وفي هذا السياق يحذّر الإمام الخميني (قدس سره) في كتابه المعروف (الرياء والعجب) من هذه الخيوط الشيطانية الخبيثة وعدم الإنجرار إلى شباكها، فيسْخر من أولئك الذين يبكون للرياء ويقول: «**وبعد انتهاء المجلس الحسيني لا يزيل بعضهم عن عينيه الدموع بشكل كامل، بل يزيل الدموع بمقدار ما يبقى أثره ويجلب النظر من الناظرين، إذ يصبح خوف هذا الإنسان ليس من غلبة القساوة على قلبه، بل خوفه من أن يُقال له أنه قاسي القلب، وهنا ينبغي ترك التباكي، فقد يكون أصل البكاء عن الحزن فعلاً، ولكن تجيئه خاطرة الرياء أثناء البكاء فيرتفع صوته ويمدّه بالبكاء، فتلك الزيادة رياء إذْ كان بكاؤه لله حدوثاً وللشيطان بقاءً...**» راجع الكتاب المذكور ـ إعداد وترجمة السيد أحمد الفهري ص ٥٧، ١٠١ إلا أن هذا الكلام لا يعني بالتأكيد، الدعوة لإلغاء البكاء أو التباكي على مصيبة سيد الشهداء (عليه السلام) بأي شكل من الأشكال، وإنما الحذر من تحويل هذا البكاء أو التباكي إلى حالات رياء مقيتة تتسلل من خلالهما خيوط الشيطان فيحبط عمل الإنسان ونيّته معاً ـ والعياذ بالله ـ وهكذا مسألة التضرّع في ليلة القدر العظيمة، أي أنّ التأكيد على الحذر من خيوط الشيطان هذه، لا يعني أنْ يُسدّ الطريق أمام أولئك الطيبين البسطاء الذين ينتظرون هذه الليلة المباركة من كل عام لتجديد عهد أو عقد ميثاق جديد مع الله سبحانه

---

[1]- المدرسة القرآنية ـ السيد محمد باقر الصدر ص ١٦١.

وتعالى على ترْك المعاصي والتوبة إليه والإنابة له والتوكّل عليه والاستعانة به، عزّ وجل،...

وهنا غاصت أو بدأت تغوص في عمق الوعي الشيعي مثلاً عبارة «أفضل الأعمال، الصلاة على محمد وآل محمد» ـ لاحظ كلمة (أفضل الأعمال)، دون الإلتفات إلى أن هذه العبارة وحدها بدون عمل (لا تضرّ ولا تنفع) وإنها ربّما تتحول إلى حالات رياء وتمتمات فارغة المحتوى، تُبعد عن الدين أكثر مما تُقرّب إليه، وخاصة حين يصبح ترديدها بديلاً عن العمل بها، وهنا المفارقة المؤلمة الموجعة طبعاً التي يُقيم المسطّحون الدنيا عليها ولا يُقعدونها...

هذا في عموم الذكرى، وفي مآتم الرجال فقط، لأن في مآتم النساء صوراً ولوحات أكثر سطحية وضحالة وقد لا تتعدى المآتم عن اللطم والنواح والعويل دون الغوص في الدور العظيم الذي توّجته أو اضطلعت به (بطلة الطف) زينب الكبرى مثلاً وكذلك مواقف نساء وأمهات وأخوات شهداء الملحمة الكبرى التي خلّدها التأريخ...

نعم هذا في عموم الذكرى، أما في تفاصيلها ومساعي الأعداء المحمومة لتسطيحها وتفريغها من محتواها، ففي ذلك ما يدمي القلب ويُقرح الفؤاد... ونكتفي، في هذا السياق أنْ نُذكّر بما نقله (**الدكتور محمد التيجاني السماوي**)[1] في كتابه المعروف (**كلّ الحلول عند آل الرسول**) وحيث جاء فيه:

«إن وسائل الإعلام الغربية، تبرز شيعة إيران (لاحظ شيعة إيران) وليس شيعة الهند أو الباكستان لحاجة في نفس يعقوب طبعاً، تُبرز هؤلاء الشيعة ـ وكل الكلام للتيجاني ـ في موسم عاشوراء وكأنهم وحوش ضارية.. وأنها، أي وسائل الإعلام

---

[1] ـ كاتب تونسي معروف، أصبح معروفاً أكثر بعد أعتناقه مذهب أهل البيت وله كتب عديدة قيّمة تناسب المبتدئين والشباب.

المذكورة، لا تنقل صلاة الجمعة مثلاً التي يؤمّها أكثر من مليوني مسلم ـ في بعض الأحيان ـ وتؤدى بإمامة رئيس الجمهورية الإيرانية مثلاً بهيبة وخشوع، ولكنها تُركّز على (التطبير) وضرب القامات وسيلان الدم وبعض المناظر المنفرة التي تشمئز منها النفوس...) ـ حسب تعبير التيجاني هذا طبعاً ـ الذي أضاف:

«الغريب في الأمر والذي يبعث على الشك إنك ترى هؤلاء (المطبّرين) الذين خرجوا عن أطوارهم وظننتَ أن الحزن أخذ منهم كل مأخذ، فإذا بهم بعد لحظات وجيزة من انتهاء العزاء تراهم يضحكون ويأكلون الحلوى (ويمرحون) ويشربون ويتفكّهون، وينتهي كل شيء بمجرد انتهاء الموكب ـ أي موكب العزاء ـ والأغرب من ذلك ـ والكلام ما زال للدكتور التيجاني ـ إن معظم هؤلاء غير ملتزمين بالدين ـ أي غير متدينين بالمعنى المعروف للتديّن ـ كالصوم والصلاة وأداء الحقوق والواجبات ولذلك سمحتُ لنفسي بانتقادهم مباشرة عدة مرات، وقلتُ لهم أن ما يفعلونه هو (فولكلور شعبي) وتقليد أعمى على طريقة حلقات الذِكْر والدروشة عند (أهل الطريقة النقشبندية أو القادرية) الذين يدقّون المسامير والحراب في رؤوسهم أمام شيوخهم (أي شيوخ الطريقة) ـ وبعضهم ـ يروح يدور خمس ساعات متواصلة بلا انقطاع حول نفسه أي في حلقة الذكر ـ وفيهم من يزني ويلوط ...»

وينتهي الدكتور التيجاني، بعد هذا العرض المؤلم إلى الترحّم على السيد الشهيد الصدر (ﷺ) بالقول: «أنه ـ أي السيد الشهيد الصدر ـ أفادني في هذه المصيبة عندما سألته قبل استبصاري فقال لي: «إن ما تراه من ضرب الأجسام وإسالة الدماء هو

من فعل عوام الناس وجهّالهم، ولا يفعل ذلك أي واحد من العلماء، بل هم دائبون على منعه وتحريمه...)»[1].

انتهى كلام الدكتور التيجاني والشهيد الصدر ـ ونعود إلى القول:

إننا لسنا بصدد الغوص في تفاصيل الذكرى والإحياء ومشاهد الشعائر والطريقة (النقشبندية والقادرية والتطبيرية) التي أُدخل فيها (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، ولكننا نُريد المرور على ظاهرة الشعائر الحسينية من زاوية الوعي والتسطيح، أو قل ظاهرة تسطيح الوعي التي تحوّلت إلى مشكلة وأزمة فعلاً يفترض أنْ يتدخل فيها العلماء والعقلاء وقبل أن يفلت زمام الأمور ويجري إدخالها في بدع أو إدخال بدع فيها، ما أوصى بها نبيّ ولا وصيّ نبيّ ولا إمام، ولا عالم، وما أنزل الله بها من سلطان، ولم ترد في كتابٍ أو رواية أو مأثور كلام...

الأزمة بين الدور الزينبي والدور الحسيني

يمكن القول أنّ أول معْلم منْ معالم هذه الأزمة، أو هذا التقاطع بين مدرسة الوعي ومدرسة التسطيح هو التداخل بين الدور الزينبي والدور الحسيني مثلاً وعدم القدرة على التفكيك بينهما أي عدم القدرة على فهم دورهما التكاملي العظيم في معركة الصراع بين الحق والباطل، إذْ تحوّل معظم عشاق الحسين، أو يحاولون التحوّل إلى تمثّل الدور الأول لأنه أيسر وأسهل في عالم الصدام والمواجهة مع الحكام الظلمة،

---

[1] – راجع كتاب (كلّ الحلول عند آل الرسول) الدكتور محمد التيجاني السماوي الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م ص ١٥٠.

ناسين أو متناسين أن الدور الزينبي ـ أي التبليغي أو الإعلامي ـ إنما جاء وظيفة جهادية للمرأة بعد أن سقط عنها (تكليف) القتال أو أعفيت منه...

هذا من جانب، ومن جانب آخر، إن الإعلام ـ يأتي مُفصحاً أو معبّراً عن الفعل وليس بديلاً عنه في أيام المواجهة والصدام واصطكاك السيوف، وإلاّ فإن الكلّ في هذا الإطار يصبحون أبطالاً ويصحّ عليهم قول الشاعر:

قصائدنا بلا لونٍ بلا طعمٍ

بلا صوتِ

إذا لم تحمل المصباح من بيتٍ إلى بيتِ

وإن لم يفهم البسطا معانيها

فأولى أنْ نذرّيها

ونخْلُدْ نحن للصمتِ[1]

وحين طلبوا منه إعادتها قال:

إذا لم تحمل الرشّاش من بيتٍ إلى بيت

فأولى أن نُذرّيها

ونخلد نحن للصمتِ

أو قول الآخر...

هل النظام في الأساس قاتلُ

أم نحن مسؤولون عن صناعة النظام؟!

للأدباء عندنا نقابة تشبه في تشكيلها

نقابة الأغنام...

---

[1] ـ الشاعر محمود درويش.

ثَم ملوك أكلوا نساءهم

لكنّما الملوك في زماننا

تعوّدوا أن يأكلوا الأقلام

كيف لنا أن نربَح الحرب...

إذا كان الذين صوّروا أو مثّلوا وأخرجوا

تعلّموا القتال في وزارة الإعلام؟؟!![1]

وهنا يأتي القول الفصل لشاعر آخر:

إن ألفيّ قـــــذيفةٍ مـــن كلامٍ   لا تســاوي قذيفةً من حديدِ

وهذا يعني ـ في سياق موضوعنا، ومن زاوية أخرى أن القصائد (الجاهزة) (للرادود) الحسيني، التي يزوّده بها الشاعر في أغلبها إن لم نقل أكثرها تحوّلت أو تتحوّل في سنيّ (التراجع والنكوص) إلى مراثي (عتيدة) ترفض تحويل الأحزان من حالة حولية أي سنوية إلى حالة يوميّة، بلحاظ المعركة المحتدمة مع الطواغيت، وبلحاظ (إن كل يوم عاشوراء وكلّ أرضٍ كربلاء) ـ على حد العبارة المأثورة التي ينشدها الثوار والأحرار في كل زمان ومكان ـ

فصِرْنا نرى ونسمع كلّ يومٍ قصة جديدة ليزيدٍ جديد، وكوفةٍ جديدة، بينما تبقى قصائدنا الرثائية مشدودة إلى ذلك الـ (يزيد الملعون) الذي علّقْنا على شمّاعته كلّ انسحاباتنا وهزائمنا ـ وكأننا مصرّون على عدم التمييز بين (الكوفة) والحالة الكوفية المرفوضة طبعاً. وبتعبير أدق، عدم تحويل (الحالة الكوفية) إلى حالة حسينية رافضة متمردة ثائرة، وذلك لإصرار البعض على التمسك (بكوفيتهم) وتبرئة (الحالة

---

[1]- الشاعر نزار قباني.

الكوفية) السيئة الصيت، وإلقاء اللوم على شخص يزيد وعصابته المجرمين، إمعاناً في الهروب والانسحاب والتملّص من تحمّل المسؤولية التأريخية.[1]

نعم، إنّ الإصرار على شخصنة القضية وتحميل يزيداً وعصابته وزمرته وحزبه فقط مسؤولية قتل الإمام الحسين، وتبرئة الأمة التي شايعت وبايعت وتنكبت لقتاله، إنما هو خطأ فادح قد يُساهم مرة أخرى في إيجاد يزيد آخر وظالم آخر في كل عصر وزمان.

وهناك مفارقة أخرى في هذه الأزمة تتجلى حين تسمع صيحة الإمام الحسين (عليه السلام):

«لقد ركّز الدعي ابن الدعيّ بين السلّة والذلّة، وهيهات منا الذلّة» فصار تفسير الذلّة عند بعضنا جاهزاً لتمرير كل تلك الانسحابات المذكورة السيئة الصيت.

وتأتي المفارقة الأخرى حين يُرفع الشعار الآخر القائل: **«إن كلّ راية تُرفع قبل قيام القائم فصاحبها طاغوت... وكل راية ترفع قبل قيام القائم فإنها راية ضلال...»** حتى تنتهي هذه الديباجة إلى التمسك بصحة الرواية القائلة: **«والله لا يخرج أحد منا قبل خروج القائم إلاّ كان مثله كمثل فرخٍ طار من وكره قبل أن يستوي جناحاه، فأخذه الصبيان فعبثوا به»** أو الأخرى **«ما خرج ولا يخرج منا أهل البيت إلى قيام قائمنا أحد ليدفع ظلماً أو ينعش حقاً، إلا اصطلمته البليّة...»**

وهذا يعني تأجيل الصراع... وإلغاء المواجهة، وتصفير التكليف وتحنيط الجهاد إلى يومٍ لا يعلمه إلا الله تعالى.

---

[1] - هذا مع احترامنا وإجلالنا للعظماء والثوار من أهل الكوفة الذين حيل بينهم وبين نصرتهم للإمام الحسين (ع)، وخاصة أولئك الذين كانوا معتقلين في طوامير الظالمين.

وفي الوقت الذي كنا نسمع ـ دويّ صيحات أبيّ الضيم تقول: «إني ما خرجت أشِراً ولا بطراً، ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله (ﷺ)... كي آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر) ويدفع ضريبة هذا الخروج أوصالاً كريمة تنهشها (عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن منها أكراشاً جوفاً وأجربة سغبا) صارت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذه تتوارى خلف ألف ذريعة وذريعة من شعارات (التقية) التي اعتبرها الإمام الصادق (عليه السلام) إنها ـ على حد النفاق[1] ـ في بعض الأحيان.

ويتّضح وجه آخر من وجوه الأزمة بين الدور الزينبي والدور الحسيني حين يتوارى بعض الناس خلف ذريعة (حرْز الأثر والأمن من الضرر) أو (عدم إلقاء النفس في التهلكة) و (الواجب العيني) و(الكفائي) متناسين أن (الجهاد والقتال) هو إلقاء واعٍ بالنفس في هوات الموت والهلاك، وأن قضية (العيني والكفائي) مسألة اجتهادية حولها نقاش لا مجال لطرحه[2]، وأمثال ذلك مما أغرقت به هذه الفريضة السامية التي هي أسمى الفرائض والتي استنطق حديثها الشريف الإمام الخميني وفجّر خلالها ثورته.

يقول هذا الحديث: **«إنّ الله تعالى ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له، قيل وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له يا رسول الله، قال: الذي لا ينهى عن المنكر»**[3].

---

[1]- عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: (وأيم الله لو دُعيتم لتنصرونا، قلتم لا نفعل، إنما نتّقي ولكانت التقية أحبّ إليكم من آبائكم وأمهاتكم، ولو قد قام القائم ما احتاج إلى مساءلتكم عن ذلك، ولأقام في كثير منكم من أهل النفاق حد الله...) وسائل الشيعة ـ ١/ ٤٨٣.

[2]- راجع كتاب (الاجتهاد والحياة) من نشريات مركز الغدير للدراسات ص ١٨ – ١٩.

[3]- راجع تحرير الوسيلة للإمام الخميني ـ ط ٢ عام ١٤٠٦ هـ ـ ج ١ ص ٤٢٤ ـ عن وسائل الشيعة ـ ج ١١ / ص ٣٩٧.

وفيما كان شاعر الحسين، أو الثائر على درب الحسين يقول:

أبكيك بـــالبيض الصفاح وبالقنـــا ... فـإنّ بها ما يَطلب الطالبُ الوترا

ولستُ كمــــــن يبكي أخاه بعَبرةٍ ... يعصّرها مِنْ بينِ أجفانه عصْرا

وإنّا أنـــــاسٌ لا تسيل دموعنا ... على هالكٍ منّا وإنْ قصمَ الظهرا[1]

صارت قصائد شاعرنا (الحسيني) المعاصر، تنطلق خجولة حزينة نادبة:

تجدّد ذكــــــراك الورى وتُعيدُ ... ومجْداك إذْ يبلى الزمان جديدُ

المّ بيَ الخطب الـــدفينُ وهاجني ... وأوجعَ قلـــبي في رثاك نشيدُ

ويومك يَـــــا سبط النبي مخلّد ... متى قيل نثرٌ أو أجـــدّ قصيدُ

أو المقطوعة الباكية المفجوعة الأخرى:

مـــا انتظار الدمع أنْ لا يستهلا ... أو مـــا تنظرُ عاشوراء هلاّ

هـــــلّ عاشورا فقمْ جدّدْ به ... مأتم الحزن ودعْ شُربا وأكلاً[2]

وقد لاحظ أمر البكاء هذا أحد كتّاب المقتل المعروفين، وهو العلامة السيد ابن طاووس المتوفى سنة ٦٦٤هـ وأشار أن هذه الذكرى كانت خليقةً بأن تبعث على الفرح والسرور لولا الأمر الشرعي بالحزن والبكاء، وقال:

---

[1]- تنسب هذه الأبيات إلى الشاعر الثائر إبراهيم ذو النفس الزكية.

[2]- وهذا بالتأكيد لا يعني ترك الدموع أو البكاء ولا حتى التباكي، لأن هذه الأمور مندوبة ومستحبة فعلاً في شهر السيف والدم العظيم هذا، وإنّ روايات أهل بيت العصمة والطهارة (ع) أوصت بها وحثّت عليها، ولكننا نقصد أنْ لا تتحول هذه الدموع والآهات والزفرات والآلام إلى أدوات تفريغ للغضب المقدس، أو محطات مشاغلة لشيطان الرياء وألا تكون بديلاً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقارعة الطواغيت وأعداء الدين.

«ولولا أمتثال أمر السنّة والكتاب في لبس شعار الجزع والمصاب، لأجل ما طُمس من أعلام الهداية وأُسّس من أركان الغواية. وتأسّفاً على ما فاتنا من السعادة وتلهّفاً على امتثال تلك الشهادة وإلاّ كنّا لبسنا لتلك النعمة الكبرى أثواب المسرّة والبشرى، وحيث في الجزع رضىً لسلطان العباد، وغرض لأبرار العباد فها نحن قد لبسنا سربال الجزوع وأنسنا بإرسال الدموع...»[1]

وفيما صار حادي أصحاب الحسين (عليه السلام) يقول:

قوم إذا نودوا لدفع ملّمةٍ

والخيل بين مدعّسٍ ومكَرْدَسِ

وضعوا القلوب على الدروعَ وأقبلوا

يتهافتون على ذهاب الأنفسِ

صار حادي البعض يُلمّح اليوم وبلا تهيّب أو استحياء، متوهّماً أنه يستنهض صاحب العصر والزمان (عج) فيقول بجسارة وخشونة غير معهودة:

أحلماً وكـــادت تمـــوت السُنن	بطـول انتظارك يا ابن الحسن
وأوشـــــــك دين أبيك النبيّ	يُمحى ويَرجع ديـــــن الوثن
وهذي رعـــاياك تشكو إليـــك	مـــــا نـــالها من عظيم المحَن
ولـــــم تـــرم طرفَك في رأفة	إلـــيها ولم تُصغ منك الأُذُنُ
هـــل الوهَن أخّر عنك الظهور	أحاشيك أن يعتريـــك الوهن

---

[1] - راجع كتاب (اللهوف في قتلى الطفوف) ص ٣، وكذلك كتاب (ثورة الحسين في الوجدان الشعبي) المار الذكر ص ٣١٧-٣١٨، مع اعتذارنا للشاعر محمد المهدي القزويني الحلي النجفي ـ على استخدامنا كلمة (جسارة) بحقه هنا، والقصيدة هذه وردت في مقدمة كتاب (رياض المدح والرثاء) المعروف.

أم الجبن! كهـــمّ[1] ماضيك مذ تراخيتَ! وحاشا علاك الجبن

توانيتَ (لاحظ) فاغتنموا فرصةً وأبدوا عن الضغن ما قد كمن

أو ما قاله شاعر آخر حين انفعل شططاً:

أقـــائمُ بيت الهـــدى الطاهر كـــم الصبرُ فُتّ حشى

وكـــــم يتظلّم دين الإله إليـــك من البقر الجائر

أمـــا لقعودك مـــن آخر إثـــرها فديتُكِ مـن ثائر

كـــفى أســفاً أن يمرّ الزمان ولـــست بنـــاهٍ ولا آمر

لـــك الله حلمكَ غرّ البغاة فـــأنساهمُ بطشةَ القادر

وطـــول انتظارك فتّ القلوب وأغـضى الجفون على عائِر

أصبراً وهـــذي تيوس الضلال قـــد أمنت شفرة الجاذر

أصـــبراً وسرب العدى راتعٌ يـــروح ويغدو بلا ذاعر

نـــرى السيف أولهم منتضى عـــلى هامنا بيد الآخر

فنشكوا إليـــهم ولا يصطفون كشكوى العـــقيرة للعاقِر

عججنا إلـــيك من الظالمين عجيج الجـمال من الناحر[2]

وهكذا يريد صاحبنا في ندبته هذه ويأمر بل (يتأمّر)، ويستنهض بلغة التقريع ومع من؟!... نعم إنه (الحل السهل) و (الانتظار السلبي السهل) والشعر (السهل)!! وهلم جرا... والذي لا يخسر فيه الشاعر طبعاً (قيراً ولا مسامير) ـ كما يقولون ـ

---

[1] ـ كهمّ: جعل سيفك كالاً.

[2] ـ ديوان السيد حيدر الحلي ـ القسم الحسيني طبعة سنة ١٤٠٩ هـ ص ٧٦.

وهكذا في العديد من مقطوعات الشعر القريض والشعر الشعبي الأكثر وقعاً وتأثيراً في هذا السياق... حيث بتنا نسمع هنا وهناك قصائد جاهزة لفصل الدين عن السياسة ـ والماضي عن الحاضر، وكذلك فصل القول عن الفعل والتفكيك المتعسّف بين الجهاد السياسي والعمل الميداني، وتغليف القعود بالتقيّة، والتخاذل بالحكمة، والنكوص بالتعقّل وغير ذلك، مما غاص في عمق الوعي الشيعي وبات استلال خيوطه الشائكة هذه صعباً لدى البعض، إن لم نقلْ مستحيلاً مع الأسف الشديد عند البعض الآخر.

ففيما يجب أن نسمع دائماً مثلاً:

الثار... الثار... الثار يا عرب وجّو النار (أي أشعلوا النار)

خلّوا إسرائيل انذكّرها حيدرنا شسوّه بخيبرها (المارة الذكر)

صرنا نسمع مثلاً: «صفه عليك الماي يا ابن المصطفى» أي لم تعُد هناك جدوى من انتظارك يا صاحب الزمان!!! أو أن مسألة ظهورك لم تعد ذات فائدة أو أمل!!!

وفيما نحن نسمع بفخر واعتزاز كلمات الفخر والاعتزاز في نشيد القصيدة الخالدة:

يحسين بضمائرنـــــا	صحنا بيك آمنـــــا
لا صيحة عواطف هاي	لا دعــــوة ومجرّد رآي
هذي من مبادئنا...	
لسنـــــا التضحية	عرفنا الـــشرف تضحية
لسنه بيك أبيّ ومتلين[1]	عرفنا الـــذلّ عبودية

---

[1] ـ أي أبيّ لا تلين.

إلى أن يقول:

علينا فرضوا الأحكام بلا رحمة وبلا رأفة

گال اللي يزور حسين ولو مهما يكن ظرفه

عليه حفنة ذهب يدفع رسم[١] زيارته يكلفه

دفعنه وكلْ شخص منّه يشعُرْ بعده ما وفّه

شنهو الذهب شنهو المال المحبّ يتوطّن الحَتْفه

يحسين بضمائرنـــــا صحنا بيك آمنـــــا

نقول: فيما نحن نسمع ذلك وننشده بفخر واعتزاز صرنا نسمع من جانب آخر كلمات العتاب والانكسار المرّ الذي نأبى أن يكون لنا نشيداً ولأمتنا قصيداً لا سيما إذا جاء على لسان الحوراء زينب (بطلة الطف)، التي حاول ابن زياد إذلالها بشماتته البغيضة فقالت «والله ما رأينا إلا جميلاً... قوم كُتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم» ولكن شاعرنا المنكسِر هنا مع الأسف ينقل على لسان حالها قوله:

هل ليله گشرة شلون ليلة كلّ أخوتي أمستْ چتيلة[٢]

يعباس منته اللي جبتني[٣] بـــيدك بخوية وركّبتني

طول الدرب ما فارگتني[٤] بس ما رحتْ عني وعِفتني[٥]

---

[1]- أي ضريبة.

[2]- أي قتلى.

[3]- أي ألستَ أنت الذي أتيت بي.

[4]- لم تفارقني.

[5]- أي تركتني.

يحسين للشام من إجينه[1] كلها طلعت تتجسّر[2] علينا

وابنك علي ماشره عينه يوّن وشِعَب گلبي بونينه[3]

وفيما يجب أن نسمع أيضاً، بل سمعنا بفخر!

نهضتك يحسين هذي مو لجل كرسي او زعامة

لاچن[4] تـــريد النبوّة تثبت ونصّ الإمامة

وترفع لدين الله عَلَم والفخر يوم القيامة

كنا نسمع أيضاً مستهلات تتكرر في القصيدة عدة مرات وتعتبر مفتاحها تقول:

چوچب طلع (أي كوكب طلع) من برج صيوانه ابصهوة حصانه

صلطان چنه وعرش صلطانه ابصهوة حصانه

وتتكرر عبارة (ابصهوة حصانه) هذه أكثر من اثنتي عشرة مرة في القصيدة وتَخْرُج جماهير المجلس الحسيني وهي لا تحفظ عن ظهر قلب إلاّ عبارة: (صلطان چنه عرش صلطانه... ابصهوة حصانه)[5].

---

[1]- حينما جئنا إلى الشام.

[2]- أي تتجاسر.

[3]- أي إن إبنك السجاد العليل لم يرفع بصره وكان يئن أنيناً موجعا يدمي القلب، فيما نحن نعرف عظمة هذا الإمام وإبائه وشموخه وما لا نرى هنا ضرورة لذكره، وأن خطبته في مجلس يزيد يحفظها التأريخ صيحة ثائرعظيم وصرخة إمام أعظم، ولكن المرض هو الذي حال بينه وبين التحاقه بصفوة الشهداء في يوم الطفوف...

[4]- أي لكن.

[5]- (منهل الشرع) ـ السيد عبد الحسين الشرع ج ٢ الطبعة ١٤٠٨ هـ ص ١٣١ إلى ١١٣٤.

وهذا ما لا نريده نشيداً لنا وقصيداً لشبابنا وإنما نريد لأجيالنا وشبابنا أنْ يُردّدوا ما راح ينشده الأديب المصري المعروف (عبد الرحمن الشرقاوي) حينما قال على لسان أبي عبد الله الحسين (عليه السلام):

عندما تبطل أحكام الشرائع

عندما تَحيى للزيف وللبهتان دولة

عندما تتخذ الحكمة معناها من الإذعان

كي تصبح ذلّة

عندما يصبح للإرهاب

سلطانٌ على النفس الأبية

ويصير الصمت والإذعان

من عزم الأمور

عندما ترتفع الدولة فوق الكذب والبهتان

والتزوير والظلم وتزييف الحقائق

إنني أخرج (أي على لسان الإمام الحسين) كي أصرخ في أهل الحقيقة

انقذوا الدنيا من الفوضى

وطغيان المخاوف

انقدوا الأمة من هذا الجحيم

حين تغدو دولة الكذاب و(الأوباش)

لا يعلو بها صوت

سوى صوت المنافق

وفيما يذهب رواد التجديد والثورة والإصلاح بالدعوة لتشذيب الشعائر مما صار يشوّه بعض معالمها الحلوة، وخاصة مسألة التطبير المارة الذكر يروح الآخرون

يتشبثون بإبقائها والمحافظة عليها وفي بلد أطلق كامل الحرية لشعائر الحسين، وفي زمنٍ نُذرتْ لها كلّ وسائل الإعلام والمنابر بلا قيد أو شرط فراحوا يقولون، عن عناد وعن قصدٍ وسبق إصرار:

كل فتاوى المرجعية بالنجف والغاضرة (أي النجف وكربلاء)

ترضه بالتطبير وتنادي لبن حامي الحمة

وتناصره...!!!

وفيما نحن نسمع فخورين أيضاً

كم بين قـــوم إنما نفقاتهم مالٌ   وقـــــوم ينفقون نفوساً

صار بعضنا يمنّ على الحسين (عليه السلام) ويتمنّى على أصحابه (أرواحنا لهم الفداء) فيقول وبلا استحياء:

يحسين إحنـــا نطلب دين   والمديون مو لازم يفك دينه

لــــطمنه عليك حفنه سنين   تـــگعد[1] والطم علينه!!

وهكذا بين الغث والسمين من عشرات الآلاف بل الملايين من هذه المقطوعات الشعرية التي أكل بعض غثها سمينها ـ مع الأسف الشديد ـ وصار لزاماً على روّاد مدارس الوعي والتغيير أن يعملوا ليل نهار لإنقاذ الطيبين والمؤمنين في مدارس التسطيح المذكورة واحتضانهم واستيعابهم والاحتفاظ بهم في مدرسة أبي الأحرار

---

[1] - أي انهض، أو استيقظ

والإرتفاع بهم إلى مستوى المسؤولية الرسالية التي أراد سيد الشهداء من خلال ثورته ودمه ترسيخها في الوعي الإسلامي والنهوض به إلى مستوى الثورة والتغيير[١].

وكلمة أخيرة

الملاحظ على هذه الردّات المتقاطعة أو المقطوعات المتدافعة، أن ذكرى الحسين (عليه السلام) يمكن أن تكون سيفاً ذا حدين ـ كما يقولون ـ أي أنها يمكن أن تُوظّف كوسيلة للتخدير والإنتظار السلبي وتبرير القعود والاكتفاء بجزيل الثواب في يوم الحساب، ويمكن أن تُستخدم كتظاهرة عظيمة لإحياء قيم الحسين ومبادئ الحسين ودعوة الناس إلى التأسّي بالحسين (عليه السلام) إماماً مصلحاً، وثائراً عظيماً، وشهيداً مغيّراً بل منتصراً، رسمَ للأجيال طريق الحرية والكرامة وعلّمهم كيف يكون الإنسان مظلوماً وينتصر ـ على حد تعبير المهاتما غاندي.[٢] أو كيف يكون شهيداً خالداً يتحدّى الزمان ويستنهض الأحرار والثوّار في كلّ زمان ومكان. ويعلّم الناس كذلك كيف يكونوا كما قال أحدهم فيه: «ما رأيت مكثوراً قط (أي كثُر عليه الأعداء) قُتل أهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أقوى جناناً ولا أجرأ مقدماً منه» حتى قال فيه آخر

ما ضاق دهرُك إلاّ صدرك أتّسعا   فقد طربتَ لوقع الخطبِ إذْ وقعا
تزدادُ بشراً إذا ازدادت نوائبه   كالبدر إنْ غشيته ظلمة سطَعا

---

[1]- وردت بعض نصوص هذه المقطوعات الشعرية في كتب (الرثاء الحسيني) بصنفيه القريض والشعبي بما فيها كتاب (رياض المدح والرثاء) الشهير المطبعة الحيدرية الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ وكتاب (منهل الشرع) المعروف ـ السيد عبد الحسين الشرع ـ ج ٢ طبعة ١٤٠٨ هـ

[2]- نسبةّ إلى القول المشهور لغاندي (تعلّمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر.)

وكلما عَثرتْ رجل الزمان عمىً أخذتَ في يده رفقاً وقلتَ لعا[١]

نعم، وبكلمة أخرى يُمكن أن نجعل الذكرى محطة بكاء وتباك مسلوخة عن الإنفعال والمعايشة الصادقة، ويصحّ على الباكي والمتباكي هنا قول القائل:

«ليس كلّ كئيب حزيناً وليس كلّ نائحةٍ ثكلى».

ويمكن أن تكون محطة عطاء وإلهام لفعلٍ وانفعالٍ صادقين عظيمين يمتزج فيهما القول بالفعل، والمفهوم بالمصداق والشعار بالشعور وكما قال شاعر العرب الكبير:

وحيـــــث سنابك خيل الطغاة جـــالت عليه ولم يخشع

شممتُ ثـــــــراك فهبَّ النسيم نسيم الـــكرامة من بلقعِ

وعفّرتُ خـــدّي بحيث استرا ح خدّ تَفرّى ولم يضرعِ[٢]

أو قول الآخر:

فـــأبى إلاّ أن يعيش عزيزاً أو تجلّى الكفاح وهـو صريعُ

فـــتلقى الجموع فرداً ولكن كل عضوٍ في الروع منه جموعُ[٣]

وهكذا، ومهما قيل ويُقال، تبقى ذكرى الحسين، بل يجب أن تبقى هذه الذكرى محطة تعبئة جماهيرية فريدة، تُحشد فيها عواطف المحبين، وتُستنهض فيهم قيم الإباء والتضحية والفداء وتُفتح لعشاق الحسين (عليه السلام) خلالها، ولو في كل عام، يوم أو عشرة أيام باباً أو بابان لإستحضار تلك القيم، ومعايشة صاحبها العظيم، مع أناشيد وأفعال وأقوال أصحابه وأتباعه، لعلّ المقصّرين أو المذنبين من هؤلاء (العشاق) يَلِجون من

---

[1]- المقطوعة للشاعر الكوّاز الحلّي.

[2]- أي تمزق خدّه ولم يخنع أو يركع... والمقطوعة من قصيدة شهيرة لشاعر العرب الكبير (محمد مهدي الجواهري). وهذه القصيدة مخطوطة بماء الذهب ومعلقة على ضريح الإمام الحسين (ع).

[3]- المرحوم السيد حيدر الحلي ـ في ديوانه ـ القسم الحسيني المطبوع سنة ١٤٠٩ هـ

خلال هذه الباب أو تلك، إلى ساحة القدس تبارك وتعالى، أو باب التوبة والإنابة والعودة إليه عزّ وجل... ومن خلال دمعة ساخنة تدفّقت هنا، أو عبرة محبوسة تفجّرت هناك...

نعم، ستبقى أناشيد هذه الثورة تدوّي في الخافقين، ويردّدها النجباء والثوار والمحبون والسالكون... وتبقى شعاراتها التعبوية الخالدة ترانيم عزّ وفخر على شفاه الأحرار والشرفاء يكررونها ويعيشون معها ويتغنون بها عاماً بعد عام وجيلاً بعد جيل.

***«نعم لا نبالي، ما دمنا على الحق، وقعنا على الموت أم وقع الموت علينا».**

*** يموت الرســـــول جسماً ولكنْ ... في الرسالات لا يموت الـــرسولُ**

*** فإن تَكنْ الــــدنيا تُعدّ نفيسة ... فدار ثــــواب الله أغلى وأنبل**

وإن تــكن الأجساد للموت أُنشئت ... فقتل امرءٍ بالــسيف في الله أفضل

*** إن البطولة أن تموت من الظمأ ... ليـــــــس البطولة أن تعبّ الماءا**

*** كأني بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء.**

*** إني لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ برما..**

*** والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ لكم إقرار العبيد...**

*** لقد ركّز الدعي ابن الدعي، بين السلّة والذلّة، وهيهات منا الذلة..**

*** وعلى لسان الحوراء زينب:**

«يا يزيد ... كدْ كيدك، واسعَ سعيك، وناصِبْ جهدك، فوالله لا تمحو ذِكْرنا، ولا تُميت وحْينا، ولا يدحض عنك عارها، وهل رأيُك إلاّ فندْ، وأيّامك إلاّ عددْ، وجمعك إلاّ بددْ».

وما إلى ذلك من كلمات وشعارات ستظل غرّة على جبين الزمان، ما بقي على الأرض ثوار، وما بقي في الدنيا أحرار وعظماء...

وهذا يعني أن ذكرى الحسين تبقى نافذة خير وهداية وعطاء لكلّ حرّ شريف، يُريد أن يَعرف مصاديق الرجولة والشرف، ويتطلّع إلى عنفوان الحرية والكرامة بأجمل صورها، وأبهى تجلّياتها، وأسطع رموزها وعناوينها..

وتبقى العاطفة في هذه الذكرى، وإنْ حاولَ البعض تسطيحها أو تضخيمها على حساب العقل، هي البوّابة التي يلج منها أصحاب العواطف، لاستحضار مواقف الرجال بعد أن يشحّ رجال المواقف...

وهذا يعني أيضاً، إنّ مشاهد الذكرى، إذا شُذّبت مما أدخل فيها من (بدع وخرافات). يمكن أن تكون ملتقيات رائدة لتوعية الأمة، ويمكن أن تتحول منابر الحسين ومجالس العزاء إلى ندواتٍ فكرية وسياسية واجتماعية حاشدة لتعبئة شباب الإسلام واستنهاضهم والنهوض بهم لتحمّل مسؤولياتهم التأريخية، والوقوف ضد الطواغيت والظلمة وأعداء الشعوب... وفي أقل التقادير الوقوف ضد القرارات الجائرة التي تنتهجها بعض السلطات الظالمة في هذا البلد أو ذاك، أو في هذه البقعة من الأرض أو تلك...

وهذا ما حصل يوماً في العراق، مثلاً، حين راح (الرادود) الحسيني الواعي يندّد بإجراءات السلطة في افتعال حرب ظالمة بين أهل الشمال وأهل الجنوب، فراح يقول إمام الألوف من عشاق الحسين، أي في مجلس الحسين:

صفّوا العراق بوحدته   يللي تــــفهمون

بالوعد توفون

جيش الجنوب بقوته يضرب شماله

وين العدالة؟![1]

أو صوت الآخر الذي راح منددّاً، بالمدّ الأحمر الملحد آنذاك الذي خلط المفاهيم وأشاع الخمر، ونشر التحلّل والفساد؛ ومزّق الأمة شيعاً وأحزاباً وتكتلات، فقال أمام الجمهور الحسيني المحتشد أيضاً.

شيـــــوعيّة شعوبية　　الشيعة مــــــو شيوعية

الشيعة نـــــاس أطياب　　عليمن هـــــاي الألقاب[2]

شجاها الوادم اخرسّت　　شــــــجاها من أيديها

إلى أن يقول:

التجارة كاسدة والخمر　　شهـــــــا الأوضاع

شگلك ضلّت الناس[3]　　فســـاد وظلم وإفلاس

سياسة أهل الأطماع　　ويّه الخـــــمر تنباع

شجاها الوادم اخرسَت　　شجـــــاها من ايديها

(أي أنها تتحمل مسؤولية صمتها وما جنته أيديها.)

أو تلك الأخرى:

ضلّـــــــت الـــناس محيّرة　　تنــــادي الزچية حيدره

---

[1]- وكان هذا في زمن الحقبة البعثية يوم كانت طاحونة الحرب تحصد المئات يومياً من العرب والأكراد في ما سمّي حينها (حرب الشمال) أي شمال العراق.

[2]- أي لمن هذه الألقاب.

[3]- أي ماذا أقول لك؟ لقد أصبح الناس في تيه وضلال، وذلك عندما شطّ الماركسيون في الستينات وتحالف بعضهم مع أعداء الدين، وهو الأمر الذي انتبهوا إليه أخيراً فتصالحوا مع الدين وأهل الدين. أي انتهوا إلى مصالحة مع الله وتعالى بعد أن ناصبوه العداء على امتداد نصف قرن من الزمان.

فترة حكم مـــــــا تنحسبْ   لابـــن الأمير المِنتصب[1]
يضرب ضرب، يلعب لـــعب   ويگول آنـــه ابن الشعب
والله كـــــذب، ذاك الصبي   يگلب الكون على مره[2]
ضلّت النـــــاس محيّره   تنـــادي الزچية حيدره

* * *

ســكران للمسجد طلع   كـــذّاب والله ما ركع
صـــلىّ الصبح أربع ركع
والنـــاس كلها محيّره   تنـــادي الزچيّه حيدره

وأمثال ذلك الكثير الكثير مما يمكن إثارته في هذه المؤتمرات والملتقيات والمظاهرات المليونية الحاشدة..

فلتُحفظ عواطف الذكرى ومظاهرها الشاعرية والمشاعرية إذنْ، في إطارها المقدس المهيب، وليُدرس الظرفان الزماني والمكاني، قبل الإقدام على إلغاء هذه (الشعيرة) فيها أو تكريس تلك...

فإذا كانت القامة (أي حمل القامة) موضوع الجدل مثلاً رمزاً لتحدّي سلطة ظالمة، تريد إلغاء ذكرى الحسين فكراً وعاطفةً، عِبرة وعَبرة في هذا البلد، فإنها (أي القامة) ليست كذلك في بلد آخر أو سلطة أخرى جعلت من هذه الذكرى عنواناً كبيراً لمجدها وعزتها وكرامة أبنائها...

---

[1]- أي وليّ العهد المنصّب غير المنتخَب.

[2]- أي يقلب الدنيا من أجل أن ينال امرأة أو معشوقة.

وإذا كان البكاء والحزن محرّماً في هذه البقعة من الأرض مثلاً، فإن التباكي وليس البكاء فقط، يصبح مطلوباً ـ بل واجباً ـ لإظهار الحزن ومواساة المفجوعين من أتباع مدرسة الحسين في بقعة أخرى، وهكذا...

أما مستوى الوعي وتفكيك أزمته هذه، فهي الأخرى يُراعى فيها مستوى الجمهور والسعي لرفع وعيه برفق ورَوِيّة، ودون إجحاف أو إقحام أو تعسّف... فهناك من الجمهور من تؤثّر فيه الردّة البسيطة:

جاسم يـــــا نور عيوني — يـــوم العرس عزّوني

يّمه الـــــــــدمع... — طفّة الشمـــــــــع

جاسم ينور عيوني

ومنهم من يستغرب بساطة هذه المقطوعة ومحدوديتها ويُفضّل الأخرى القائلة:

كربلا لا زلـــتِ كـــرباً وبلا — مـــــا لقي عندك آل المصطفى

كم على تُربك لّمـــا صرّعوا — مـــن دمٍ سالَ ومـــن دمعٍ جرى

يا رسول الله لـــو عايَنْتهم — وهُمُ مـــا بين قتلٍ وسِبا

يا رسول الله يـــا فاطمة — يـــا أمـــير المؤمنين المجتبى

كيف لم يستعجل البـــاري لهم — انقلاب الأرض أو رجْم السماء!![1]

وكلا النشيدين أو المقطوعتين صادقتان مطلوبتان، ففيما عبّرت الأولى أصدق تعبير، عن عاطفة الأمومة المفجوعة وحيث يتطلب الموقف دمعةً وعزاءً وتسلية وشداً لهذه الأم الكريمة التي قدّمت وحيدها قرباناً لدين الله وفداء لسيد الشهداء (عليه السلام) عبّرت الثانية عن لوعةٍ محبوسة يُراد لها أن تتفجر غضباً مقدساً على الظالمين الذين

---

[1] – الأبيات للسيد الشريف الرضي من قصيدة مشهورة له في رثاء الإمام الحسين (عليه السلام).

قَتلوا آل المصطفى وأهانوا حرائر الرسالة وقادوا مخدّرات النبوّة سبايا إلى قصور اللئام في الشام.

وهذا هو خلاصة الذي قُلناه أو الذي نريد أن نقوله في نهاية البحث، إن الذكرى يجب أن تبقى محفوظة ومصانة بين دائرتين أو بُعدين، دائرة التوجيه الفكري، ودائرة الخطاب التعبوي، ويجب أن تُخلّد غنيّةَ فكراً وعاطفةً، وتنبُض قلباً وعقلاً، كما خُلّدت عَبْرة وعِبْرة، (دماماً)[1] ومحاضرة، دمعةً ورسالة.. أي أن تبقى هذه الذكرى العطرة مدرسة ومنهجاً من جهة، وقصيدةً وأهزوجةً ونشيداً من جهةٍ أخرى، وعلى مستوى واحد من الأداء الفكري، والضخّ العاطفي والوجداني.

أما موضوع المحافظة على هذه الموازنة الدقيقة فهو من شؤون الفقهاء والمفكرين وقادة الأمة وأصحاب الرأي فيها وضمن مسؤوليات الأدباء والخطباء والمثقفين والشعراء، وكلّهم مع بعض وبدون استقطابات أو كانتونات أو تكتّلات تُضيّع الهدف وتُفتّت الإنسجام وتمزّق وحدة الصف.

نعم، إنها مسؤولية الفقيه والمفكر على حد سواء، ومسؤولية الرادود والمثقف بلا مماهاة أو مماحكات أو مِراء، مزيجاً مقدساً من دمعةٍ ساخنة يفجّرها صوتٌ شجيّ لـ (روزخونٍ) مفجوع، أو قصيدةٍ خالدة لشاعرٍ حزين أو قارئ حسيني متوجّع، وجنباً إلى جنب مع فِكرةٍ وعِبرةٍ أو محاضرةٍ أو مناظرة، ينظّر لها قلم مسؤول لموجّه فكري عميق، وليكُن فقيهاً مُنظّراً أو مُنظراً فقيهاً، لا فرق، ويداً بيد مع الخطيب والمثقف والأديب، وبلا إفراطٍ أو تفريط، وبلا حيف أو مصادرةٍ أو إجحافٍ، أو تداخل أدوارٍ أو إدعاء عريض...

---

[1]- الدمام هنا إشارة إلى دويّ طبول المعركة المقدسة التي احتدمت بين قوى النور وقوى الظلام ظهيرة عاشوراء وقبلها، وكيف راحت خيولها ورجالها بين (مدعّسٍ و مكردسٍ)، وليس كما تُستخدم الدمامات في بعض الأحيان استعراضاً (فولوكلورياً) باهتاً لا يعبّر عن عمق الدويّ ورمز الحشود، أو دعوة التحشيد...

وليكن نشيد الجميع في نهاية المطاف:

فـــــلا الصبرُ محمودٌ بقتل ابن فاطمٍ ... وليس لمن لم يَجر مدمعُه عُذرُ

فيا غيرة الإسلام هبّي لمعضـــــــلٍ ... به الملّة البيضاء أدمــــــعها حمرُ

أتغدو مقاصير الــــــــــنبي حواسراً ... وآكــــــلة الأكبادِ يحجبها قصرُ[1]

أو هذا الإيقاع الشعبي المعبّر:

«حتى جِلْد الگاع كزبر من وگع لحسين» أي حتى وجه الأرض اقشعر حين سقط سيد الشهداء صريعاً على الأرض.

وهو ما قاله شاعر عربي آخر يصف لحظة سقوطهَ (سلام الله عليه) إلى الأرض:

واهتزّت السبْع الطباق وزُلزلت ... رواسي جبال الأرض والتطم البحرُ

وأخيراً وليس آخراً:

فسلامٌ على (كلّ) مثقلٍ (بالظمأ) ... ويشمخُ كـــــالقائد الظـــــافِرِ

وليس عـــــلى خـــــاشعٍ خانعٍ ... مقيم عـــــلى ذُلّه صـــــابِرِ

سلامٌ عـــــلى طيّبـــــات النذور ... سلامٌ على الــــــواهبِ الناذِرِ

سلامٌ عـــــــلى غمرات النضال ... سلام على سابحٍ مـــــــاهرِ

وقبل ذلك وبعده، وعوداً على بدء ونشيداً لا يُنسى:

سيظلّ ذكـــــــركَ يـــــا حسين ... يهزّ منـــــا القـــــلب هزّا

وكـــــذا ندانـــــا يـــــا حسين ... يُزيدنـــــا شرفـــــاً وعـــــزّا

---

[1]– إشارة إلى (هند) التي أكلت كبد حمزة عمّ النبي (ص) في معركة أحد، وعشيرتها من آل أميّة وآل مروان وآل بني سفيان. الذين ناصبوا العداء للنبي وأهل بيته ورسالته.

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

ثقافة الإختلاف ... ضرورتها وواقعيتها

الفصل الثاني

النقد والنقد الذاتي...

الفصل الثالث

مصداقان على الاختلاف في البيت الواحد

الفصل الرابع

رسالة التنزيه للسيد محسن الأمين

الفصل الخامس

الملحمة الحسينية في فكر الشهيد المطهري

الفصل السادس

التطبير وبعض الممارسات الخاطئة في الزيارات

فقهاء وعلماء آخرون تحدّثوا عن التطبير

كتب صدرت للمؤلف

- الشهيد الصدر بين أزمة التاريخ وذمّم المؤرّخين (طبعة ثانية- بيروت)
- مع المجاهدين والشهداء في عوالمهم - البدريون الاوائل (طبعة ثانية).
- الحريات والحقوق (طبعة ثانية) - دار الشؤون الثقافية - بغداد
- مقالات عكس التيار حول الترف والاستبداد
- الثورة في فكر الإمام الخميني (طبعة رابعة)
- الصدر الثاني الشاهد والشهيد
- الإمام زين العابدين... دراسة تحليلية
- جمال الدين الأفغاني... نموذج لم يتكرر - بيروت
- التقصير الكبير بين الصلاح والإصلاح - بيروت
- المجلس الأعلى... وثائق وأرقام
- الإسلام والتعددية الدينية لـ ليكنهاوزن (ترجمة عن الانجليزية)
- وقفة و حوار مع الشيخ الكوراني (تعقيب على كتاب الحق المبين)
- الغلو و الغلاة... قراءة شيعية معاصرة - بيروت
- ست نظريات حول انتصار الثورة الإسلامية (ترجمة عن الانجليزية)
- التشيع بين السياسة والتاريخ والواقع - وفيه تعقيب على كتاب الاستاذ حسن العلوي (عمر والتشيع) - الطبعة الثانية
- الانبعاث الشيعي (ترجمة عن الانكليزية) - مؤسسة مصر مرتضى - المتنبي - بغداد
- صاحب الغار ابو بكر وليس رجلا آخر (رد على كتاب)
- الديمقراطية والدين وولاية الفقيه - دار الانتشار العربي-بيروت
- أزمة العقل الشيعي - دار الانتشار العربي - بيروت
- موجز تاريخ العراق السياسي الحديث
- نزار قباني بين الحب والجنس والقضية - رؤية نقدية
- الدين والسياسة - إشكالية الحق والمصلحة (تحت الطبع)